



شرح كشف الشبهات

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ١ إلى الدرس ٥

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٦/٠٣ هـ

الدرس الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد :

فإن من نعم الله العظيمة على عبده المسلم أن ييسر له في حياته تعلم التوحيد الذي خُلق لأجله، وأوجد لتحقيقه، ومعرفة دلائله وحججه وبياناته، وأيضاً أن يعرف ما يضاد التوحيد ويناقضه أو يُنقص كماله ليكون على حذر تام من كل أمرٍ يناقض التوحيد أو ينافيه، ومن كل أمرٍ يُنقص من كمال التوحيد، ويكون التوحيد عند المرء المسلم أثمن شيء وأعلى كنز وأعظم أمرٍ يُعنى به في حياته كلها ، وتكون عنايته بتوحيده مقدمةً على العناية بكل أمرٍ، واهتمامه بتوحيده مقدماً على الاهتمام بكل أمر ، لأن التوحيد أعظم مطلبٍ وأجل مقصد وأنبل غاية ؛ وهو أساس هذا الدين، وأصله الذي عليه يبنى، وهو أساس قبول الأعمال، وزكاء الطاعات وصلاحها، وأساس قبولها عند الله تبارك وتعالى ، كل عمل يقوم به الإنسان ولا يكون قائماً على توحيد الله عز وجل فإنه يذهب هباءً، ولا ينتفع به عامله أي شيء ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، قد قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال جل وعلا : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] .

ولهذا فإن عقد المجالس لدراسة التوحيد وبذل الأوقات لمعرفته ومعرفة دلائله وحججه وقراءة ما كتبه أئمة أهل العلم في هذا الباب هو من أهم المهمات وأعظم المطالب التي ينبغي على طالب العلم أن يُعنى بها. والعناية بالتوحيد تتناول جانبين لا بد منها:

- الجانب الأول: معرفة التوحيد؛ من حيث تقريره وتأصيله وذكر دلائله وحججه وبياناته.
- والناحية الأخرى: معرفة الأمور التي هي من نواقض التوحيد أو من نواقضه؛ لأن للتوحيد نواقض وله نواقص، طالب العلم والمسلم عموماً كما أنه مطالب بمعرفة التوحيد ليحققه، فإنه في الوقت نفسه مُطالب بمعرفة نواقضه ونواقصه ليحذرهما، لتكون مستبينة له، واضح أمرها عنده ، فيكون منها على حذر، ويكون أيضاً محذراً للناس من الوقوع فيها ومن سوء مغبتها وعاقبتها على من وقع فيها في دنياء وأخراه ، قد قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، في صحيح البخاري عن حذيفة رضي الله عنه، قال: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَكَانَتْ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَهُ» ، فهذا مطلب لا بد منه، كما أن المسلم مطالب بمعرفة الحق ليتبعه فإنه كذلك مطالب بمعرفة الباطل ليحذره. ولأجل هذا ألف العلماء رحمهم الله مؤلفات مفردة في الكبائر وبيانها وعدّها، ومن ألف في الكبائر: مؤلف هذا الكتاب الذي اجتمعنا لدراسته؛ أعني شيخ الإسلام الإمام الهمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ، له

كتاب في الكبائر من أنفس ما يكون، ومن قبله للإمام الذهبي في آخرين من أهل العلم ألفوا في بيان الكبائر ، وأكبر الكبائر الشرك بالله عز وجل، أكبر الكبائر الشرك بالله، وهو ناقض التوحيد. وقد قيل قديماً: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!» ، كيف يتقي الشرك من لا يعرفه!، كيف يتقي المحرمات من لا يعرفها، ولهذا فالمسلم كما أنه مطالب بمعرفة الحق فإنه مطالب أيضاً بمعرفة ما يناقض الحق أو ينقصه ليحذر من الوقوع فيه، ويتأكد هذا الأمر عندما تموج الشبهات وتكثر الفتن ويتوارد أهل الباطل على تشكيك أهل الحق في ثوابتهم ومسلماتهم، بطرح الشبهات العاصفة التي تفتن الناس وتلبس عليهم دينهم وتصرفهم عن الحق الذي خلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه، وقد خاف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من أئمة الضلال قال: ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين))، فخاف عليه الصلاة والسلام على أمته من أئمة الضلال ودعاة الباطل؛ لأنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق ، لأنهم يشبهون على الناس . وكم من أناس حُرِفَتْ عقائدهم وصُرفوا عن الجادة السوية بسبب دعاة الباطل وأئمة الضلال ؛ بل إن دعاة الباطل يستमितون في جلد عجيب ودأبٍ وجدٍ واجتهاد في تمكين الشبهات وغرسها في الناس ليعدوهم عن دين الله تبارك وتعالى، ولا يزال أهل الباطل يشبهون على الناس ويفتنوهم في دينهم في قديم الزمان وحديثه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء واصفاً حالهم على مر العصور واختلاف الأزمان قال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]؛ فهي متشابهة في الصد عن الحق والتمكين للباطل وطرح الشبهات على الناس ليعدوهم عن دين الله تبارك وتعالى.

ولقد عظمت المصيبة في زماننا هذا عندما انفتح على الناس من وسائل الاتصال الحديثة ونقل المعلومات السريعة، بحيث يمكن للإنسان أن يقول الكلمة فتصل في اللحظة الواحدة إلى أطراف الدنيا، من خلال القنوات الفضائية ومن خلال الانترنت الشبكة العنكبوتية، ومن خلال الهواتف ولا سيما الهاتف النقال الذي يحمله كثير من الناس، وأصبح أهل الباطل يجدون من خلال هذه المجالات وسائل سهلة لهم لنشر باطلهم . والذي يدمي القلب ويحزن الغيور أن ترى في كثير من أبناء المسلمين وبناتهم من يجد متسعاً من وقته ليسمع لمن يلقون الشبهات، ولا يجد متسعاً من وقته ليتعلم التوحيد! .

أعيدها مرة ثانية: أقول مما يدمي القلب ويؤلم الغيور أن كثيراً من أبناء المسلمين وبناتهم يجد من وقته متسعاً لسماع تلك الشبهات والجلوس أمام تلك القنوات وأمام المواقع المريبة في الانترنت، ولا يجد متسعاً من وقته ليتعلم التوحيد؛ بل بعضهم ما جلس لتعلم التوحيد ثم فتح قلبه لأصحاب الشبهات ليودعوا في قلبه سم شبهاتهم وركام باطلهم! وهنا تتلوث العقول وتفسد العقائد وتحزب الأديان وتفشوا الضلالات، مما يتطلب على أهل الحق والغيرة على دين الله تبارك وتعالى أن يبذلوا ما استطاعوا من جهودٍ في أولاً: تعلم العلم والجلوس لمدارسته ومذاكرته، ومن ثم بثه ونشره في الناس وتعليمه لهم ، ولهذا أدعوك أن تحتسب في مثل هذه المجالس أن تكون معلماً للخير، ناصراً لدين الله تبارك وتعالى ، تفقه الدين تعرف التوحيد، وتعرف الحق وتعرف الهدى، وتعرف أيضاً شبهات أهل

الباطل وطريقة أهل العلم في ردها لتكون بإذن الله تبارك وتعالى من أنصار هذا الدين ومن دعاة الحق ومنارات الخير، ومن العاملين في صد هذه الأباطيل ورد هذه الشبهات.

ومن عجيب وغريب أمر كثير من الناس أعني عوامهم وجهالهم ؛ أن صار أمرهم في مجالسهم تطارح شبهات يحارون في جوابها، وترى كلاً منهم يتكلم ويهرف بما لا يعرف مما سمعوه من تلك القنوات، ولا يجد هؤلاء وقتاً لدراسة الحق والهدى على بابه الصحيح ووجهه القويم.

إن شبهات أهل الباطل التي أثاروها في قديم الزمان ولا يزالون يثيرونها في كل زمان وأوان، تحتاج من دعاة الحق وأهل الخير إلى وقفة صادقة في الذب عن دين الله تبارك وتعالى وحماية حماه . وإذا كان -أيها الأخوة الكرام- إذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام عدّ من شعب الإيمان العظيمة وخصاله الجليلة إمطة الأذى عن الطريق، أن تجد شيئاً من القدر أو الشوك أو الأمور المؤذية في طريق الناس فتमितطها عن طريقهم لئلا تؤذيهم ؛ عدّ ذلك عليه الصلاة والسلام من شعب الإيمان، فكيف بإمطة الشبهات التي أقذع الأذى وأشدّه؛ لأنها في طريق السائرين إلى الله عز وجل بالإخلاص والتوحيد، وإذا ابتلي الناس بهذه الشبهات ربما أخرجتهم عن صراط الله المستقيم، وكما قدمت كم من إنسان حُرّف عن العقيدة الصحيحة والسبيل القويم بسبب الشبهات المهلكة، فإذا كان إمطة الأذى عن طريق المسلمين شعبةً من شعب الإيمان، فإن إمطة الشبهات بكشفها وتعريضها وبيان حقيقة أمرها وإيضاح زيفها ووهائها من أجلّ القربات وأنفع الطاعات التي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى.

وهنا ندرك الفضل العظيم والخير الكبير الذي حبا الله سبحانه وتعالى به من حبا من عباده بأن كانوا أنصاراً للحق ببيانه ورد الشبهات التي يثيرها أهل الباطل صدأً عن الحق والهدى ، ولا أبالغ عندما أقول إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا أعني كتاب «كشف الشبهات» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لم يؤلف في بابه مثله، مع وجازة الكتاب واختصاره في مادته العلمية ومباحثه إلا أنه لم يؤلف في بابه مثله!، ولا غرّو في ذلك! فإن من كتب هذا الكتاب إمامٌ مجدّد وعلمٌ مصلح وإن رغمت أنوف، نصر الله عز وجل به دينه وأعلى به كلمته، وانتشر دين الله عز وجل الصافي النقي في أنحاء المعمورة، في دعوة مباركة يسر الله تبارك وتعالى هذا الإمام للقيام بأعبائها؛ كان من جهوده في نصره الحق وبيانه أن ترك مؤلفات عظيمة نافعة لا تزال زاداً لطلاب العلم ، وبركة هذه المؤلفات ظاهرة، في عقد الدروس والمجالس الكثيرة لمذاكرتها، وكتابة المؤلفات الكبيرة في شرحها وبيانها، وترجمتها إلى كثير من لغات العالم، وهذه بركة طرحها الله عز وجل في دعوة هذا الإمام؛ الدعوة الصافية النقية إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له، واتباع رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولما كان رحمه الله تعالى في زمانه متحملاً أعباء الدعوة، ناشراً التوحيد في الناس، مبيناً دلائله وحججه؛ كان دعاة الباطل وأهل الأهواء في زمانه يثيرون الشبهات في الناس لصدهم عن هذه الدعوة، وأثاروا شبهات كثيرة أرادوا من ورائها صد الناس عن الدعوة إلى التوحيد التي قام بأعبائها هذا الإمام رحمه الله، فانبرى رحمه الله تعالى وأتى على

أبرز شبهات هؤلاء وجمعها في هذه الرسالة وأجاب عنها بأجوبة مقنعة ، وكشف ما فيها من زيف وضلال وباطل بما لا مزيد عليه. ولم يكن رحمه الله تعالى في هذا الكتاب مقتصرًا على كشف تلك الشبهات التي أثّرت في زمانه من دعاة الباطل؛ بل كان -وهذا من تمام نصحه رحمه الله تعالى- مؤصلاً في كتابه الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها طالب العلم في موقفه من الشبهات وفي طريقة ردّها وبيان فسادها. وشبهات أهل الباطل كثيرة وعديدة، قد لا يتسنى لكل طالب علم أن يعرف بشبهات أهل الباطل وأجوبة أهل العلم لها معرفة تفصيلية، فوضع رحمه الله في مقدمة كتابه كشف الشبهات تأصيلاً مباركاً وتقريباً نافعاً لطالب العلم يسير على ضوئه في رد شبهات أهل الباطل، ولا سيما إذا لم يكن على معرفة تفصيلية بكشف تلك الشبهات، ومن أهم ما يكون في ذلك أن يعرف الحق الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم واجتمعت عليه دعوة الأنبياء والمرسلين ، فكانوا من أولهم إلى آخرهم دعاةً له، يعرف ذلك معرفة جيدة، ويعرف دلائله وحججه وبيّناته، ويعرف أيضاً في الوقت نفسه دين المشركين الذي بعث النبي صلى الله عليه وسلم بإبطاله ونقضه وهدمه، ماذا كان عليه المشركين من دين؟ يعرف ذلك، فإذا عرف دين النبي عليه الصلاة والسلام وعرف دين المشركين الذي بعث النبي صلى الله عليه وسلم بإنكاره، إذا عرف هذين الأمرين معرفة جيدة سلم من جُلّ شبهات أهل الباطل، فإذا عرف الحق وعرف ضده، عرف صحة الحق وعرف بطلان ضده، فإنه بإذن الله تبارك وتعالى لا تنفق عنده شبهة ولا تروج، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

ولهذا مهّد الشيخ رحمه الله تعالى بتمهيد نافع جداً جعله في صدر الكتاب وأوله في بيان دين نبينا عليه الصلاة والسلام ودين الأنبياء واجتماعهم على توحيد الله وإخلاص الدين له، وبيان دين المشركين وحقيقة دينهم الذي بعث النبي صلى الله عليه وسلم وبعث الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه عليهم من قبله لإنكاره وإبطاله، مهّد لذلك ثم بعد ذلك ذكر تقريراً مجملاً في رد الشبهات وكشفها، ثم ذكر أبرز الشبهات التي أثّرت في زمانه من أرباب الباطل وأهل الاهواء، فأجاب عنها إجابة تفصيلية، وبهذه الأمور الثلاثة يكون رحمه الله وضع النقاط - كما يقال - على الحروف، ووضع المنهج السديد في السلامة من الباطل وشبهات أهله أيّاً كانت.

فنسأل الله عز وجل أن يجزيه خير الجزاء وأن يرفع قدره، وأن يعلي مقامه في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وأن يبارك في جهوده العظيمة وأن يرزقنا جميعاً حسن الاستماع وحسن الانتفاع، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء.

وأما مؤلف الكتاب فهو غني عن التعريف -رحمه الله تعالى-، وأما مؤلفه فهو الذي بين أيدينا كتاب «كشف الشبهات»، وسنقف إن شاء الله بما يسمح به الوقت على مضامين هذا الكتاب العظيمة.

وأشير إلى أن هذا الكتاب حظي بشروحاتٍ عديدة مكتوبة وصوتية من أكابر أهل العلم، وأنصح بمطالعة الشروحات لهذا الكتاب ولا سيما شرح الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى، وهو مطبوع جُمع من تقريراته رحمه الله، جمعه تلميذه الشيخ محمد بن عبد الرحمن القاسم رحمه الله، وأيضاً شرح الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى، والشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى، والشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى، وجميعها موجودة صوتاً وكتابةً فُرغت من الأشرطة، وهي شروحات نافعة ومفيدة جداً لطالب العلم. ونسأل الله عز وجل أن يمن علينا أجمعين بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يسلك بنا جميعاً في الباب العظيم من أبواب الخير، فإنه تبارك وتعالى ولي التوفيق والسداد.

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وقدس روحه في الجنة:
اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَهُوَ دِينَ الرِّسْلِ الَّذِي أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم" أولاً هذا الكتاب سماه رحمه الله تعالى «كشف الشبهات»، والكشف في اللغة معناه معروف؛ عندما يقال كشف الشيء أي: أزال عنه ما يغطيه، يقال كشف مثلاً فلان اللثام عن وجهه أي: أماهه وأزاله عن وجهه، فأصبح وجهه بدل أن كان خفياً أو غير ظاهرٍ أصبح ظاهراً، فكشَفَ الشيء بأن يُمَاط عنه ما يغطيه.

والشبهات: هي الأمور التي يلبس فيها الحق والباطل، يشبّه فيها على الناس بحيث عندما تثور هذه الشبهات تجعل الأمر ليس واضحاً، فيلتبس عليهم الحق بالباطل وتشتبه عليهم الأمور، فلا يكون الحق مستبيناً لهم أنه حق، ولا يكون أيضاً الباطل مستبيناً لهم أنه باطل؛ فتلتبس عليهم الأمور وتختلط عندهم، ويصبح الأمر بدل أن كان واضحاً يصبح ملتبساً مختلطاً غير واضح.

وكشف الشبهات: أي تعريضها وبيان فسادها وبطلانها بحيث يكون ظهور بطلانها واضحاً للناس، والشبهة إذا ثارت التبس الأمر على الناس فلم يميزوا بين حق أو باطل، فإذا قَيَّضَ الله سبحانه وتعالى لهم علماً ناصحاً فكشف عنهم الشبهة رأوا الحق. فالشيخ رحمه الله عليه سمى كتابه «كشف الشبهات»؛ لأنه أزال فيه بتوفيق الله تبارك وتعالى ما يثيره أهل الباطل من أمور يلبسون بها على أهل الحق وأهل التوحيد.

وبدأ رحمه الله كتابه بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» تأسيساً بكتاب الله عز وجل، وتأسيساً بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام في مكاتباته ومراسلاته. والباء في «بسم الله» باء الاستعانة، وقوله «بسم الله» أي أبدأ بذكر اسم الله تبارك وتعالى، أبدأ كتابي هذا أو أكتب كتابي هذا مستعيناً بالله تبارك وتعالى، ذاكراً اسمه جل وعلا.

قال : «اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة»؛ "اعلم" هذه كلمة يؤتى بها في الأمور العظيمة المهمة التي تحتاج إلى استدعاء انتباه السامع وشد ذهنه وجمع قلبه، وعنايته بالموضوع الذي يُلقى عليه، فهي يؤتى بها للتنبيه وشد الانتباه ، ويؤتى بها في الأمور العظام، وفي القرآن الكريم أتت في مواضع عديدة، جلُّها فيما يتعلق بتوحيد الله عز وجل ومعرفة عظمته وجلاله وكماله وأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، فيما يقرب من ثلاثين موضعاً أو يزيد، منها قول الله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهي كلمة يؤتى بها في الأمور العظيمة التي يستدعي المقام شدَّ انتباه الناس لهذه الأمور حتى يحسنوا الاستماع ومن ثم يحصل بإذن الله تبارك وتعالى الانتفاع.

«اعلم رحمك الله» ؛ وهذا أيضاً من نصحه، بدأ الكتاب بهذه الدعوة لمطالع هذا الكتاب وقارئه والمستفيد منه، دعا له بالرحمة. والرحمة تارة تُذكر مع المغفرة وتارة تذكر مفردة، كما ذكرها الشيخ هنا رحمه الله

● فإذا ذُكرت مع المغفرة فإن المراد بالمغفرة ستر ما مضى وكان، والمراد بالرحمة التوفيق فيما يستقبله المرء من الأيام والأزمان.

● وإذا ذُكرت الرحمة وحدها هنا جمعت الأمرين، فقوله «رحمك الله» أي بأن يغفر لك ما مضى، وهذا من رحمة الله بعبده، وأن يوفقك فيما بقي من حياتك. إذا أطلقت الرحمة والدعاء بالرحمة يشمل الأمرين، «اعلم رحمك الله» يشمل غفران ما مضى؛ من رحمة الله بك أن يغفر لك ما مضى وما سلف وما كان، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بك أن يوفقك لسديد الأعمال وصالح الأقوال فيما بقي من حياتك.

((أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة))؛ «التوحيد»: هذه الكلمة مصدر للفعل وَحَّدَ يوَحِّدُ توحيداً ، وهو أصلٌ يدل على الإفراد، وتوحيد الله عز وجل : هو إفراده تبارك وتعالى بخصائصه سبحانه وتعالى في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته وفي ألوهيته، أن يُفرد جل وعلا بكل ما هو مختص به عز وجل من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وبربوبيته وأنه سبحانه المتفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتصرف والتدبير إلى غير ذلك، وأن يُفرد تبارك وتعالى وحده بالعبادة، فلا يُجعل معه شريكاً في شيء منها، هذا هو التوحيد، توحيد الله عز وجل: أن يفرد جل وعلا بخصائصه عز وجل في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته. ولهذا قال أهل العلم التوحيد ينقسم إلى أقسام ثلاثة: توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية.

والشيخ رحمه الله عليه عرّف التوحيد هنا، بل كثيراً ما يأتي هذا التعريف في مصنفاته رحمه الله ورسائله ومكاتباته لأنه تعريف مختصر وجامع. قال: ((اعلم أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة)) ؛ إفراده بها: أي لا يُجعل معه فيها شريك، بأن يُخص بها تبارك وتعالى وحده، فلا يُجعل معه شريك في شيء منها.

قال: ((اعلم أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة)) ؛ وهنا يتطلب أيضاً الأمر من الموحّد أن يعرف العبادة ماهي؟ حتى لا يصرف شيئاً منها لغير الله، وحتى يُخص بها الله جل وعلا، فإذا كان لا يعرف العبادة ماهي فربما صرف

شيئاً منها لغير المستحق لها وهو الله تبارك وتعالى، والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، وهو التعريف الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «العبودية» وتناقله عنه أهل العلم، وهو من أجمع ما قيل في بيان حد العبادة وتعريفها؛ اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. فالعبادة حق لله عز وجل يجب أن يفرد بها عز وجل .

ولم يذكر هنا ما يتعلق بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لأن هذا التعريف أو هذا التوحيد أعني توحيد الألوهية متضمن للتوحيدين ، توحيد الألوهية الذي هو إفراد الله بالعبادة متضمن للتوحيدين، لا يكون عبداً لله تبارك وتعالى مخلصاً له العبادة إلا من عرفه رباً خالقاً رازقاً مدبراً له الأسماء الحسنى والصفات العليا، فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، أما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فإنهما مستلزمان لتوحيد الألوهية. وإذا قلنا أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات فمعنى ذلك: أنه لا يكون موحداً لله عز وجل في ألوهيته إلا من عرفه رباً وعرف أسمائه وصفاته، وأما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فإنهما مستلزمان لتوحيد الألوهية ، قد يكون الإنسان مقراً بالربوبية - بأن الله هو الرب الخالق الرازق المنعم- ولكن لا يخلص العبادة لله ولا يفرد الله عز وجل في العبادة، وهذا أمر سيأتي تبينه وتوضيحه وذكر الأدلة عليه في كلام المصنف رحمه الله تعالى .

قال: ((اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده))؛ وهذه حقيقة عظيمة جداً ينبغي العناية بها ؛ أن هذا التوحيد الذي هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة هو دين الرسل، دين الرسل: أي من أولهم إلى آخرهم، كلهم متفقون عليه مجتمعون على الدعوة إليه، لا خلاف بين نبي وآخر فيه، كلمتهم فيه واحدة، وقولهم فيه سواء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١] ومعنى قوله ﴿قَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ النذر: هم الرسل. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: أي كلهم تواردت كلمتهم واتفقت دعوتهم على هذا الأمر: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وكلهم متفقون كلمتهم واحدة، الرسل من أولهم إلى آخرهم كلمتهم واحدة، ﴿قَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ على ماذا؟ على أي شيء؟ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

هذه هي دعوة جميع المرسلين الرسل عليهم صلوات الله وسلامه كلمتهم واحدة ودعوتهم واحدة، كلهم دعاة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وهذا هو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: ((نحن الأنبياء أبناء علات ديننا واحد وأمهاتنا شتى))، فقلوه: ((ديننا واحد)) أي فعقيدتنا واحدة أصولنا واحدة، لا خلاف بين نبي وآخر في الأصول، الأصول واحدة، أمور التوحيد وأمور العقائد عند الأنبياء واحدة لا اختلاف بين نبي أو آخر في شيء منها، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: العقيدة ليس فيها نسخ، لا في شرائع الأنبياء، ولا في شريعة النبي الواحد، لا يدخل العقيدة نسخ، النسخ يدخل على الأحكام، قد يأتي نبي وينسخ شيئاً من الأحكام التي أتى بها النبي الذي قبله، وأيضا قد يأتي النبي بشيء من الأحكام ثم تُنسخ في شريعته هو؛ لكن العقيدة لا يدخلها نسخ، لا في شريعة النبي الواحد ولا في شرائع الأنبياء عموماً، أمور ثابتة لا يطرأ عليها تغيير أو تبديل وكلمة الأنبياء فيها واحدة، وهذا هو معنى قوله رحمه الله تعالى: «وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده»، فالله عز وجل أرسل الرسل إلى عباده بهذا الدين، بتوحيده وإخلاص الدين له تبارك وتعالى.

قال رحمه الله:

فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ودا وسواعا وبغوث ويعوق و نسرا .
ثم قال رحمه الله: «فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين»؛ نوح عليه السلام هو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما جاء هذا المعنى في حديث الشفاعة، وفيه يقول الناس لنوح عليه السلام: ((أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض))، وفي القرآن الكريم قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، فنوح عليه السلام أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ولهذا قال الشيخ رحمه الله: «فأولهم نوح عليه السلام»

«أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين» ؛ هنا يبين رحمه الله بهذه الإشارة إلى أساس المشكلة عند قوم نوح وأن سبب البلاء والشر الذي وقع فيه هؤلاء هو: الغلو في الصالحين، والغلو في الصالحين: تجاوز الحد في حق الصالحين، يتجاوزون الحد في حق الصالحين من جهة تعظيمهم ورفع أقدارهم إلى أن يضيفوا عليه شيئاً من خصائص الله تبارك وتعالى وما لا يليق إلا به سبحانه وتعالى وما لا يصلح إلا له.

قال: «لما غلو في الصالحين» وهذه إشارة منه رحمه الله تعالى إلى أساس المشكلة، قد قال عليه الصلاة والسلام: ((ياكم والغلو، وإنما أهلك من كان قبلكم الغلو))، فالغلو ولاسيما في الصالحين هو أعظم أسباب الفساد والوقوع في الشرك بالله تبارك وتعالى، ومن المعلوم أن للصالحين مكانة في نفوس الناس ومنزلة في قلوبهم اكتسبوها عبر أيام طويلة عاشوها مع الناس بالأخلاق الفاضلة والآداب الطيبة والمعاملات الحسنة والدعوة إلى الخير، فأصبح لهم في

قلوب الناس مودة ،وأصبح لهم إلى نفوس الناس قرب ومكانة، والشيطان وجد هذا مدخلاً على الناس لصرفهم عن دين الله تبارك وتعالى وعن التوحيد الذي خُلقوا لأجله، فكان من أمرهم أنه لما مات عدد من الصالحين في قوم نوح وهم خمسة ذكرت أسمائهم في القرآن: وَدَّ وَسَوَاعٌ وَيَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، لما مات هؤلاء الصالحون وقد كانت لهم في نفوس الناس مكانة عليّة ومنزلة رفيعة أتى الشيطان إلى أقوامهم بعد وفاتهم ونفوسهم متأثرة بفقدانهم فدعاهم إلى أمرين:

١- دعاهم إلى العكوف عند قبورهم أي البقاء الطويل والمكث الطويل عند القبور ، وبدأ معهم هذا الأمر بنية أو بقصد تذكر هؤلاء الصالحين؛ تذكر فضائلهم، وتذكر دعوتهم، وتذكر نصائحهم، فدعاهم إلى العكوف، أن يبقى عند قبر الرجل الصالح وقتاً طويلاً، والقصد في هذا الأمر في بداية الأمر هو أن يذكر ، قال لهم: "لا يليق بكم أن يموت وتنسونه تنشغلون بمصالحكم وحاجتكم؛ بل تخصصون أوقاتاً تمكثون فيها مكثاً طويلاً عند قبورهم وتبقون بقاءً طويلاً عند قبورهم من أجل ذكر فضائلهم ، ذكر دعواتهم ، ذكر نصائحهم ، ذكر ما أثرهم إلي غير ذلك"، هذا الأمر الأول.

٢- والأمر الثاني : دعاهم إليه بعد الأمر الأول؛ أن يتخذوا لهم تصاويراً؛ لأنه ربما يشق عليهم في كل مرة أو يتكرر منهم الذهاب إلى القبور والعكوف عندها، فأرشدتهم إلى أمر آخر وهو أن يتخذوا لهم تصاوير تحقق لهم نفس الغرض؛ وهو بقاء ذكر هؤلاء وبقاء الصلة بهمؤلاء وعدم نسيانهم، قال: "تتخذون لهم تصاوير ، وتكون هذه التصاوير قريبة منكم، تكون مع الإنسان في بيته تكون في تجارته، تكون في طريقه، تذكركم هؤلاء الصالحين". فأرشدتهم إلى هذين الأمرين: العكوف عند قبور الصالحين، واتخاذ التصاوير لهم. وترك هذا الجيل، اكتفى مع هذا الجيل بهذين الأمرين وتركهم إلى أن مات هؤلاء واندرس العلم، فأتى إلى الجيل الذي بعده ، وهذا يستفاد منه أن الشيطان -أعاذنا الله وإياكم منه- طويل النفس في دعوته ؛ يعني ممكن يضع الغرس الآن ولا يطلب ثمرته إلا بعد مائة سنة ما عنده مشكلة، يضع الغرس الآن وتكون الثمرة ليس للجيل القادم ولا الجيل الذي بعده ما عنده مشكلة، فعنده طول نفس في دعوته وإضلال الناس عن دين الله تبارك وتعالى، ولهذا اكتفى مع الجيل الأول بهذين الأمرين، ثم لما مات هؤلاء ودُرس العلم ونُسي وقلّ في الناس العلماء، جاء للجيل الذي بعدهم وقال لهم: "أتدرون لم كان آبائكم وأجدادكم يعكفون عند تلك القبور؟ ولماذا كانوا يتخذون لها التصاوير؟ هل تعرفون السبب؟ إن السبب لذلك أنهم إذا كانوا استغاثوا بها أُغيثوا، وإذا سألوا بها أُعطوا"، فأدخلهم من هذه البوابة على الشرك.

ولا يزال الشيطان ماضياً في الطريقة نفسها في إدخال الناس إلى الشرك من الباب نفسه، مع أن الله تعالى ذكر لنا هذا الأمر في القرآن وبَيَّنَّ النبي عليه الصلاة والسلام في السنة إلا أنه لا يزال أناس كثيرون يدخلون إلى الشرك من البوابة نفسها ومن الطريق نفسه؛ العكوف عند قبور الصالحين واتخاذ التصاوير لهم. وإذا فتشت فيما يقع فيه الناس من شرك في هذا الزمان أو قبل هذا الزمان لو فتشت عن أعظم سبب له تجد أنه من خلال هذين الأمرين:

العكوف عند القبور، وهذا ينتظم تشييد القبور وزخرفتها ووضع الستور عليها والأشياء التي تدعوا الناس إلى العكوف عندها والبقاء، واتخاذ التصاوير، ولهذا خص النبي هذين الأمرين بالذكر في أحاديث كثيرة مثل: حديث علي قال عليه الصلاة والسلام: ((لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته ولا صورة إلا طمستها))؛ خص هذين الأمرين بالذكر، قال أيضاً في الحديث الآخر: ((أولئك شرار الخلق، إذا مات فيهم الرجل الصالح عكفوا على قبره، وجعلوا له تلك التصاوير)) أو كما قال عليه الصلاة والسلام . فذكر هذين الأمرين.

قال: «فأولهم نوح عليهم السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين»، غلوهم في الصالحين: بالعكوف عند قبورهم وباتخاذ التصاوير لهم ، ومن ثم بالتوجه إليهم في السؤال والدعاء وطلب الغوث والالتجاء.

قال: «لما غلوا في الصالحين ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر» هذه الأسماء الخمسة جاءت في موقع البدل من قوله «في الصالحين» فتكون تقرأ مجرورة «ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر» بدل من قوله «في الصالحين»، فالصالحين الذين غلا فيهم قوم نوح هم هؤلاء الخمسة: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فهذه الأسماء الخمسة أسماء رجال صالحين، والطريقة التي صار الناس بسببها إلى عبادة هؤلاء الصالحين من دون الله هي التي شرحتها قبل قليل، قد قال الله تعالى في سورة نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿[نوح: ٢٣-٢٤]، فهذه الأسماء الخمسة كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام لما ماتوا عكف الناس على قبورهم واتخذوا لهم تصاويرا إلى أن عبدوا من دون الله تبارك وتعالى.

العجيب في الأمر؛ أن هذا أول شرك وجد وهذا مدخله وهذا سببه ، وبُعث أول رسول وهو نوح عليه السلام بعث إلى أهل الأرض لتحطيم هذا الشرك وبيان بطلانه ، ومضى في قومه داعيةً إلى التوحيد ومحذراً من هذا الشرك، مضى فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥٠-٦٠].

فمضى فيهم سنوات طوال وعمر مديد يدعوهم وهم مصرون على هذا الشرك، إلى أن أمر الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام أن يصنع الفلك، وأخذ يصنع الفلك ويمر به قومه ويسخرون منه؛ لأنه يصنعه في الصحراء، فكان قومه كلما مروا به سخروا منه، ثم أذن الله سبحانه وتعالى للأرض فأخرجت الماء، وأذن للسماء فنزل المطر، حتى طغى الماء على الأرض وغطى الجبال ، ولم ينبج من الماء إلا من كان في السفينة، وأصبحت السفينة مضرب مثل في الحق ولزومه، مثل ما قال الإمام مالك رحمه الله عليه قال: «السنة سفينة نوح؛ من ركبها نجا ومن تركها غرق»، فلم ينبجوا إلا من ركب السفينة، وعم الماء الأرض وغطى الجبال وهلك كل من على وجه الأرض.

وقد ذكر في كتب التاريخ أن هذه الأصنام الخمسة مع الطوفان والمياه حملت المياه هذه الأصنام وألقته في جدة على شاطئ البحر وغطتها الرمال ، وبقيت مدفونة إلى أن جاء في زمن ما قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام بوقت ليس بطويل عمرو بن لحي، قد جاء في صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام رآه في النار يجر قصبه في النار وقال ((هو أول من سيَّب السوائب))، وجاء في بعض الروايات أنه أول من غيَّر دين إبراهيم، وذكر أن عمرو بن لحي رثي من الجن وكان صاحب كهانة فأثاه رثي من الجن وهتف به : "أن اذهب إلى تھامة بالحفظ والسلامة، واذهب إلى جدة تجد بها أصنام معدة، خذها إلى العرب وأدعوهم إليها ولا تھب"، إلى آخر ما سمعه، فذهب إلي جدة وحفر عن تلك الأصنام وجاء بها ودعا إليها العرب فأجابوه ، وعبدوا نفس الأصنام؛ ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، وأضافوا إليها أيضاً أصناما كثيرة.

وقد حطم النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة في البيت وحول البيت ما يزيد على ثلاثمائة وستين صنماً، كان يكسرها عليه الصلاة والسلام بيده ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فكسر الأصنام، ومن جملة الأصنام التي كسرها عليه الصلاة والسلام هذه الأصنام الخمسة، ولهذا قال الشيخ: «وأولهم نوح أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين وذاً وسواعاً ويغوثاً ويعوقاً ونسراً. وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين»؛ أي المعبودة على عهد نوح عليه السلام، وهي صور ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، ولهذا يقول الشيخ محمد بن إبراهيم في تعليقٍ عظيم له على هذا الموضع يقول: «فانظر إلى آثار الشرك وعروقه إذا علقت متى تزال وتنمحي»!! هذه الأصنام التي وجدت متى كُست؟ وُجدت قبل زمن أول رسول يُبعث، وُبُعث للتحذير منها، ولم تُكسر إلا في زمن آخر رسول، ولهذا قال: «فانظر إلى آثار الشرك وعروقه إذا علقت متى تزال وتنمحي، فإن هذه الأصنام بقيت من يوم عبدت من دون الله حتى بُعث محمد صلى الله عليه وسلم وكسرها، فالشرك إذا وقع عظيمٌ رفعه وشديد، فإن نوحاً مع كمال بيانه ونصحه ودعوته إياهم ليلاً ونهاراً سرا وجهاراً أخذ ألف سنة إلا خمسين عاماً ما أجابه إلا قليل ، ومع ذلك أغرق الله أهل الأرض كلهم من أجله، ومع ذلك تلك الأصنام الخمسة ما زالت حتى بعث محمد صلى الله عليه وسلم وكسرها، قال: "فيفيدك عظم الشرك إذا خالط القلوب صعب زواله، كيف أن أصناماً عبدت على وقت أول رسول وما كسرها إلا آخرهم» ؛ هذا كلام الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله:

وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين؛ أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله؛ ولكنهم يجعلون بعض المخلوقين وسائط بينهم وبين الله عز وجل، يقولون:

نريد منهم التقرب إلى الله تعالى ونريد شفاعتهم عنده مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين

قال رحمه الله تعالى: «وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم»؛ آخرهم : أي خاتمهم الذي حُتم به النبيون، كما قال الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكما صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((أنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي)).

«وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين» أي: يوم فتح مكة، لما فتح مكة ودخلها عليه الصلاة والسلام فاتحاً أخذ يحطم الأصنام بيده ويكسرها عليه الصلاة والسلام بيده وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. فطهر الله عز وجل بيعته عليه الصلاة والسلام ودعوته صلى الله عليه وسلم البيت من الأصنام ومن المشركين ومن أعمال المشركين؛ فهدى الله عز وجل به من الضلالة، وبصر به من العمى، وفتح به آذاناً صمّاً وقلوباً غلغلاً -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال : «وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين»؛ هؤلاء الصالحين: أي هؤلاء الخمسة وما أضيف إليها من الأصنام الكثيرة التي كانت داخل بيت الله عز وجل داخل الكعبة وأيضاً حول الكعبة. وهنا أيضاً ندرك نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بأن أكرمنا ببعثة هذا النبي عليه الصلاة والسلام، الأصنام كانت داخل بيت الله، انظروا إلى التحول إلى الوثنية والضلال، الأصنام جعلوها بسبب شبهات أهل الباطل وضلالهم وإضلالهم جعلوا الأصنام داخل بيت الله، وجعلوها أيضاً مُحْتَقَّةً ببيت الله!! فَمَنَّ الله عز وجل وأكرمنا ببعثته صلى الله عليه وسلم فحطم الأصنام كما أنه حطم الشرك، وأنقذ الله سبحانه وتعالى به من شاء من عباده من الشرك وهداهم إلى صراط الله المستقيم، وينبغي أن يستشعر المسلم عظم هذه النعمة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ مِنَّةٌ من أعظم المنن وأجلّها أن بعث فينا سبحانه وتعالى هذا الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه .

قال: «أرسله الله إلى أناس» -وانتبه إلي هذه الفائدة العظيمة- قال: «أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً» هذه كلها أمور كانوا يفعلونها، الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام شأنهم كما وصف شيخ الإسلام رحمه الله، كانوا يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً ، وأيضاً يُعرفون بصلة الأرحام ويُعرفون أيضاً بإكرام الضيف، ويعرفون أيضاً بأخلاق فاضلة ربما لا ترى بعضها في بعض المسلمين، واسمع إلى أحد الشعراء الجاهليين المشركين حيث يقول في أبيات له:

واغض طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يوارى جارتي مأواها

هذا شاعر جاهلي!!! واغض طرفي إن بدت لي جارتى *** حتى يوارى جارتى مأواها

الآن يوجد في بعض المسلمين من يتلصص على بيوت الجيران حتى ينظر إلى حريم جيرانه، فكان عندهم أمور وأخلاق وكرم، عندهم عبادة، عندهم ذكر، عندهم حج يحجون ويلبون ويقفون بعرفة ومزدلفة يقومون بهذه الأعمال. قال: «أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا»

هذا الذي قال: "واغض طرفي إن بدت لي جارتى *** حتى يوارى جارتى مأواها" هو الذي أيضاً يقول لمعشوقته ومحبته: يا عبل أين من المنية مهرب *** إن كان ربي في السماء قضاها

ماذا تستفيد منه؟ وهو شاعر جاهلي!!

يؤمن بالقضاء، وأن القضاء بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى في السماء، كل هذه يؤمن بها، يؤمن بأن الله في السماء، وأن القضاء سبحانه وتعالى بيده، "إن كان ربي في السماء قضاها"، وعندهم أخلاق، عندهم عبادات، عندهم ذكر لله سبحانه وتعالى، إذا ما هي مشكلتهم -مادام أن هذه الأمور كلها موجودة-؟ وأيضاً يقولون بأن الذي خلقهم ورزقهم وأوجدهم هو الله، ويقولون بأسماء وصفات لله عز وجل يؤمنون بها، ويؤمنون بعلوه على خلقه، جاء في المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأحد المشركين: ((كم إلها تعبد؟))، قال: "سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء"، قال: ((أيهم الذي تجعل لرغبك ورهبك؟)) قال: "الذي في السماء"، قال: ((إذا أترك الذي في الأرض واعبد الذي في السماء))، رب العالمين يقول: ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [سك:١٦]، كانوا يقولون أن الله في السماء، يؤمنون بالقضاء، يؤمنون بأن هالرب الخالق الرازق، وأيضاً يعبدونه ويحجون ويصلون ويقفون بالمشاعر، فهذه الأمور كلها يقومون بها، المشركين الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام وُبُعث في قتلهم يقومون بهذه الأمور، ولهذا نتبه لما ذكرته في البداية قلت: يحتاج المسلم أن يعرف دين المرسلين ودين المشركين، ومن لم يعرف دين المشركين ربما عمل شيئاً من أعمالهم ومارس شيئاً من أعمالهم وهو يظنها أنها من دين المرسلين، وهذا الذي وقع فيه عبّاد القبور وأرباب الباطل في قديم الزمان وحديثه.

قال: «أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا؛ ولكنهم...» هنا تعرف المشكلة التي عند هؤلاء «ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله عز وجل» هذه مشكلتهم: ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله عز وجل، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله تعالى ونريد شفاعتهم عند الله، هذه المشكلة؛ يعني عندهم عبادة، عندهم حج، عندهم صدقة، عندهم ذكر لله، عندهم أخلاق، عندهم كرم، عندهم صلة أرحام، عندهم إقرار بأن الرب الخالق الرازق هو الله، الإقرار بالقضاء والقدر، الإيمان بعلو الله على خلقه، أمور موجودة؛ لكن المشكلة التي بُعث النبي صلى الله عليه وسلم لكشفها وبيان بطلانها وتحذيرهم منها وإنذارهم من مغبتها هي هذه.

قال: «ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده» ؛ نريد منهم التقرب إلى الله: أي نريد منهم أن يقربونا من الله؛ لأن منزلتهم عند الله أعظم من منزلتنا، ونحن عندنا تقصير وعندنا خطأ وعندنا خلل عندنا ذنوب، وهؤلاء لهم مكانة عند الله ولهم منزلة ولهم قدر عند الله سبحانه وتعالى، فنحن نريد منهم أن يقربونا إلى الله، قال الله عز وجل عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، هذا هو قصدنا، قصدنا من عبادتهم ودعائهم وسؤالهم والتوجه إليهم أن يقربونا إلى الله، هذا معنى قوله: «يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله».

والأمر الثاني قال: «ونريد شفاعتهم عنده»، مثل ما قال الله عز وجل عن المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، قالوا: نحن نريد شفاعتهم عنده؛ أي أن يشفعوا لنا عند الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا يتجهون إليهم مباشرة: (مدد يا فلان)، (ادركني)، (الحقني)، (اشفع لي)، (اعطني)، (إن لم تنقذني من الذي ينقذني)، (إن لم تكن آخذاً بيدي من الذي يأخذ بيدي)، (مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم).. إلى غير ذلك من الكلام، التجاء إلى مخلوقين لله تبارك وتعالى بقصد أن يقربوهم إلى الله ، وبقصد أن يكونوا شفعاء لهم عند الله سبحانه وتعالى.

قال: «مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأُناس غيرهم من الصالحين»، والشيطان وجد هذا هو المدخل الأبلغ تأثيراً في نفوس الناس، لماذا؟ لأن مكانة الأنبياء والصالحين والملائكة في قلوب الناس عظيمة ومنزلتهم عليّة فدخل من هذا المدخل؛ من خلال أمر حبيب إلى نفوس الناس وهو محبة الصالحين ومكانة الصالحين.

قال: «مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأُناس غيرهم من الصالحين»، وفي الشرح يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، يقول: «وأهم شيء معرفة دين المرسلين فيتبع، ومعرفة دين المشركين والشياطين فيجتنب، فإن من لم يعرف الجاهلية لا يعرف الإسلام، وللشيخ -يعني محمد بن عبد الوهاب رحمه الله- مؤلفٌ في مسائل الجاهلية».

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وقدس الله روحه في كتابه «كشف الشبهات» قال:

فبعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم يجدد لهم دينهم دين أبيهم إبراهيم، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله تعالى، لا يصلح منه شيءٌ لغيره لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيها كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى بعد أن بدأ المقدمة التي مرت معنا في كتابه «كشف الشبهات» والتي أوضح فيها اتفاق النبيين على الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له، وكسر الأصنام وتحطيمها، وكسر صور الصالحين التي يتعلق بها من أشرك بغير الله عز وجل، وأن من أرسل فيهم هؤلاء الأنبياء أناسٌ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً، لكنهم جعلوا بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله عز وجل تقربهم بزعمتهم إلى الله زُلفى وتكون لهم شفعاء عند الله عز وجل؛ فيقول رحمه الله: «فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم»؛ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم: لأن العرب كانوا على دينه، وكانوا حنفاء على دين أبيهم إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه إلى أن حصل فيهم التحول من التوحيد إلى الشرك؛ بسبب عمرو بن لُحَي الذي سَيَّب السوائب وغير دين إبراهيم.

قد مرّ معنا في الحديث الذي أشرت إليه بالأمس وهو في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى عمرو بن لُحَي يجر قَصَبَةً في النار وأنه سَيَّب السوائب وغير دين إبراهيم، وهو الذي جاء بالأصنام من جدة ونشرها بين العرب ودعا العرب إلى عبادتها والاعتقاد فيها، فتحولوا من التوحيد إلى الشرك؛ فبعث محمد صلى الله عليه وسلم لإعادتهم إلى التوحيد، لإعادتهم إلى الاعتقاد الصحيح الذي هو دين إبراهيم الخليل إمام الحنفاء عليه صلوات الله وسلامه.

قال: «يُجَدِّدُ لَهُم دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ»، والتَّجْدِيدُ يَكُونُ لِمَا أُنْدِرَسَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَلَمَّا غُيِّرَ وَتُدِّلَ مِنْهُ؛ بَأَن يَبِينُ لَهُمُ الْحَقَّ التَّوْحِيدَ الْخَالِصَ وَالْإِيمَانَ الصَّافِي وَيُحَذِّرُهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ مِنَ الشَّرِكِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قال: «وَيُخَبِّرُهُمْ» أَي: يُخَبِّرُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «أَنَّ هَذَا التَّقَرُّبَ وَالْإِعْتِقَادَ» أَي الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ فِي الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَمَا يَصْرِفُونَهُ لَهَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّقَرُّبَاتِ وَأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، مِنَ النَّذْرِ وَالذَّبْحِ وَالِدُعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ: «يُخَبِّرُهُمْ أَنَّ هَذَا التَّقَرُّبَ وَالْإِعْتِقَادَ مُحَضُّ حَقِّ اللَّهِ» أَي: خَالِصُ حَقِّ اللَّهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ شَرِكَةٌ، وَلَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ حَقُّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَحْدَهُ، فُبُعِثَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِيَبِينَ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي يَمَارِسُونَهَا مَعَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ هِيَ حَقُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ أَيُّ أَحَقِيَّةٍ فِيهَا سِوَاكَ كَانَتْ صُورَ صَالِحِينَ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لَيْسَ لَهَا أَيُّ أَحَقِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ لِأَنَّهَا مُحَضُّ حَقِّ اللَّهِ؛ أَي خَالِصُ حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَسْتَحِقُّهَا أَيُّ مَخْلُوقٍ كَائِنًا مِنْ كَانَ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا وَلِيٌّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَلَا صَالِحٌ مِنَ الصَّالِحِينَ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ، هَذِهِ أُمُورٌ لَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا الْخَالِقُ الْعَظِيمُ وَالرَّبُّ الْجَلِيلُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

«أَنَّ هَذَا التَّقَرُّبَ» أَي الْأَعْمَالُ الَّتِي يَقْدُمُونَهَا لِلْأَصْنَامِ مُتَقَرِّبِينَ بِهَا إِلَيْهَا، مِنْ أَجْلِ أَنْ تَقْرِبَهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ ذَلِكَ الذَّبْحِ وَالنَّذْرِ وَالِدُعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

«وَالْإِعْتِقَادَ» أَيِ اعْتِقَادِهِمْ فِي هَذِهِ الْأَصْنَامِ أَنَّهَا وَسَائِطُ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَقْرِبُهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَدْنِيهِمْ مِنْهُ، فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِيهَا ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا يَدْعُونَهَا وَيَنْذِرُونَ لَهَا وَيَذْبَحُونَ لَهَا وَيَصْرِفُونَ لَهَا أَنْوَاعًا مِنَ الْعِبَادَاتِ؛ لِهَذَا الْإِعْتِقَادِ الَّذِي قَامَ فِي قُلُوبِهِمْ تَحَاهُ هَذِهِ الْأَصْنَامِ.

قال: «لَا يَصْلَحُ مِنْهُ» أَيِ التَّقَرُّبِ وَالْإِعْتِقَادِ «شَيْءٌ لَغَيْرِ اللَّهِ» ؛ لَا يَصْلَحُ مِنْهُ شَيْءٌ لَغَيْرِ اللَّهِ؛ أَيِ أَنَّهُ حَقُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَهَذَا أَيْضًا يُنَبِّهُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَشْفَعُ لِمَنْ يَقْدُمُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ الَّتِي لَا تَصْلَحُ إِلَّا لِلَّهِ لَغَيْرِهِ، لَا يَشْفَعُ لَهُ أَنْ يَسْمِيَهَا أَوْ يَسْمِيَهَا لَهُ أَشْيَاخَهُ بِغَيْرِ اسْمِهَا، كَأَن يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ وَيَسْتَعِيْثُ بِغَيْرِ اللَّهِ وَيَطْلُبُ الْمَدَدَ وَالْعَوْنَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ وَيَقُولُ: "هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ"، فَهَذَا لَا يَشْفَعُ لَهُ، لَا يَشْفَعُ لَهُ صَرَفُ حَقِّ اللَّهِ لَغَيْرِهِ تَحْتَ مَسْمِيَّاتٍ أَيْيًا كَانَتْ، كَمَا نَبَّهَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ: (تَغْيِيرُ الْأَسْمَاءِ لَا يَغْيِرُ الْحَقَائِقَ وَالْمَسْمِيَّاتِ).

وعَبَّرَ التَّارِيخُ بِمَكْرِ أَهْلِ الْبَاطِلِ بِالنَّاسِ مَكْرًا كُبْرًا مِنْ هَذَا الْبَابِ، يَغْيِرُونَ أَسْمَاءَ الْحُرُمَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمَنَاهِي فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَسْمُونَهَا بِأَسْمَاءٍ أُخْرَى حَتَّى تَنْفُقَ عِنْدَ النَّاسِ وَعِنْدَ الْجُهَالِ، وَهَذَا كَثِيرٌ جَدًّا كَتَسْمِيَةِ الرَّبِّ «فَوَائِدَ»، وَتَسْمِيَةِ الرِّشْوَةِ «إِكْرَامِيَّةً»، وَتَسْمِيَةِ الْمَخْدَرَاتِ وَالْمُسْكِرَاتِ «مَشْرُوبَاتٍ رُوحِيَّةً»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي يُكَبِّرُ أَصْحَابُ الْبَاطِلِ بِطَرَحِهَا لِلْبَاطِلِ فِي نَفُوسِ النَّاسِ. فَالشَّاهِدُ أَنَّ تَغْيِيرَ الْأَسْمَاءِ لَا يَغْيِرُ الْحَقَائِقَ، وَهَؤُلَاءِ وَإِنْ سَمَوْا أَعْمَالَهُمْ شَفَاعَةً أَوْ تَوْسَلًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ شَرِكٌ بِاللَّهِ، اسْمُهُ الشَّرْعِيُّ اسْمُهُ الْحَقِيقِيُّ الشَّرِكُ بِاللَّهِ، مَنْ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ وَيَسْتَعِيْثُ بِغَيْرِ اللَّهِ وَيَصْرِفُ أَنْوَاعًا مِنَ الْعِبَادَةِ لَغَيْرِ اللَّهِ، اسْمُ عَمَلِهِ «الشَّرِكُ»، هَذَا هُوَ اسْمُهُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ عَنْ حَقِيقَتِهِ إِنْ سَمِيَ تَوْسَلًا أَوْ سَمِيَ شَفَاعَةً.

قد قال المشركون قديماً - كما ذكر الله عنهم في القرآن - قال عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهذا القول لا يسوّغ لهم هذا الباطل. ولا يزال أهل الضلال والانحراف في هذا الباب يسمون هذه الأعمال الشركية والممارسات الشركية توسلاً أو شفاعَةً أو نحو ذلك من الأسماء.

قال: «لا يصلح منها شيء لغير الله، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل»؛ خص بالذكر الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين؛ لأنهم أفضل خلق الله، أفضل عباده، ملائكته المقربون وأنبيائه المرسلون هم أفضل خلق الله عز وجل وأفضل عباده، فإذا كان هؤلاء الصفوة وهؤلاء العباد المصطفون لا أحقية لهم في العبادة ولا في شيء منها، فإن غيرهم من باب أولى، قال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فهؤلاء الصفوة من عباد الله تبارك وتعالى لا يستحقون من العبادة أي شيء، فغيرهم من باب أولى وأحرى؛ ولهذا فإن الشيخ رحمه الله تعالى عقد في كتابه التوحيد بابين متتاليين:

الأول: بيّن فيه أن الأنبياء لا يستحقون شيئاً من العبادة.

وبالباب الآخر: بيّن فيه أن الملائكة لا يستحقون شيئاً من العبادة.

باب قول الله تعالى: ﴿يَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، والباب الثاني: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]. بيّن في الأول: أن الأنبياء ليس لهم في العبادة أي حق، وأورد قول الله عز وجل لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وأورد من النصوص والشواهد ما يدل على ذلك. وأورد أيضاً في حق الملائكة أن الله عز وجل إذا تكلم بالوحي خرت الملائكة صِعقة خضعاناً لقوله عز وجل، حتى إذا زال الفزع عن قلوبهم أي قلوب الملائكة، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبا: ٢٣]؛ فهذا يبين أن الملائكة مع كبر خلقها وشدة قوتها لا تستحق من العبادة أي شيء، وشأنها مع الله عز وجل هو هذا؛ أنها تفزع وتخضع صِعقة ولا تملك من أمرها أو أمر غيرها شيء، الأمر كله لله عز وجل، وهكذا الشأن في الأنبياء. وإذا كان الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون لا يستحقون من العبادة أي شيء، فإن غيرهم من باب أولى وأحرى، قال: «لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما».

قال: «وإلا فهؤلاء المشركون» أي الذين بُعثَ فيهم عليه الصلاة والسلام مُقرّون «يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده»، هؤلاء المشركون مُقرّون أي: مُقرّون لله عز وجل بالربوبية، التفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وإذا سئلوا من خلقكم؟ من خلق السماء؟ من خلق الأرض؟ من خلق الجبال؟ من خلق الأنهار؟ من الذي بيده أَرْزَمَةُ الأمور؟ كل ذلك يقولون: الله، فهم مُقرّون لله تبارك وتعالى بالربوبية، ويشهدون أنه تبارك وتعالى رب العالمين،

ولا يعتقدون في الأصنام أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت وتتصرف في هذا الكون، لا يعتقدون ذلك، يعتقدون أن هذا كله بيد الله عز وجل، يقرؤون بذلك، والآيات على ذلك كثيرة وسيأتي بعضها عند المصنّف رحمه الله تعالى.

مُقرّون «يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن؛ كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره»، هذا من الأمور التي يعتقدونها المشركون الذين بُعثَ فيهم عليه الصلاة والسلام، يعتقدون ذلك كله؛ بل وأيضاً -وهذا نبه عليه المصنّف قريباً- يعبدون الله ويحجون ويتصدقون ويصلون الأرحام ويطعمون الطعام ويتصفون بأخلاقٍ فاضلة، عندهم مثل هذه الأشياء، ومشكلتهم -كما نبهنا على ذلك بالأمس- في توحيد العبادة، لا يجعلونه خالصاً لله، نعم يعبدون الله؛ لكن لا يجعلون العبادة خالصةً لله تبارك وتعالى؛ بل يجعلون مع الله الشركاء في العبادة، ولا يجعلون مع الله الشركاء في الربوبية، الربوبية يرون ويعتقدون أن الله هو المتفرد بها، إذا قيل لهم من خلقكم؟ يقولون الله، لا يقولون الله والأصنام، من يرزقكم؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام، من الذي يحييكم ويميتكم؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام، من الذي يدبر الأمر؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام.

وإذا قيل لهم من تعبدون؟ من تلجؤون إليه في دعائكم؟ من الذي تلجؤون إليه في سؤالكم؟ في طلبكم؟ يقولون الله والأصنام!، هنا المشكلة، في توحيد الربوبية يخلصون ويعتقدون أن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله سبحانه وتعالى، وهذا سيأتي دلائله وشواهد من القرآن، وفي توحيد العبادة من تعبدون؟ لا يقولون الله وحده، كما يقولون ذلك إذا قيل من خلقكم؟ من رزقكم؟ من يحييكم؟ من يميتكم؟ يقولون الله وحده، لا يقولون: الله و الأصنام، فإذا قيل: من تعبدون؟ يقولون الله والأصنام.

مر علينا الحديث الذي في المسند قال النبي عليه الصلاة والسلام لأحدهم: ((كم إلهاً تعبد؟))، قال: "سبعة، ستة في الأرض، وواحد في السماء". ولو قيل لهذا: كم خالق لك؟ كم رازق لك؟ كم مدبر لأمرك؟ ماذا يقول؟ يقول: واحد، الذي في السماء؛ هو الذي يخلق، هو الذي يرزق، هو الذي يدبر الأمر؛ لكن العبادة هي التي حصل عندهم فيها خلل. والخلل الذي وقع فيه هؤلاء في باب العبادة من جهة اعتقادهم أن هذه الأصنام وسائط بينهم وبين الله عز وجل تقرّبهم إلى الله، مثل ما يفعل سواء بسواء عبّاد القبور، مثل ما يفعل عبّاد القبور الذين يعكفون عند القبور ويدبحون لها ويندرون لها الندور ويكون عندها ويتدلّلون ويخشعون ويخضعون، إذا قيل لهم لماذا هذه الأعمال؟ يقولون: هؤلاء لهم مكانة عند الله ومنزلة عند الله ونريد أن يقربونا إلى الله زلفى، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا

إِلَى اللَّهِ زَلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

قال: «يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي إلا هو، ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو»، لاحظ عبارة الشيخ دقيقة، قال: «أن الله هو الخالق وحده»، هكذا يعتقدون أن الله الخالق وحده «لا شريك له»؛ أي لا شريك له في الخلق، حتى إنهم كانوا يقولون في تلييتهم في تقرير هذه الحقيقة، كانوا يقولون في حجهم وفي تلييتهم: "ليكن لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك"؛ أي أن هذا الذي نعبد معك ونتخذ شريكاً لك هو مملوك لك، أنت تملكه وهو لا يملك، هكذا يعتقدون؛ يعتقدون أنها مملوكة لله، مخلوقة لله، وأن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر للأمر هو الله وحده جل وعلا لا شريك له، أيضاً السماوات ومن فيهن، الأرضون ومن فيهن كلهم عبيد لله عز وجل وتحت تصرفه.

وقوله: «كلهم عبيده» المراد بالعبودية هنا العبودية العامة، عبودية الذل والخضوع لأمر الله عز وجل، وقضائه، فقدرته سبحانه وتعالى لهم شاملة، ومشيتته فيهم نافذة، وهم طوعاً وتسخيراً وتديباً، له الأمر سبحانه وتعالى من قبل ومن بعد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكلهم عبيد الله أي تحت تصرفه وتديبها، لا خروج لأحد منهم عن تديب الله عز وجل وتسخيرها سبحانه، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

قوله: «وتحت تصرفه وقهره» توضيح لقوله: «كلهم عبيده» أي أنهم مملوك له مبربون مسخرون يتصرف فيهم تبارك وتعالى كيف يشاء ويحكم سبحانه وتعالى فيهم بما يريد، لا راداً لحكمه ولا معقب لقضائه سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله :

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بهذا فاقراً قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وغير ذلك من الآيات.

جادة الشيخ رحمه الله هي جادة أهل السنة والجماعة؛ اتباع الدليل وفُقُو النصوص، ولا يقول ما يقول إلا مستنداً على دليل، ولهذا درج أهل السنة في كتب الاعتقاد وعموم ما يؤلفون ذكر الحكم أو الأمر مضموماً إلى دليله من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، خلافاً لما عليه أهل الأهواء وأهل الباطل الذين لا تراهم يعولون على كتاب الله ولا على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ بل يتخذون لأنفسهم مصادر شتى ومنابع مختلفة، عنها

يأخذون اعتقادهم ويتلقون دينهم، أما أهل السنة فاتخذوا إمامهم كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، فلما ذكر هذه الحقيقة في شأن المشركين أنهم يشهدون أن الخالق وحده الله، الرازق وحده الله، المحيي هو الله، المميت هو الله؛ لا شريك له في شيء من ذلك، لما قرر أن المشركين يعتقدون ذلك، قال: إذا أردت الدليل على أن المشركين يشهدون بهذه الأمور اقرأ هذه الآيات، ليس أمراً جاء به من عنده -رحمه الله- أو ادّعه، وإنما أمرٌ هو مقرر في كتاب الله عز وجل، إذا أردت الدليل على ذلك اقرأ هذه الآيات.

فقوله رحمه الله: «إذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بهذا»، «يشهدون بهذا» الإشارة إلى ما سبق، وهو أنهم يقرون بأن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر هو الله، هؤلاء الذين يعتقدون هذا الاعتقاد قاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام. وهنا تعجب غاية العجب إذا علمت أن في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من يعتقدون أن معنى «لا إله إلا الله» لا خالق إلا الله، وهذا من غاية العجب، ويثبتونه في كتب تُقرأ وتُحفظ وتُروج بين الناس! أن «لا إله إلا الله» معناها: لا خالق إلا الله! لو كان معناها "لا خالق إلا الله" لما نشب قتال ولا وُجد خصومة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ولم تُزق دماء ولم تذهب أرواح، إذا كان معنى «لا إله إلا الله»: لا خالق إلا الله، هل يتردد المشركون في قبول ذلك؟ فهذا من غاية العجب، وهو أمر يأتي التنبيه عليه لاحقاً.

الشاهد: أن المشركين كانوا يعتقدون أن الخالق الرازق المحي المتصرف في هذا الكون هو الله وحده لا شريك له، والدلائل على ذلك كثيرة.

قال: إذا أردت الدليل على ذلك فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّهَا النَّبِيُّ لَهَؤْلَاءِ الْمَشْرِكِينَ، قُلْ لَهُمْ: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، ماذا سيكون جوابهم؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي الله وحده هو الذي تفرد بهذه الأشياء، تفرد برزقنا من السماء والأرض، تفرد بملك السمع والبصر، تفرد بإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، تفرد بتدبير الأمور، لا يعتقدون في أصنامهم أنها تفعل شيئاً من ذلك أو تقوم بشيء من ذلك، ولهذا قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ أي سيقول لك المشركون عندما تسألهم هذا السؤال: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ أي الله وحده، فقل لهم حينئذٍ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟!، ما دمتم تعتقدون هذا الاعتقاد وتقررون هذا الإقرار وتؤمنون هذا الإيمان، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106]، معنى الآية كما قال ابن عباس وغيره: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ رَبًّا خَالِقًا رَازِقًا حَيِّيًا مَدْبِرًا مُتَصَرِّفًا﴾ ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي: معه في العبادة، فقل لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟! أي ألا تتقون الله! تعلمون أنه وحده الخالق، وحده الرازق، وحده المحيي، وحده المميت، وحده

المدير للأمر، وتتخذون معه الشركاء!! ألا تتقون الله؟! قال: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تتقون الله عز وجل وتطرحون هذا الشرك الذي تمارسونه والباطل الذي تقترفونه، وتخلصون لله رب العالمين التوحيد فلا تعبدون إلا إياه ولا تسألون إلا إياه، أفلا تتقون؟!.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٨٤] أي: قل أيها النبي لهؤلاء المشركين الذين يتخذون الأنداد قل لهم: ﴿لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ من المالك للأرض؟ من المدير للأرض؟ من الذي سخر الأرض؟ من الذي أوجد الأرض؟ ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي من الناس والدواب والأشجار والمخلوقات، لمن هذه الأشياء؟ هل هي لهذه الأصنام التي تعبدونها؟ سيقولون: لا، لله ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [المؤمنون: ٨٥] هذا جوابهم وهذه عقيدتهم وهذا هو إيمانهم وهذا الذي هو يعتقدونه في قرارة نفوسهم كما أخبرنا بذلك رب العالمين جل وعلا، كما أخبرنا من بعث في هؤلاء محمداً عليه الصلاة والسلام رسولاً وبشيراً ونذيراً، أخبرنا عنهم سبحانه أنهم إذا سئلوا هذه السؤالات يقولون: الله. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥]، أين تذكرهم؟! أين تفكرهم في الأمر؟! أين تدبركم للحقيقة؟! لماذا تتخذون الأصنام؟! لو تذكرتم قليلاً وتدبرتم الأمر قليلاً لوجدتم أن هذه الأصنام لا تستحق شيء من العبادة، الذي يستحق العبادة كلها من تفرد بخلق هذه الأشياء، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]؛ فلا تجعلوا لله أنداداً: أي شركاء في العبادة، وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله؛ هذا هو معنى الآية، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله.

قال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥-٨٧] أي ألا تتقون الله عز وجل بترك الأنداد والبعد عن اتخاذ الشركاء! وأنتم تقرون أن الله عز وجل وحده رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. ﴿قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾. قوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: كيف تُخدعون وتصرفون عن طاعته تبارك وتعالى وتوحيده! مع إيمانكم وإقراركم واعترافكم بأنه المتفرد بخلق هذه الأشياء وتدبير هذه الكائنات لا شريك له؟!.

قال رحمه الله: «وغير ذلك من الآيات» أي الآيات الدالة على إيمان المشركين وإقرارهم بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله تبارك وتعالى وحده.

قال رحمه الله تعالى:

إذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يُدخلهم في التوحيد الذي دعت إليه الرسل ودعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا «الاعتقاد»، كما كانوا يدعون الله سبحانه وتعالى ليلاً ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله عز وجل ليشفعوا لهم ، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل: اللات، أو نبياً مثل: عيسى .

قال: «فإذا تحققت» أي : كان عندك علماً متحققاً وأمرًا ثابتاً راسخاً «أنهم مقرون بهذا» أي مقرون بربوبية الله وخلقهم للمخلوقات وإيجاده للكائنات، إذا تحققت من ذلك، وأقول هنا مُنبهًا: ومن الذي لا يتحقق من ذلك؛ وآيات الله تُتلى بينةً في تقرير هذا الأمر وبيان هذه الحقيقة!!

قال: «إذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يُدخلهم في التوحيد» أي: هذا الإقرار منهم لله بالربوبية لم يدخلهم في التوحيد، لم يكونوا موحدين بذلك؛ بل وُصِفوا مع وجود هذا الإقرار عندهم بأنهم مشركون، لا يوصفون بأنهم موحدون مع إقرارهم بأنه وحده الخالق، وحده الرازق، وحده المحيي المميت، يوصفون بأنهم مشركون، لماذا؟ لأن هذا الإقرار وحده لا يُدخل الإنسان في التوحيد، الإقرار لله بالربوبية بالخلق بالإحياء بالإماتة وحده لا يُدخل الإنسان في التوحيد.

قال: «إذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يُدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم» والمراد بالتوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو توحيد الله في العبادة الذي كان عندهم خلل فيه، فكان يدعوهم إلى ذلك، وكان يقول لهم: ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) أي وخذوا الله عز وجل في العبادة، اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره، اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً.

قال: «وأنه لم يُدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة» وهذا أمر ينبّه عليه ويؤكد عليه كثيراً رحمه الله؛ التوحيد الذي جحدوه المشركون هو توحيد العبادة، ليس التوحيد الذي جحدوه المشركون توحيد الربوبية ، بل الشواهد والدلائل كثيرة على أن المشركين مُقرّين بتوحيد الربوبية، مُعترفين بأن الرب الخالق الرازق المنعم هو الله سبحانه وتعالى ، مع أن بعض المنظرين لعبادة القبور في زماننا هذا وقبله يقولون: إن قول المشركين عندما يُسألون من الذي خلقكم من الذي

رزقكم من الذي يحييكم؟ قولهم: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، هذا لا يقولونه على وجه الإقرار، وإنما على وجه المجادلة! وأن المشركين في الحقيقة لا يُقرّون بالربوبية، لماذا؟ لأن التوحيد عند هؤلاء القبوريين هو: الإقرار لله بالربوبية وهو معنى لا إله إلا الله!، وإذا ثبت أن المشركين مُقرّين أصبح توحيدهم وتوحيد المشركين الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم سواء ، إقرارهم في الربوبية ، وأما جانب العبادة فهو مُضَيّع عندهم وعند أولئك، ولهذا حاول بعض مُنظّري هؤلاء أن يحزّفوا في معاني هذه الآيات ودلالاتها من أجل أن يوجّدوا فرقاً بينهم وبين أولئك، مع أن الأمر الذي عليه هؤلاء هو الذي عليه أولئك؛ يقرّون لله بالربوبية، ولكن جانب العبادة يجعلون مع الله سبحانه وتعالى فيه الشركاء.

قال: «وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا :الاعتقاد» أي: الاعتقاد في الأولياء، الاعتقاد في من يسموهم بالسّادة، الاعتقاد في الأشياخ؛ في الصالحين، فالتوحيد الذي جحدوه -أي جحد المشركون- هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد) ، مثل أن يقول قائل هؤلاء: "أنا أعتقد في الشيخ فلان، أو أعتقد في الولي الفلاني، أو أعتقد في السيّد الفلاني، أعتقد أنه رجائي وأملّي ومنجدي ومنقذي وشفيعي وواسطي أعتقد ذلك، وبناء على هذا الاعتقاد يوجد التقرب إليه بالندور، بالذبائح بالقرايين، بالبكاء، بالعكوف عند قبره، عند ضريحه بالمناجاة ، بالطلب، بالتوسلات "إن لم تكن آخذاً بيدي من الذي يأخذ بيدي، إن لم تُنقذني" تبدأ هذه الأمور التي تترتب على ماذا؟ على هذا الاعتقاد الذي يسميه المشركون في زماننا «الاعتقاد» أي : الاعتقاد في الأولياء، أو في السادة أو في المقبورين أو في الأضرحة أو نحو ذلك، والذي يُبنى عليه أنواع التقربات .

«كما كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً» قوله "كما كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً" : أي المشركين الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً ؛ أي من الأعمال التي يقومون بها: أنهم يدعون الله، يسألون الله، يطلبون حاجاتهم من الله سبحانه وتعالى. لكن هل هذا الدعاء يخلصونه لله؟ أم أنهم يدعونه ويدعون معه غيره؟ يسألونه ويسألون معه غيره؟ يلتجئون إليه ويلتجئون معه إلى غيره؟ ما شأنهم في هذا الباب؟

قال : «كما كانوا -أي المشركون الذي بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام- يدعون الله ليلاً ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم إلى الله عز وجل، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل: اللات، أو نبياً مثل: عيسى» ؛ فهنا المشكلة: يدعون الله ليلاً ونهاراً ، يتوجهون إلى الله بالدعاء بالسؤال بالطلب بالالتجاء؛ لكنهم لا يُخلصون دعاءهم لله ، بل يدعون معه إما ملكاً من الملائكة لأجل صلاحه وقربه من الله، أو رجلاً صالحاً من أجل صلاحه ومكانته، أو نبياً من الأنبياء ، هذا الدعاء الذي يوجد عندهم لهؤلاء سببه ماذا؟ سببه الاعتقاد، يعتقد في النبي أو الولي أو الملك ويعظمه تعظيماً لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى، ثم يلتجئ إليه في سؤاله وطلبه ودعائه ورجائه ورغبه ورهبه.

قال: «كما كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً» يدعون الله ليلاً ونهاراً؛ لكنهم لا يُخلصون لله الدعاء، ولهذا نبّه المصنّف قال: «ثم منهم من يدعوا الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله أو يدعوا رجلاً صالحاً مثل اللات»، اللات بالتشديد، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، «اللات» بالتشديد، قيل في التفسير: أنه رجل كان المشركون يعتقدون فيه الصلاح؛ لأنه كان من صنيعه أن يُلْتَّ العجين، يُلْتَّ السويق للحجاج؛ حجاج بيت الله، فكان يعجن العجين ويلت السويق ويصنعه ويهيأه ويقدمه قرىً وضيافةً للحجاج، نوع من الكرم، فكانوا معجبين بهذا الرجل لكرمه وسخائه وبذله، فلما مات عكفوا على قبره وأخذوا يجعلونه وسيطاً وشفيعاً لهم عند الله لقربه بزعمهم عند الله عز وجل.

قال: «أو يدعون رجلاً صالحاً مثل: اللات، أو نبياً مثل: عيسى عليه السلام» قد قال الله جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦] .

قال رحمه الله تعالى:

وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفِ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤] .

قال: «وعرفت» أيضاً إضافةً إلى ما سبق، وهذه الأمور التي ينبه عليها الشيخ رحمه الله إذا عرفت كذا وعرفت كذا، وعرفت كذا؛ هذه لا بد أن تُضبط، ويُجَبَّد على طالب العلم أن يحفظها، يحفظ هذه المقدمات، إذا عرفت كذا وعرفت كذا وعرفت كذا؛ لأنها أمور نبّه الشيخ أنه لا بد أن يتحقق الإنسان منها، يكون متحققاً بها، ويكون منها على يقين وثبات وعلم بها وبأدلتها؛ لأنها إذا ضُبِطت هذه الأمور ضبطاً تاماً وعُرفت بدلائلها كانت عمدةً وأساساً لإبطال ما سيأتي من شبهات أهل الشرك والباطل .

فهذه أمور ركائز ودعائم وأسس لا بد أن تُعرف في الكتاب في كشف الشبهات، هذه الشبهات لأجل أن تُكشف وتُبطل لا بد أن تعرف كذا وتعرف كذا وتعرف كذا، وتتثبت من كذا، وتكون على يقين من كذا، فهذه أمور لا بد منها، ولهذا أُكِّد أن هذه الأمور لا بد أن تضبط ضبطاً جيداً من طالب العلم مع أدلتها. وإذا ضبطت هذه الأمور مع أدلتها، والشيخ لم يستقصي الأدلة وإنما أشار إلى البعض، فأنت إذا ضبطت هذه الأمور وضبطت أدلتها تجد أنك محتاجاً إليها فيما بعد في كل كشف شبهة لهؤلاء المشركين؛ لأنك تحتاج فيما بعد في كشف الشبهات أن

تقول: إن من الأمور المتقررة في القرآن كذا، ومن الأمور المتقررة كذا، ومن الأمور المتقررة كذا ، والدليل كذا ؛ يصبح الحق واضح وبين وشواهد واضحة، وماذا بعد الحق إلا الضلال، فإذا ظهرت هذه الأمور واتضحت ما سواها شبهات لا قيمة لها ، وقد يُكتفى في إبطالها بتقرير هذه القواعد ، كما سيظهر لك هذا فيما بعد ، قد يكتفى في إبطال الشبهات بتقرير هذه القواعد؛ لأنه سيتبين من تقرير هذه القواعد وإظهارها وإبرازها بأدلتها أن ما سواها قطعاً هو باطل، سيظهر أنه هو قطعاً باطل ، وماذا بعد الحق إلا الضلال؛ لكن ما وجه بطلانه؟ كيف يُكشف؟ تبقى هذه المسألة تفصيلية يتناولها أهل العلم كأن يقول العالم: هذا حديث موضوع لأن في سنده فلان فلا حجة فيه، أو يقول: هذا الحديث ضعيف، أو الذي فهمتموه من هذا الحديث غير مُسَلَّم، ولا يفهم من الحديث كذا، أمور تفصيلية تأتي فيما بعد؛ لكن هذه القواعد هي الأساس، أساس كشف شبهات أهل الباطل هذه القواعد ، لا بد أن تُضبط وأن تكون عند طالب العلم أمور راسخة ثابتة بدلائلها وشواهداها من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

قال: «وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَأَنۢ أَلۡمَسَاجِدَ لِلّٰهِ فَلَا تَدۡعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨]» أي أن هؤلاء المشركين مع ما كانوا عليه من الإقرار لله بالربوبية وما كانوا عليه من الدعاء -دعاء الله وعبادته لكنهم لا يخلصون لله- مع ذلك قاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله ، فإذا كانت هذه الأمور التي كانوا عليها وأشار إليها الشيخ لم تكن كافية ولا منجية لهم؛ بل قاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام ووصفهم بأنهم كفار وأنهم مشركين ، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده في آيات كثيرة جداً، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَنۢ أَلۡمَسَاجِدَ لِلّٰهِ فَلَا تَدۡعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَدًا﴾؛ ﴿أَنۢ أَلۡمَسَاجِدَ﴾: أي المبنية التي بُنيت أن تقام فيها الصلاة، ويذكر فيها الله ﴿لِلّٰهِ﴾: أي وحده، بُنيت لله وحده، ليعبد فيها وحده تبارك وتعالى ولا يُجعل معه فيها الشركاء، وقيل ﴿أَلۡمَسَاجِدَ﴾ أي: مواضع السجود وأعضاء السجود لله؛ فلا يُصرف شيء من السجود والذل والخضوع إلا لله تبارك وتعالى، ﴿وَأَنۢ أَلۡمَسَاجِدَ لِلّٰهِ فَلَا تَدۡعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَدًا﴾، و«أَحَدًا» جاءت نكرة في سياق النهي فتفيد العموم؛ أي أي أحدٍ كان، لا تدعو مع الله أحداً أي أي أحدٍ كان، لا ملكٌ مقرب ولا نبي مُرسَل ولا ولي من الأولياء ولا غيرهم، لا تدعو مع الله أحداً أي أي أحدٍ كان.

وكما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعۡوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]، ﴿لَهُ﴾ أي: لله، وهذه الآية في سورة الرعد بعد أن ساق تبارك وتعالى من أول السورة البراهين على تفرد تبارك وتعالى ووحدانيته ؛ تفرد بخلق السماوات والأرض والجبال وغير ذلك، وسِعة علمه وإحاطة ملكه ، وغير ذلك مما ذكر تبارك وتعالى، ختم ذلك بقوله: ﴿لَهُ دَعۡوَةُ الْحَقِّ﴾ ؛ أي المتفرد بهذه

الأشياء وخلق هذه الأشياء وإيجادها هو وحده الذي له دعوة الحق ، وهو سبحانه وتعالى الحق جل وعلا، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، والحق اسم من اسمائه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [المع: ٦٢] فالله عز وجل هو الحق، ودعوة الحق لله جل وعلا، فلا يدعى إلا الله، ولا يلجأ إلا إلى الله، ولا يصرف شيء من العبادة إلا لله، وصرف شيء من العبادة لغيره شرك بالله عز وجل، وهو أبطل الباطل وأظلم الظلم وأشد الضلال.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ فدعاؤه وصرف الدعاء له، والذل والخضوع له وحده هذا هو الحق، وهو المستحق لذلك وحده تبارك وتعالى، وأما من سواه فلا يستحقون شيئاً من ذلك، قال: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

قال رحمه الله تعالى :

وتحقت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يُريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم؛ عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون.

يقول الشيخ رحمه الله : إذا عرفت كذا وعرفت كذا وعرفت كذا وتحقت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم، أُعيد مرة ثانية، المشركون الذين بُعث فيهم رسول صلى الله عليه وسلم كانوا يقرون بأن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر للأمر هو الله وحده لا شريك له، وأيضاً كانوا يدعون الله ويحجون لبيته ويدعون الله وينذرون الله، يقومون بهذه الأعمال لكنها لا يجعلونها لله خالصة، بل يجعلون معه فيها الشركاء. أقول هؤلاء المشركون الذين يقرون بهذه الأشياء ويعبدون الله ويدعونه قاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام، وقتاله لهم أمرٌ معلوم في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وفي كتب التاريخ ، قاتلهم ودارت بينه وبينهم معارك طاحنة وشديدة، وذهبت أرواح كثيرة من المسلمين ومن الكفار، قاتلهم ، لماذا قاتلهم؟ مع أنهم كانوا يقرون أن الخالق الله الرازق المحيي المميت الله المدبر للأمر الله، وكانوا يدعون الله، ويدعون الله وينذرون الله، لماذا قاتلهم ؟

قال: «وتحقت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله»، ما يُجعل مع الله فيها شريك ولا مقدار ذرة، لأجل

ذلك قاتلهم، فهم نعم يقرون أن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، يقرون بذلك ويعبدونه ويدعونه ويسألونه، المشرك إذا قيل له هل الله معبود؟ هل الله يُدعى؟ يُسأل؟ هل تسأله؟ هل تدعوه؟ هل تذبح له؟ هل تنذر؟ يقول "نعم"؛ لكن لو قلت له: أنفِ هذه الأمور عن غير الله، لا بد أن تنفي هذه الأمور عن غير الله، لا تكون من أهل الإيمان إلا إذا نفيتها عن غير الله، «لا إله» لا بد من النفي، لا توحيد إلا بالنفي، نفي العبودية عن كل من سوى الله، عندما يُطلب منه نفي هذه الأمور عن غير الله هنا يقف، لا يتردد المشرك في أن الخالق الله الرازق الله المحيي المميت، لا يتردد، ولا يتردد أيضاً في أنه معبود وأنه يُدعى ويُسأل ويطلب منه ويُذبح له ويُنذر، هذا أيضاً لا يتردد فيه؛ لكن إذا قيل له هذه الأمور يجب أن تنفيها عن غير الله هنا يقف، ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ١٥]، هنا الخصومة، ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ﴾ أجعل المعبودات معبوداً واحداً لا ندعو إلا الله وحده! لا نسأل إلا الله وحده! لا نذبح إلا لله وحده! لا ننذر إلا لله وحده، هنا الخصومة التي كانت بينهم، ولهذا يقول الشيخ: «قاتلهم - أي النبي عليه الصلاة والسلام - ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله» إذا عرفت هذا وتحققت منه، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدخلهم في الإسلام كما سبق إيضاح ذلك، وهذه معاني مهمة جداً، ولهذا الشيخ يُبدي ويعيد في هذه الحقائق: «وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدخلهم في الإسلام» وعرفت أيضاً: «أن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يُريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم؛ عرفت حينئذٍ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون»؛ وكأن الشيخ رحمه الله يقول لا يمكن أن تفهم التوحيد إلا بمعرفة هذه الحقائق، لا بد من العلم بهذه الحقائق، أن تعرف كذا وتعرف كذا وتعرف كذا وتعرف، بهذه الحقائق تعرف التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون، وهو مدلول كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، قال: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله» .

قال رحمه الله :

وهذا التوحيد هو معنى قولك «لا إله إلا الله»، فإن (الإله) عندهم هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور، سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرة أو قبراً أو جنياً، لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدّمْتُ لك، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد)، فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي: «لا إله إلا الله»، والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة هو: إفراد الله

تعالى بالتعلق ، والكفر بما يُعبد من دونه والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله))، قالوا: ﴿أَجْعَلِ
الْإِلَهَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنِّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ﴾ [ص:٥٠].

قال رحمه الله: «وهذا التوحيد» أي التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى المشركون من قبوله والإذعان له «هو
معنى قولك: لا إله إلا الله»، فالتوحيد هو مدلول (لا إله إلا الله)، و(لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد، ولا توحيد
إلا بتحقيق هذه الكلمة، و«لا إله إلا الله» قائمة على ركنين: النفي والإثبات؛ نفي العبودية عن كل من سوى الله
أيًا كان، نفي عام للعبودية عن كل من سوى الله، وإثبات العبودية بكل معانيها لله وحده، هذا هو التوحيد، ولهذا
يجب أن يُعلم أنه لا توحيد إلا بالنفي والإثبات، التوحيد قائم على ركنين لا بدّ منهما، ولا يكون الموحد موحدًا إلا
بهما، وهما: النفي في أول هذه الكلمة والإثبات في آخرها، النفي في أولها للعبودية عن كل من سوى الله، والإثبات
في آخر هذه الكلمة للعبودية بكل معانيها لله وحده، ف«لا إله» نافية للعبودية عن كل ما سوى الله، و«إلا الله»
مثبتة للعبودية بكل معانيها لله وحده.

فمن نفى ولم يُثبت لا يكون مُوحدًا، ومن أثبت ولم ينف لا يكون مُوحدًا، من نفى ولم يُثبت يكون ملحدًا، ومن
أثبت ولم ينف يكون مشركًا، ولا يكون المرء موحدًا إلا إذا نفى وأثبت، إذا جاء بالنفي والإثبات معًا، رأيتم من
قال: "أنا أقر بأن الله معبود، وأعبده وأدعوه وأسجد له وأركع وأذبح له وأنذر، أعتقد ذلك وأفعل ذلك؛ لكن لا
أنفي هذه عن غيره"، هل يكون مُوحدًا؟ حاشا وكلا، لا يكون مُوحدًا، لا بد في التوحيد من النفي، من لم ينف
العبودية عن غير الله لا يكون مُوحدًا، ولو أثبت أن الله معبودًا وعبده دون نفي للعبودية عن غيره لا يكون موحدًا،
التوحيد لا بد فيه من النفي والإثبات ؛ ولهذا يقول الشيخ: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله» .

ثم أخذ يشرح معنى الإله، والمنظرون في عبّاد القبور حصل منهم عبث ومحاولة للتغيير في المعاني، فقالوا: "معنى لا
إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، أو لا خالق إلا الله، أو لا رازق ولا مدبر للأمر إلا الله" .

يقول الشيخ رحمه الله: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن (الإله) عندهم هو الذي يُقصد
لأجل هذه الأمور»؛ "فإن الإله عندهم" من هم؟ أهل اللسان الذين بُعث فيهم الرسول عليه الصلاة والسلام،
أهل اللسان العربي الذين بعث فيهم الرسول عليه الصلاة والسلام لما قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله تُفْلِحُوا))،
يعرفون معنى (لا إله)، ويعرفون معنى (الإله)، يعرفون معناها جيداً ، باللسان العربي المبين الذي خوطبوا به يعرفون
معناها، ولو قال لهم: قولوا لا خالق إلا الله تُفْلِحُوا المسألة تختلف في فهمهم للسان العربي عن قوله لهم: ((قولوا لا
إله إلا الله تُفْلِحُوا))؛ لأنهم يعرفون معنى الإله، (الإله) معناه عندهم -يعني عند أهل اللسان- الذي يُقصد بهذه
الأشياء؛ يُقصد بالذل بالخضوع بالدعاء بالرجاء بالانكسار بالتأله

لله دُرُ الغانيات المِدَّةِ ** سَبَّحْنَ واسترجعن من تَأْلُهُ

أي تعبد ، التأله: التعبد، والمألوه هو المعبود، ﴿وَيَذَرُكَ أَهْلَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ﴿وَيَذَرُكَ وَاهْتِكَ﴾: أي عبادتك، التأله هو: التعبد، والإله هو المعبود، أهل اللسان يعرفون ذلك، ولهذا يقول الشيخ رحمه الله: «فإن (الإله) عندهم -أي عند أهل اللسان، اللسان العربي الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام- هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور»، هو الذي يُقصد أي بالذبح والنذر والدعاء و الرجاء والسجود والركوع ونحو ذلك من الأعمال لأجل هذه الأمور التي هي طلب الشفاعة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

قال: «هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور سواء كان مَلَكًا أو نبيًا أو وليًا أو شجرةً أو قبرًا أو جَنِيًّا» والمعنى: أن من دعا مَلَكًا أو ذبح له أو نذر له، أو شجرةً أو نبيًا أو وليًا فقد اتخذهُ إلهًا، وأصبح ليس من أهل «لا إله إلا الله»، ليس من أهل التوحيد؛ لأنه لا يكون من أهل التوحيد إلا إذا نفى هذه الأشياء عن غير الله تبارك وتعالى. قال: «لم يريدوا» أي أهل اللسان العربي الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام «لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده»، ولو كانوا يريدون بالإله: الخالق، ولو كان معنى الإله في اللسان العربي: الخالق الرازق لكان الأمر مختلفاً ؛ عندما قال لهم عليه الصلاة والسلام: ((قولوا لا إله إلا الله تُفْلِحُوا))، ماذا سيكون؟ سيقولون: "لا إله إلا الله"، إذا كان معنى «لا إله إلا الله» أي لا خالق أو لا رازق إلا الله؛ لأنهم هم يعتقدون هذا الأمر، ولا يكون منافياً لشيء يعتقدونه.

قال: «لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده ، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد)»؛ الشيخ يوضح هذه المعاني من خلال وقائع معيّنة ومشاهدة، المشركون في الأزمنة المتأخرة يطلقون على المعبود الذي يصرفون له الدعاء والذبح والنذر يطلقون: «السيد» ، وعندما يقال فلان السيد أو السيد فلان أصبح مرتبطاً في قلوبهم بسبب الباطل الذي اكتنفها أن له حق في الذل، حق في الدعاء، حق في الخضوع والرجاء، حق في الانكسار والخضوع ؛ له حق في هذه الأشياء، سيد، فالسيد هذه الكلمة أصبح منصباً عند هؤلاء الذين يعبدون القبور ويعبدون الأضرحة والقباب ونحو ذلك أصبح مرتبطاً عندهم بهذه الكلمة أن السيد له شيء له أحقية ؛ بل ارتقى الأمر ببعض هؤلاء إلى حدٍّ لم يبلغه المشركون في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ اعتقدوا في بعض من يسمونهم بالسيد أو السادة أن عندهم تصرف في الكون!، وهذا أمر ما بلغه المشركون، عندهم تصرف في الكون؛ تدبير، إحياء وإماتة، حتى قال بعض المشاهير من دعاة القبور في زماننا، قال: "من الذي يقول أنه المتفرد بالخلق هو الله؟! " يعني معنى كلامه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ

أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] يفهم من الآية، يقول: "الأولياء عندهم قدرة"، ويقول: "إن الولي يستطيع أن يخلق الجنين في رحم الأم؛ ولكنهم لا يفعلون ذلك حتى لا تختلط الأنساب"، من أجل المصالح وإلاّ يقدرون ،

ويقول الله يقول في القرآن : ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يقول: "هذا يدل على أنه يوجد خالقين مع الله"، هذا ما قاله المشركون، ولو قال هذا القائل هذا الكلام لأبي جهل لصفحه أبو جهل على وجهه، قال: ما تفهم أنت! فهذه أمور متقرر وراسخ وثابت أن الله سبحانه وتعالى متفرد بها ، والآيات واضحة في هذا المعنى، فبلغ في بعضهم الأمر مبلغاً لم يبلغه حتى المشركون الذين بعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام، وسيأتي عند الشيخ لاحقاً قوله: «تباً لمن كان أبو جهل أعلم منه بالتوحيد» .

قال : «فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد)»، و«السيد» هذه الكلمة أصبحت عند أهل القبور تعني ما أشرتُ إليه أن من يُطلق عليه هذا اللقب له حق في الذل؛ له حق في الخضوع، في الانكسار، حتى إن بعض إذا وقف عند قبر من يُسمَّى بالسيد يخضع خضوعاً لا يكون منه في صلاته! ويكي بكاءً لا يكون منه عند قيامه بين يدي ربه في الصلاة!، يخضع خضوع وذل، وهذا مبني على هذا الاعتقاد في هؤلاء.

قال: «فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي: (لا إله إلا الله) ، والمراد من هذه الكلمة معناها لا مُجَرَّد لفظها» مجرّد اللفظ لا يكفي ولا يكون به الإنسان من أهل التوحيد، لا بد من تحقيق الشهادة بلا إله إلا الله، وهذا لا بد فيه من العلم كما قال الله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، في صحيح مسلم من حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله)) ، وقال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزحرف: ٨٦]، الحق: لا إله إلا الله، يَعْلَمُونَ: أي معنى ما شهدوا به، فلا بد من العلم بمعناها. المراد من هذه الكلمة معناها لا مُجَرَّد لفظها ؛ فمن قال هذه الكلمة وهو لا يفهم معناها لا تفيده ، ومن قال هذه الكلمة وهو يفهم منها معنى لا تدل عليه لا تفيده ؛ لو قال قائل: لا إله إلا الله، وقيل له ما معنى لا إله إلا الله؟ قال: "معناها أي أن الله قادر على الاختراع"، أو "لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله"، لا يكون بهذا الفهم من أهل لا إله إلا الله حتى يفهم معناها ومدلولها الذي دلّت عليه ؛ وهو عبادة الله عز وجل وعدم الإشراك به، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَٰأَيُّهَا﴾ [الإسراء: ٢٣] هذا هو معنى «لا إله إلا الله» ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] هذا هو معنى «لا إله إلا الله»، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، هذا هو معناها ، قال الله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، هذا هو معناها، هذا هو معنى (لا إله إلا الله): أن يُعبد الله عز وجل وحده وأن لا يُتخذ معه شركاء.

قال: «والكفار الجُهَّال يعلمون أن مُراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة هو: إفراد الله تعالى بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه»؛ الكفار الجُهَّال أي الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام كانوا يعلمون أن مُراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه . ما الدليل على أن الكفار المشركين الذي بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام كانوا يعلمون أن معنى (لا إله إلا الله): إفراد الله بالتعلق ؛ يعني بالذل بالخضوع بالذبح بالنذر بالرجاء، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه؟، ما الدليل؟ يقول الشيخ: «فإنه لما قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله)) قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:١٥] ؛ قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله تُفْلِحُوا)) فاجواب؟ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ، بل أخذوا يتواصون على الصبر على عبادة الآلهة: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦٠]؛ يعني يُدَبَّر بكم ويخطط ويُمَكِّر بكم حتى تُخَرِّفُوا عن هذا الدين فانتبهوا ، وتواصوا بالصبر على عبادة الآلهة، وأيضاً أخذوا يتفاخرون: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢] لولا أن كنا مُتَحَلِّين بالصبر لحرفنا محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه الآلهة، كل ذلك قالوه عندما قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله تُفْلِحُوا))، فهموا أن «لا إله إلا الله» تعني إبطال عبادة هذه الأصنام وإخلاص العبادة لله تبارك و تعالى؛ ولهذا قال عز وجل في آية أخرى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿[الصافات: ٢٥-٣٦]؛ لأن «لا إله إلا الله» تعني ترك الآلهة وإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى.

وأيضاً خذ الدليل على ذلك في قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب ، وقد أوردها الشيخ رحمه الله في كتابه التوحيد في باب إنك لا تهدي من أحببت ؛ لما حضرت أبا طالب الوفاة أتاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ((يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله))، وكان عنده أبو جهل وبعض المشركين عند رأسه فإذا قال له : ((يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله)) يقولون: "لا؛ بل على ملة عبد المطلب". إذاً لما قالوا له هنا في هذا المقام: "بل على ملة عبد المطلب"؛ لأن قول النبي صلى الله عليه وسلم له: ((قل: لا إله إلا الله)) تعني ماذا؟ إبطال الأصنام وإبطال عبادة ودعاء غير الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا قالوا له: "بل على ملة عبد المطلب".

أريد أن أسألكم هنا ثلاث أسئلة مفيدة؛ قولهم: "بل على ملة عبد المطلب" هل ملة عبد المطلب إنكار وجود الله؟ هل ملة عبد المطلب إنكار أن الخالق الرازق المنعم المتصرِّف المدبر لهذا الكون هو الله؟ هل هذه ملة عبد المطلب، هل ملة عبد المطلب جحد أن الله معبود يُعبد ويُصَلَّى له ويُركع ويُسجد ويُدعى، هل هذه ملة عبد المطلب؟ لا ،

ماهي ملة عبد المطلب؟ ملة عبد المطلب الإقرار بالأشياء المتقدمة واتخاذ الشركاء مع الله في العبادة؛ في الدعاء، في الذبح في النذر، هذه ملة عبد المطلب . ولهذا لما قالوا له هنا في هذا المقام: "بل على ملة عبد المطلب" أي: في دعاء الأصنام مع الله والذبح لها والنذر لها والتقرب إليها والمحافظة على هذا الأمر الذي تُنافي وتبطله (لا إله إلا الله)؛ ولهذا لما قال له: ((قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله))، قالوا له: "بل على ملة عبد المطلب"، ومات وهو يقول هو على ملة عبد المطلب، أبي أن يقول «لا إله إلا الله» .

قال: «فإنه لما قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنِّ هَذَا شَيْءٌ عَجَابٌ﴾».

قال رحمه الله تعالى :

فإذا عرفت أن جُهَال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدّعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جُهَال الكفار؛ بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني، والحاذاق منهم يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر الأمر إلا الله ، فلا خير في رَجُلٍ جُهَال الكفار أعلم منه بمعنى «لا إله إلا الله».

قال رحمه الله تعالى: «فإذا عرفت أن جُهَال الكفار يعرفون ذلك» "جُهَال الكفار: أي الذين بعث فيهم نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ يعرفون ذلك: أي يعرفون معنى (لا إله إلا الله) وأنها تعني: إفراد الله بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه والبراءة منه، إذا عرفت ذلك «فالعجب ممن يدّعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جُهَال الكفار».

ثم هنا لاحظوا أمر يُستفاد من قول الشيخ: «بل يظن...» إلخ ؛ من لم يعرف معنى هذه الكلمة حقيقةً معناها الصحيح الذي دلّ عليه الكتاب ودلت عليه السنة ويُعرف باللسان العربي وقد فهمه الكفار الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام، من لا يعرف معناها الصحيح فهو في أحد طريقتين:

يُحْتَمَلُ أن قال: «بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني» ، هذا مسلك ؛ بعضهم يظن أن تحقيق (لا إله إلا الله) هو أن يتلفظ بحروفها دون أن يعتقد القلب بشيء من المعاني، هذا مسلك من المسالك، (لا إله إلا الله) كلمة تُقال وتردد لكن لا يعتقد القلب لشيء من المعاني. يُحْتَمَلُ المسلك الآخر: قال «والحاذاق منهم -أي الذي يدّعي الحذاق والفهم والدراية بالأمور- يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر الأمر إلا الله» .

فمن ينجح عن المعنى الصحيح لـ «لا إله إلا الله» له أحد مسلكين: إما أن يظن أنها كلمة تُقال دون أن يُعتَقَد أو يعتَقَد القلب لشيء من المعاني التي تدل عليها . والمسلك الآخر: وهو من يدّعي الحذق والفهم من هؤلاء يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق إلا الله ولا يدبر الأمر إلا الله.

فيقول الشيخ أسفاً على حال هؤلاء: «فلا خير في رجلٍ جُهِال الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله)»؛ لأن الشيخ وضّح قريباً أن جُهِال الكفار المشركين الذين بعث فيهم عليه الصلاة والسلام كانوا يعرفون معنى هذه الكلمة ، ولهذا امتنعوا من قبولها واستكبروا عن النطق بها وقالوا: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ ؛ فيتعجب الشيخ ثم يختم بقوله: «فلا خير في رجلٍ جُهِال الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله)» .

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا جميعاً من أهل لا إله إلا الله حقاً وصدقاً، وأن يحمينا على التوحيد وأن يميّتنا عليه ، وأن يهدينا سواء السبيل.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد إن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «كشف الشبهات» :

إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتَ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ، وَعَرَفْتَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، وَعَرَفْتَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ، وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا، أَفَادَكَ فَائِدَتَيْنِ؛ الْأُولَى: الْفَرْحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : ٥٨] . وَأَفَادَكَ أَيْضًا: الْخَوْفُ الْعَظِيمُ، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعَذِّرُ بِالْجَهْلِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ، كَمَا ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ، خُصُوصًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللَّهُ مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ، أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحَرَصُكَ عَلَى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: «إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتَ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ» ؛ "مَا قُلْتَ لَكَ": أي فيما تقدّم في هذه الرسالة من تمهيداتٍ مهمةٍ وتقديماتٍ عظيمةٍ بيّن فيها رحمه الله تعالى دين المرسلين، وأنه قائم على توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له، والبراءة من الشرك، وبيّن فيها حقيقة دين المشركين، وأنّ المشركين يُقَرِّون بأنّ الخالق الرازق المنعم المتصرّف في هذا الكون هو الله، وأيضاً يعبدون الله عز وجل، ويذكرون الله كثيراً، ويتصفون بصفاتٍ فاضلة؛ كصلة الأرحام وإطعام الطعام وغير ذلك؛ لكنهم لا يُخْلِصُونَ الله عز وجل العبادة، لا يُخْلِصُونَ له الدعاء، لا يُخْلِصُونَ له الذبح والنذر؛ بل يجعلون مع الله تبارك وتعالى في ذلك الأنداد والشركاء، ويزعمون أنّ اتّخاذهم لهذه الأنداد من أجل أن تقرّبهم إلى الله وأن تكون شافعاً لهم عند الله سبحانه وتعالى، إلى غير ذلك من المقدمات والتمهيدات العظيمة التي بدأ رحمه الله هذه الرسالة بها.

فيقول هنا: «إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتَ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ»، ومعرفة القلب: هي التي يكون فيها قلب الإنسان حاضراً واعياً ضابطاً للأمر، لا أن يكون حظ الإنسان من العلوم مجرد السماع دون أن يكون القلب حاضراً ﴿إِنْ

فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴿٣٧:٥﴾؛ لهذا أكد رحمه الله على هذا الأمر بقوله: «مَعْرِفَةُ قَلْبٍ»؛ أي: تضبط ذلك بقلبك.

«وَعَرَفْتَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]»؛ أي أن حقيقة اتخاذ الأنداد مع الله، وتسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه، وصرف شيء من العبادة لغيره تبارك وتعالى، ((من مات وهو يدعو من دون الله نداءً دخل النار))، فالشرك هو: اتخاذ نِدٍّ مع الله عز وجل يُدعى مع الله؛ يُذبح له؛ يُندَرله، تُصرف له أنواع العبادة.

«وَعَرَفْتَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ»؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]؛ كما قال عز وجل: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وهو دين الرسل من أولهم إلى آخرهم: وهذا أمرٌ سبق البيان عليه عند الشيخ رحمه الله تعالى.

قال: «وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا» أيضاً إذا عرفت هذه الأمور ثم تتأمل في الوقت نفسه حال غالب الناس وكثير منهم، وأن غالب الناس في جهلٍ لهذا الأمر، يجهلونه، لا يعرفونه، لا يفهمونه. إذا عرفت ذلك كله «أفادك فائدتين»، إذا عرفت هذا كله؛ عرفت دين الأنبياء والمرسلين، عرفت الشرك الذي هو ضاده، وعرفت دين المشركين الذي بُعثَ فيهم النبي عليه الصلاة والسلام، ثم بعد ذلك نظرت إلى واقع كثيرٍ من الناس وأنهم في جهلٍ من هذا الأمر، لا يعلمون به ولا يعرفونه، إذا عرفت هذه الأمور معرفة جيدة وألممت بها إلماماً طيباً، يقول الشيخ: هذا يفيدك فائدتين، هذه المعرفة تفيدك فائدتين.

قال: «الْأُولَى: الْفَرْحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ»؛ الفائدة الأولى: أن قلبك يفرح بهذا الخير الذي ساقه الله إليك ومنَّ عليك به، مع أن أكثر الناس يجهلونه. وهنا تظهر قيمة هذا الأمر الذي منَّ عليك به، لو كان هذا الأمر العظيم الذي منَّ عليك به وبه سعادتك في الدنيا والآخرة أُعطي لكل الناس لكان حقيقاً بك أن تفرح به فرحاً عظيماً، فكيف والحال أن هذا الأمر أكثر الناس في جهلٍ عنه وعدم علمٍ به ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبا: ١٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]. فإذا فهمت هذا الأمر وعرفته وعرفت دلائله وشواهدده، ورأيت حال كثيرٍ من الناس في جهلٍ عظيمٍ به وعدم علمٍ به تفرح بفضل الله وبرحمته، وهنا الفرح لا يُدَم ولا يتعارض مع قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]؛ هذا فرح بالدين، فرح بنعمة الدين؛ الإيمان؛ التوحيد، ليس فرح أشْر وبَطَر وتعالى؛ وإنما فرح إغْتباط بنعمة الله سبحانه وتعالى وسعادة بها.

قال: «الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾» [يونس: ٥٨]، وهذا الفرح يُبَاشِرُ القلبَ عندما يَعِي المسلم ويستحضر هذه الأمور الذي مَهَّدَ بها الشيخ وقَدَّمَهَا، أما من لا يَعِي تلك الأمور لا يُبَاشِرُ هذا الفرح قلبه ولا يُخَالِطُ قلبه؛ لكنَّ من وَعَى هذه الأمور وفهمها ودخلت قلبه وضبطها ثم نظر إلى واقع كثيرٍ من الناس أو أكثر الناس وجدهم في جهلٍ بهذا الأمر وعدم علمٍ به يفرح من جهة مَنِّه الله عليه سبحانه وتعالى بأن جعله من هؤلاء الذين هُدُوا للطريق القويم والجادة السَّوِيَّة؛ دين الله تبارك وتعالى الذي رَضِيه الله لعباده.

أرأيت لو أنَّ مُجْتَمَعًا من المجتمعات تعيش أنت فيه سرى فيهم مرضٌ فتاك وأضرَّ بهم ضرراً بالغاً وأصبح أكثر الناس طريحي الفراش ويُعانون أنواع الآلام والأسقام من ذلك المرض، ونظرت إلى الناس وإذا بأكثر الناس أَلَمَّ بهم هذا المرض وأضرَّ بهم؛ ثم وجدتكَ في عافية، وجدت أنك عَفِيت وسَلِمْتَ ولم تُصَبْ من هذا المرض بشيء ولم تتلوث منه بشيء فتدرك نعمة الله تبارك وتعالى عليك، ولهذا يقولون: "بِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ"، ربما لا تشعر بقيمة الصحة التي تتمتع بها؛ لكنك إذا رأيت المرضى في المستشفيات وأنواع المعاناة التي يُعانون بها تُحس بقيمة الصحة، قد لا تُحس بقيمة النور وأنت كل ليلة تقرأ كتابك في إضاءةٍ جيدة؛ لكن لو طَفِئَ النور عنك ليلة وأحببت أن تقرأ كتابك كعادتك تُحس حينئذٍ بقيمة النور، بِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ، ولهذا نَبَّهَ الشيخ على هذا المعنى بقوله: «وعرفتَ حال كثيرٍ من الناس»، بعد أن تعرف هذا الخير وهذا الفضل بأدلتِهِ وبراهينه؛ تعرف حال أغلب الناس وأنهم في جهلٍ من هذا الأمر؛ تفرح فرحاً عظيماً بأن الله عز وجل صرف عنك هذه الشرور وهداك لهذا الخير، وله المثلُّ وله الفضل جل وعلا، وله الحمد أولاً وآخرًا ظاهرًا وباطنًا، نحمده سبحانه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحبُّ ربنا ويرضى، ونسأله جل وعلا أن يثبتنا على دينه.

قال: «وَأَفَادَكَ أَيْضاً: الْخَوْفَ الْعَظِيمَ»، تفرح وفي الوقت نفسه تخاف، "وَأَفَادَكَ أَيْضاً" هذه الفائدة الثانية، "الْخَوْفَ الْعَظِيمَ": أي الخوف على هذا الشيء الثمين الذي فُزْتَ به ونَلِئْتَهُ وأكرمك الله عز وجل بالظَّفَرِ به وصرت من أهله؛ فأصبحت تُحس أن معك كَنْزٌ هو أَمْنٌ كَنْزٌ؛ فيبدأ مع الفرح الذي يُبَاشِرُ قلبك أيضاً يكون معك خوفٌ على هذا الكَنْز أن يذهب؛ ألا يبقى؛ أن يتبدَّل. والخوف من الشرك من المطالب التي دَلَّت عليها النصوص، وأرشدت إليها الأدلة، وفي «كتاب التوحيد» للشيخ رحمه الله بابٌ عنوانه «الخوف من الشرك»، أورد فيه قول إمام الحنفاء إبراهيم الخليل الذي حَطَّم الأصنام بيده وكسرها بيده قوله في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال إبراهيم التيمي: «ومن الذي يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!»، وجاء في الحديث المروي عن نبينا صلى الله عليه وسلم عن غير واحدٍ من الصحابة منهم عائشة وأم سَلَمَةَ وأنس وغيرهم أن أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))، حتى إن أنس رضي الله عنه قال: «قلْتُ: يا رسول الله!

آمنا بالله وبما جئت به، أَوْ تخافُ علينا؟ -إن حصل لنا هذا الإيمان-»، قال: ((نعم))، هكذا قال عليه الصلاة والسلام: ((نعم))، ((إنَّ قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقَلِّبُها كيف يشاء))، وجاء في الحديث نفسه أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قالت للنبي عليه الصلاة والسلام لما سمعته يُكثِر من هذا الدعاء «أَوْ إِنَّ القلوب لتَتَقَلَّبُ؟»، قال: ((ما من قلبٍ إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقَلِّبُها كيف يشاء؛ فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه)).

فإذا أكرم الله سبحانه وتعالى عبده ومَنَّ عليه بمعرفة التوحيد ومعرفة براهينه ودلائله ومعرفة حال الناس وأكثر الناس وإنصرافهم عنه ؛ يُفيدة هذا الفرح ويُفيدة أيضاً الخوف العظيم؛ الخَوْفَ الْعَظِيمَ: أي على توحيدهِ وعلى إيمانه أن يذهب، أن يتغير، أن يتبدل، أن يُتلى والعياذ بالله بشبهاتٍ تחדش توحيدهِ، أو تنقص توحيدهِ، وهي كثيرة جداً في الحياة الدنيا، الشبهات كثيرة الصارفة عن التوحيد والصَّادَة عنه، وخاصة في زماننا، مع وسائل الانفتاح الكثيرة التي حصلت ووسائل الاتصال، كثُرَت الشبهات على الناس؛ مع قلة علمهم بالتوحيد، وقلة فهمهم له، قلة بصائرهم بدلائله وبراهينه، وجاءتهم شُبُهه؛ شُبُهه جارفة، فهنا يُقال بشكلٍ أكبر ما قيل قديماً: "ليس العجب ممن هلك كيف هلك؟! ولكنَّ العجب ممن نجا كيف نجا؟!"، الصوارف كثيرة ولا عاصم منها إلا الله سبحانه وتعالى، ولا مُنَجِّي منها إلا الله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١].

فيكون الإنسان خائفاً على توحيدهِ وعلى إيمانه، وإذا وُجِدَ عنده هذا الخوف على توحيدهِ فإنه لا يصنع صنيع كثير من الناس الذي عنده من أسهل ما يكون أن يُخاطر بدينهِ، هذا واقع؛ واقع كثير من الناس من السهولة بمكانٍ عنده أن يُخاطر بدينهِ، وأن يجعل دينهِ على خطر، وذلك من خلال عدم مبالاته؛ بالسماع لكل أحد؛ ومشاهدة كل شيء؛ والتنقل في المواقع والقنوات ولا يُبالِي، وهذه مُخاطرة بالدين، قد قيل قديماً: "إن كنت مُخاطراً بشيء فلا تُخاطر بدينك"، دينك أغلى شيء عندك، وأثمن شيء عندك، ومن كان خائفاً على دينهِ من الذهاب أو التغير أو التبدل لا يُخاطر به، كيف يُخاطر بدينهِ من عرف قيمته وعرف مكانته وذاق طعمه وحلاوته وفرح به واعتبط!! ، عبد الله بن المبارك دخل عليه رجل من أهل الأهواء وقال: "اقرأ عليك آية من كتاب الله؟"، قال: "اخرجوه عني!"، وهو الإمام الجليل، والفقيه العالم قال: "اخرجوه عني!!"، فقليل له: "إنما أراد أن يقرأ عليك آية من كتاب الله؟!"، قال: "خشيتُ أن يطرح عليَّ شبهةً تُجَلِّجَلُ في قلبي حتى أموت"، تبقى تتردد في نفسي إلى أن أموت وما خَرَجْتُ، شبهة واحدة!، وهو الإمام الجليل، ثم ترى الأحداث وصغار الأسنان وقليلي العلم والجهال بدين الله يُخاطرون بدينهم ويسمعون لكل أحد!، ويسمعون لكل ناعق!؛ ولهذا تُبتلى كثير من القلوب بِرُكَّامٍ من الشبهات وَرُكَّامٍ من الوسائس والشكوك، والسبب أن صاحبها خاطر بنفسهِ وفتح قلبه لكل أحد يُلقِي فيه من الشبهات ما شاء.

الشاهد: أَنَّ مَنْ عَرَفَ قِيَمَةَ الدِّينِ وَالتَّوْحِيدِ وَفَضَلَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ بِهِ وَهَدَايَتَهُ لَهُ وَانْصَرَفَ أَكْثَرَ النَّاسِ عَنْهُ وَجَهْلَهُمْ بِهِ ؛ يَفْرَحُ بِهِ فَرَحاً عَظِيماً وَفِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ يَخَافُ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ كَنْزٌ ثَمِينٌ يَخَافُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي حَيَاتِهِ فِي مُجَاهَدَةٍ بِيَقَاءِ هَذَا الْكَنْزِ وَعَدَمِ ذَهَابِهِ. وَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى الْأَسْبَابِ؛ بَلْ يَلْتَفِتْ قَلْبُهُ وَيَعْتَمِدَ وَيَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ التَّثَبُّتَ بِيَدِ اللَّهِ، وَالتَّوْفِيقَ بِيَدِ اللَّهِ، وَقُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ فَيَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ صَادِقاً أَنْ يُثَبِّتَ قَلْبَهُ وَأَلَّا يُزَيِّغَهُ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) كان هذا أكثر دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام، وجاء في الصحيحين أَنَّ مَنْ دَعَا عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ: ((اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أُنِيتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، فَأَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجَنِّ وَالْإِنْسِ يَمُوتُونَ))، فَيَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيُجَاهِدُ نَفْسَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْأَسْبَابِ الصَّحِيحَةِ، وَبِذَلِكَ الْأَسْبَابِ الصَّحِيحَةِ؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ: ((أَحْرَصُ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ))، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ: ((اعْمَلُوا فِكْلاً مُيسَّرَ لِمَا خُلِقَ لَهُ))، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

قال: «فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ»، قد جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ((إِنَّ الرَّجُلَ يَقُولُ الْكَلِمَةَ لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً))، إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ وَعَرَفْتَ خَطُورَتَهُ، وَأَنَّهُ يَهْوِي بِالْإِنْسَانِ إِلَى النَّارِ، وَبِمَا كَلِمَةٌ قَالَهَا الْإِنْسَانُ بِلِسَانِهِ هَوَىٰ بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، وَأَدْرَكَ خَطُورَةَ هَذَا الْأَمْرِ؛ يَبْدَأُ الْخَوْفَ يَزِيدُ عِنْدَهُ مِنَ الْمَخَاطَرَةِ بِالْدِّينِ وَالْمَسَارَعَةِ أَوْ الْوُقُوعِ فِي الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَخْدِشُ فِي التَّوْحِيدِ أَوْ تُنْقِصُهُ أَوْ تُنَاقِضُهُ.

قال: «إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعَذِّرُ بِالْجَهْلِ»؛ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ: أَيُّ لَا يَدْرِي مَا تَبْلُغُ بِهِ الْكَلِمَةُ، أَوْ أَنَهَا لَا تَصِلُ بِهِ إِلَى هَذَا الْمَوْصِلِ أَوْ هَذَا الْأَمْرِ أَوْ هَذَا الْقَعْرِ مِنَ النَّارِ أَوْ هَذَا الْقَدَرِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، قال: «وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعَذِّرُ بِجَهْلِهِ»؛ وَذَلِكَ لِكَوْنِهِ مُفَرِّطاً؛ مُهْمِلاً مُضْبِعاً غَيْرَ مُبَالٍ بِدِينِهِ وَلَا مُهْتِمٍ بِهِ؛ وَمُخَاطِرٌ وَمُعْرِضٌ.

قال: «وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ، كَمَا ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ»؛ أَلَيْسَ الْمُشْرِكُونَ حَالَهُمْ قَامَتْ عَلَى هَذَا الظَّنِّ؟! ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٥]، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، مَا قَالُوا نَحْنُ عَبْدَانَا لَتُدْخِلَنَا النَّارَ! وَلَنَذُوقَ بِهَا عَذَابَ اللَّهِ وَعُقُوبَتَهُ! وَلَنَصِلَى نَارَهُ! وَلَنَحْطَى بِسَخَطِهِ عَلَيْنَا!؛ مَا قَالُوا ذَلِكَ!،

قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، نحن مُرادنا بهذه العبادة وبهذا الدعاء وبهذا الالتجاء للأصنام من أجل أن تُقَرِّبَنَا إِلَى اللَّهِ ، قد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله كما ظن المشركون.

«خُصُوصاً إِنَّ أَلْهَمَكَ اللَّهُ مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾» [الأعراف: ١٣٨]؛ إذا تذكرت مثل هذا القِصص فإنها تزيد الخوف عندك؛ ولهذا قال الشيخ: خُصُوصاً إِنَّ أَلْهَمَكَ اللَّهُ : يعني عرفت واستحضرت وفهمت مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ؛ كانوا أهل صلاح وعلم، وكانوا مَضُوءًا مع موسى وصبروا على البلوى معه؛ أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ ، بعد أن مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، مروا على قوم عندهم أصنام وهم عاكفون عليها فنظروا إليهم ومروا بهم فجاءوا إلى موسى يُطالبون: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، كانوا أهل صلاح وأهل علم وعَرَفَهُم التوحيد وشرحه لهم وبَيَّنَّه لهم ، ويمشون مع نبي؛ مع موسى عليه السلام، ثم مروا بأصنام عليها قوم عاكفون فأعجبهم هذا الأمر ، ولهذا طالبوا قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، مثل هذا حُداثا الإسلام في قصة حديث أبي واقد الليثي قال الحديث وقَدَّم بالاعتذار في أوله، قال: «كنا حُداثا عهدٍ بكفر؛ فمررنا على شجرة للمشركين يُنْطُون عليها أسلحتهم ويعكفون عندها، فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، قال: ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾» .

ولعلك هنا تُدرك أن المرور على عُبَاد الأصنام والأوثان والأضرحة والقباب قد يؤثر على الإنسان الذي عنده شيء من العلم بالتوحيد، قد يؤثر عليه ويلوث قلبه ويدخل عليه شيء من الشبهة، وهكذا الحال فيمن يمر من خلال مواقع الانترنت والقنوات الفضائية على مثل هذه الأعمال والصنائع، وربما زُخرف الأمر وُزِّين وأُظْهِرت المحاسن المِدَّعة والثمار المِدَّعة فينصرف قلب الإنسان عن التوحيد إلى مثل هذه الأعمال الشركية والعياذ بالله، وكم من إنسان حصل له مثل ذلك أو شيء منه بسبب مثل هذه المخاطرة ؛ ولهذا يجب على كل إنسان ناصح لنفسه أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأن يغلق على نفسه باب خطورة القنوات ومواقع الانترنت على نفسه وعلى أهله وعلى ولده ، وأن يكون من ذلك على حيطة وحذر.

قال: «فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ» إذا استحضرت مثل هذه الأمور يَعْظُمُ خَوْفُكَ أي على توحيدك وعلى إيمانك. قال: «وَحِرْصُكَ» أي: يعظم حرصك؛ لأنه كلما زاد الخوف على الشيء الثمين زاد الحرص عليه، وكلما رَحُصَتْ قيمة الشيء الثمين في نفس الإنسان قلَّ حرصه عليه.

قال: «يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلَى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ»؛ وهنا ينبه الشيخ أنك لا تكتفي بمجرد الخوف؛ بل ينبغي أن يكون لهذا الخوف ثمرة؛ وهي الحرص، وينبغي أن يكون لهذا الحرص ثمرة؛ وهي بذل الأسباب في كل ما يخلصك من هذه الأمور وينجيك منها . ولهذا أقول: ينبغي عليك أن يكون أحرص ما ينبغي أن تحرص

عليه في هذه الدنيا التوحيد ، وأخوف ما ينبغي أن تخاف منه في هذه الحياة الدنيا الشرك ، فليكن التوحيد أعظم أمر تحرص عليه، وليكن الشرك أعظم أمر تخاف منه ؛ لأن صلاحك في دنياك وأخراك في التوحيد، وخسران الإنسان في دنياه وأخراه في الشرك بالله، قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٤-١٣] أي في دورهم الثلاثة : في الدنيا والقبر ويوم القيامة.

قال رحمه الله تعالى:

وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَنْ حَكَمْتَهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ثم قال رحمه الله تعالى: «وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَنْ حَكَمْتَهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً»، وهذه مسألة مهمة وعظيمة في هذا الباب ينبغي على طالب العلم وطالب الهدى والحق أن يعيها وأن يفهمها؛ لم يبعث الله نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء، ليس جعل الأعداء للأنبياء من هوان الأنبياء عند الله؛ ولكن ليتلي أنبياءه ولتعلوا مقاماتهم عند الله عز وجل وترتفع درجاتهم بصبرهم على دين الله وصبرهم على الدعوة إلى توحيده ، ومكابدهم في هذا الأمر، وبذلهم الجهود المتواصلة والتضحيات البالغة والجهد العظيم في نصرة التوحيد وحماية حماه والسعي في نشره، ورد الشرك بما يكون لهم غلو المرتبة ورفعة الدرجة وغلو المنزلة، الله عز وجل ابتلاهم بتسليط الأعداء عليهم من أجل رفعة درجاتهم عند الله وذلك بالصبر والمصابرة؛ ولهذا قال الله لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. فالشيخ ينبه على هذه المسألة العظيمة أنه ما بعث الله نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء، وكلما كان الإنسان أقرب للأنبياء وأتبع لهم وألزم لطريقهم أصيب من هذه المعاناة بقريب مما أصيب به الأنبياء، وأعظم الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

قال: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]»، قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ هذا فيه أن ما من نبي بعثه الله إلا وله أعداء، من هم أعداؤه؟ قال رب العالمين: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾، قال بعض أهل العلم: قُدِّمَ ذِكْرُ شياطين الإنس على شياطين الجن في هذه الآية الكريمة؛ لأن شيطان الإنس يأتي بهيئة واضحة بهيئة ظاهرة، هيئة الناصح المشفق المحب للإنسان الخير، مما يكون سبباً لاختداع كثير من الناس ، أليس فرعون قال لقومه وهو الذي

يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]؟، أليس قال لهم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]؟، حتى إن أحد الوعاظ - كما ذكر ابن الجوزي في أحد كتبه - عَلِقَتْ في ذهنه هذه الكلمة: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فقال للناس وهو يعظهم: "لا أقول لكم إلا كما قال العبد الصالح: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾"، عَلِقَتْ في ذهنه ورودها في القرآن وهي كلمة جميلة ولا يقولها إلا إنسان صالح ناصح؛ لكنه نسي وهو يُوردها للناس أنها من قول الطاغية فرعون، يذكر أنها في القرآن هذه ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، من الذي يقول: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ إلا الإنسان الصالح الناصح!! ولهذا هذا الواعظ علق في ذهنه ورودها في القرآن فقال للناس في موعظته لهم: "ما أقول لكم إلا كما قال العبد الصالح: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾". فشياطين الإنس يأتون بمثل هذه الهيئة، ولهذا قال الله عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، يستخف الناس بمثل هذه الكلمات ، مثل هذه الألفاظ ، مثل هذه الزخرفة ، كما سيأتي في تمام الآية

قال: ﴿شِيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] هذه بضاعتهم؛ بضاعة مُبْطَلَة في كل زمان وأوان الزخرفة؛ زخرفة الباطل، والزخرفة: هي تزيين الشيء وتنميقة ، وهي إظهاره بالصورة الجميلة. وزخرفة الباطل: بأن يُظْهَر للناس في صورة الحق وبالصورة الطيبة الجميلة. قال: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي الذي يَعُثُّ الإنسان ويوقعه في الهلكة بسبب ما اخْتَفَّ به من تزيين وزخرفة وتنميق وتجميل . ولهذا ينبغي على الإنسان أن يحرص على الحق وأن يحذر من الباطل وإن زخرفه المبطلون.

قال رحمه الله تعالى :

وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] .

قال: «وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ»، وهذه أيضاً مسألة ينبه عليها الشيخ مهمة ؛ قد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، ليس من الضروري أن تلقى في مَنْ يعادي التوحيد أناساً لا علم عندهم؛ بل ربما تلقى في من يعادي التوحيد من هو صاحب علم ، إما علم باللغة وأساليبها ودرايةً بها وعلمًا بها ، أو بالبلاغة والفصاحة وما إلى ذلك، أو يكون عنده علوم عصرية وأمور من ظاهر الحياة الدنيا، ﴿يُعَلِّمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ

عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧٠﴾ [الروم: ٧٠]، أو يكون عنده شيء من العلم الذي جاء به المرسلين، كأن يكون عنده علم بالقرآن أو علم ببعض الأحاديث، ولكنه ليس من أهلها؛ وإنما حفظها وقرأها ودرسها ليشبهه على أهلها، حتى قيل في بعض المستشرقين أنه من شدة حرصه على التلبس على أهل الإيمان حفظ القرآن، حتى يكون مستحضراً له ويحاول أن يثير ، على طريقة أهل الزيغ ، وستأتي الآية عند المصنف ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] ؛ ولهذا ينبه الشيخ على ذلك يقول: «وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ» مثل ما أشرت إليه؛ إما : علم اللغة، أو علم أمور ظاهرة من هذه الحياة الدنيا، أو أيضاً علم بأشياء من الوحي يتعلمها من أجل أن يلبس على الناس أو يشكك الناس في دينهم، عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُنْتُ وَحُجَجٌ ، أحد السلف يقول في التحذير من صاحب البدعة: "فإنه مُلَقَّنُ حُجَّتَهُ"؛ يعني يأتي مُحْمَلٌ بالشبهات العاصفة والشبهات الجارفة، فقد يأتي ومعه شيء من الكتب أو العلوم أو الحُجَج التي يُدلي بها؛ ولكن هذه التي يحملها هؤلاء في ميزان التحقيق وعند أهل البصيرة في دين الله والرسوخ حقيقتها ﴿كَسْرَابٍ بَقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]؛ ولكنها عند الجهال وقليبي العلم قد تُخْلَل وتُلَبَّس وتُحَرَف وتُغَيَّر وتُبَدَّل.

قال رحمه الله: كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ، وهذا هو الشاهد من الآية: ﴿مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي عندهم علم!، ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾، قد يكون عنده علم يُجادل به ويُحاج ويُخاصم.

قال رحمه الله تعالى :

إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدِّمُهُمْ لِرَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَبْتَهِمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿[الأعراف: ١٦-١٧] ، وَلَكِنْ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] . وَالْعَامِيُّ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جُنَدَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣]، فَجُنْدُ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، كَمَا أَنَّ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُؤَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ ، وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تَبَيَّنًا

لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قال رحمه الله: «إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ» أي ما قدّم الشيخ رحمه الله ذكره وتقريره.

«وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلٍ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ»، نعود إلى المثال السابق الذي أشرت إليه قريباً؛ لو كان بيدك كنز ثمين جداً وأنت تمشي بهذا الكنز وتعلم أن الطريق الذي تسير فيه تحمل هذا الكنز فيه أعداء كثيرون، لنفرض أن بيدك مليون ريال فرح بها وربحتها، وتعرف أن في الطريق أعداء كل واحد منهم يريد أن ينهبها منك وأن يخطفها منك وأن لا يبقوها في يدك لحظة، تمشي وأنت مخاطر بها وإلا تكون شديد الحرص؟! التوحيد أو المليون؟ فتوحيد الإنسان أمّن شيء، وأمامه أعداء كثر يريدون خطف هذا التوحيد منه؛ بل قال ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه: إن مثل الشيطان مع الإنسان كمثل إنسانٍ معه قطعة لحم، وحوله كلبٌ جائع يلهث يطوف عليه ينتظر متى يغفل لحظة واحدة ليخطف منه اللحم. والأعداء الذين يريدون خطف التوحيد من الإنسان منهم أعداء ظاهرون، وأعداء أخفياء، كما قال بعض السلف: «عدو يراك ولا تراه شديد المؤنة» أي الشيطان، فإذا عرف الإنسان أن هناك أعداء يمكرون به وقاعدون له في طريقه، قال عليه الصلاة والسلام: ((إن الشيطان قاعدٌ لابن آدم بأطرقه)) قاعدٌ لهم في طريقه، وأهم شيء يريد الشيطان إضلال الإنسان فيه: التوحيد، ولهذا جاء في حديثٍ ثابت أن الشيطان إذا أصبح يجلس على عرش ثم يَبِث جنوده، فيأتيه الواحد من جنده ويقول: "لم أزل به حتى عقى والديه"، قال: "يوشك أن يبرهما"، يأتيه الثاني يقول: "لم أزل به حتى كذا"، فيقول: "يوشك أن..."، إلى أن يأتيه الرجل فيقول: "لم أزل به حتى أشرك بالله"، فيقول: "أنت أنت" ويلبسه التاج، وفي الآية التي في سورة الحشر ﴿كَمَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا (١٧) ﴿، اقرؤوا كلام المفسرين ولا سيما ابن كثير رحمه الله لهذه الآية الكريمة.

قال: «وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ؛ أَهْلٍ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ»، العدو إذا كان مدجج بالسلاح أخطر من العدو الذي ليس معه سلاح، إذا كان عدوك الذي يريد خطف الإيمان منك والتوحيد صاحب فصاحة وعلم وحجج فإن هذا أخطر من الإنسان العادي الذي لا علم عنده ولا حجة، والناس يخافون من العدو المحمل بالسلاح أكثر من خوفهم من العدو الذي لا سلاح معه؛ فهذا مما يزيد الحذر والحيلة، قال: «أَهْلٍ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ».

ثم قال رحمه الله تعالى ناصحاً ومُحذراً: «فَالْوَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ» وهذه نصيحة عظيمة جداً من هذا الإمام رحمه الله تعالى؛ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَكُونُ سِلَاحًا لَكَ ؛ لكن إذا مشيت بدون سلاح فأنت على خطر، لاسيما أن طريقك مليء بالأعداء، وسلاحك الذي يشير إليه الشيخ هنا: العلم، العلم: قال الله قال رسوله ، أن تعرف التوحيد وأن تفهمه وأن تحفظ أدلته وأن تعني بدراسته، ودَعَاكَ مَنْ يَهْوَنُونَ مِنْ شَأْنِ التَّوْحِيدِ وَمِنْ دُرُوسِ التَّوْحِيدِ، دَعَاكَ مِنْهُمْ، أُعْطِيَ مِنْ وَقْتِكَ التَّوْحِيدَ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ، النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: ((مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ))، قراءتك للآيتين من سورة البقرة ولاسيما الآية الأولى منهما تجديد للإيمان، استدكاراً له كل ليلة، قراءتك آية الكرسي مرات وكرات هذا تجديد للإيمان والتوحيد . فلا يزال المسلم يجدد إيمانه ويجدد توحيده. أُثْنِيَ مَرَّةً - كما ذكر هذا ابن القيم رحمه الله - أُثْنِيَ عَلَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ فَقَالَ كَلَاماً مِنْهُ: «لَا أَزَالُ كُلَّ يَوْمٍ أَجِدُّدُ إِيمَانِي»، يحتاج الإنسان إلى تجديد إيمانه والسعي في تحقيق توحيده وتكميله وتقويته، يقول عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفٍ أَحْكَمَ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبَ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَجِدِدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ)).

الشيخ ينصحك أن تكون ذا عناية عظيمة جداً بأمر التوحيد والفقه فيه، قد قال عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ))، وقوله ((فِي الدِّينِ)) يشمل الفقه في التوحيد الذي هو الفقه الأكبر ، والفقه أيضاً في الأحكام.

قال: «فَالْوَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ، تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ» أي شياطين الإنس والجن الذين مَرَّ الإشارة إليهم في الآية

«الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدَّمُهُمْ لِرَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا قُعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» [الأعراف: ١٦-١٧]، وتأمل هنا قول عدو الله الذي ذكره الله: ﴿لَا قُعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، فهو أين يقعد وأين يحرص في قعوده؟ في الصراط المستقيم، ولهذا قيل لابن عباس رضي الله عنه: إن اليهود تزعم أن الشياطين لا توسوس لها في صلاتها، لا تأتيتهم وسوس في صلاتهم!، فقال رضي الله عنه: «وماذا يصنع الشيطان ببيتِ خرب!»، فقال: ﴿لَا قُعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإذا كان الإنسان ماضياً على الصراط أو تائباً مقبلاً على الصراط ، مثل: كافر يريد أن يسلم أو عاصي يريد أن يتوب يقعد له لِيُثْنِيَهُ عَنْ الدُّخُولِ فِيهِ إِنْ كَانَ يَرِيدُ الدُّخُولَ ، أو لِيُثْنِيَهُ عَنِ الِاسْتِمْرَارِ فِيهِ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ.

قال: ﴿لَا قُعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا يَنْتَهُمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ ؛ وهذا فيه أن مجيئ الشيطان للإنسان ودخوله عليه من كل جهاته ، فأنت على خطر من جميع الجهات، وينبغي أن تكون على حذر في كل الأوقات، وفي حيلة في كل الأوقات، وفي الدعاء المأثور العظيم: ((اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)).

قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ وهذا فيه أن أكثر الناس يكونون صرعى لمكر الشيطان وكيد ووساوسه، ويسلم منهم القليل ممن كتب الله تبارك وتعالى لهم السلامة وكتب لهم النجاة، جعلنا جميعاً منهم.

قال: «وَلَكِنْ» واسمع هذه الوصية العظيمة: «وَلَكِنْ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ»؛ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ بِقَلْبِكَ وَقَالْبِكَ صَادِقًا مَعَ رَبِّكَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَرْجُو رَحْمَتَهُ وَتَخَافُ عَذَابَهُ وَتَسْلِمُ أَمْرَكَ إِلَيْهِ وَتَفُوضُ أَمْرَكَ إِلَيْهِ وَتَرْجُو نَجَاتَكَ وَسَلَامَتَكَ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى صَادِقًا «وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ» جمع لك في هذه الوصية رحمه الله في قوله: "أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ ، وَأَصْغَيْتَ" جمع لك ما جاء في قوله: ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله))، «أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ» أي مستعيناً به متوكلاً عليه ملتجئاً إليه طالباً مده وعونه وهدايته وتوفيقه، «وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ» أي بذلت الأسباب التي هي تعلم العلم الشرعي ودراسة العلم الشرعي والفقه في دين الله ، وملازمة القرآن والسنة علماً وتعلماً تلاوةً واستذكراً ومدارسةً «فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ» ؛ الخوف والحزن إذا جُمعا فإن: الحزن يتعلق بالشيء الماضي، والخوف يتعلق بالشيء المستقبل، فأنت إذا كنت على هذا الطريق ماضياً مستعيناً بالله عز وجل ومقبلاً على حُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ لا تخف ولا تحزن، وهذا هو شأن أهل الاستقامة الذين نُفِيَ عَنْهُمْ الخوف والحزن في آيتين من القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] أي أن أهل الإقبال على الله وحسن الالتجاء إليه وملازمة كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لا سبيل للشيطان عليهم ، ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بَصُوتُكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بَخِيلَكَ وَرَجَلَكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥].

قال: «وَالْعَامِيُّ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ»؛ الْعَامِيُّ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ الذي عرف التوحيد ولزمه يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وقد كانوا قديماً يلقنون العوام في المساجد التوحيد، ويلتزم إمام المسجد تلقين العوام توحيد الله، يلقنونهم التوحيد بحيث أن الإمام في كثير من الصلوات يسأل، يلتفت إلى أحدهم يقول: "اقرأ الدين"، فيبدأ يقرأ، يلقنونه، وإذا وجدوه غير حافظٍ يُعاودونه، كانوا يحفظونهم هذا في الصغر، يحفظونه العوام، فتجد أمور الدين الأصول الثابتة التي جمعها الشيخ رحمة الله عليه في كتاب سماه: «الأصول الثلاثة»، وهذه الأصول الثلاثة كتبها بعدة صِيغ: صيغة للأطفال ، وصيغة للعوام ، وصيغة لطلبة العلم، حتى إن الصيغة التي كتبها للعوام كتبها باللفظة العامية: "إذا قيل لك وش ريك؟ قل: ربي الله" بهذه الصيغة مكتوبة، ويحفظونها العوام؛ لكنهم يفهمون الدين، والذي حفظه في الصغر يكون في عمره الكبير ضابطاً له.

جَدِّي رحمة الله عليه كنت عنده قبل وفاته بأكثر من شهر، فقال: "الطواغيت كثيرون" وهو كبير في فراش المرض، قال: "الطواغيت كثيرون - لا كثرة الله - ورؤوسهم خمسة: أولهم إبليس عليه لعنة الله، وثانيهم كذا وبدأ يعدد، قال لي الخامس: نسيت، ذكرني إياه"، قلت له: "من عُبد من دون الله وهو راضٍ"، قال: "نعم، هذا طاغوت مُدْلَدَلٌ"، يعني مكشوف، الشيء المدلل: مكشوف من جميع الجهات واضح للناس من جميع الجهات . الحفظ هذا الذي في الصغر وتلقينه للعوام وغيرهم يبقى معه حتى وهو كبير، حتى إذا حُرِفَ وكَبُرَ تبقى هذه المحفوظات معه دين ثابت؛ لكن إذا كان مُهْمَلٌ لا يُعَلِّم ولا يُلَقِّن ولا يُدَرِّس تجد قلبه خاوي من هذه الأشياء وفارغ منها، بينما إذا حُفِّظَ لها ولُقِّنَ إياها وضبطها فمثل هؤلاء العوام بإذن الله يُحَفِّظُونَ بحفظ الله تبارك وتعالى من ضلالات المشركين؛ لأن معه دين يحفظه ويضبطه من صغره، ثابت عنده لا يُساوَم فيه ولا يُنَارَع ؛ أي أشياء ثابتة يحفظها ويحفظ شيء من أدلتها ولا يُنَارَع فيها ، يمشي عليها حياته كلها.

فهنا يقول: «وَالْعَامِيُّ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ» ؛ العوام الذين حفظوا الدين بتوفيق الله عز وجل وضبطوه وأصبح ديناً ثابتاً عندهم لا يُساوَمون عليه، إذا جاءه أحد من علماء المشركين ويُزِين له عبادة قبر أو توجهاً إلى ضريح، يقول له: "هذا من الطواغيت؛ من عُبد من دون الله وهو راضٍ، العبادة لله"؛ لكن إذا كان جاهلاً وَلُبَّسَ عليه ببعض الشبهات حرفته - والعياذ بالله - عن دين الله عز وجل.

قال: «وَالْعَامِيُّ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جُنَدَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾» [الصفات: ١٧٣] «وهنا ينبغي أن يلاحظ أيضاً تأييد الله لعبده المؤمن ونَصْرَه له ، من كان صادقاً في إيمانه وفي توحيده وفي عقيدته فإنه يحظى بإذن الله تبارك وتعالى بتأييد الله له وحَفْظَه له ونصره، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١]، فيؤيده الله وينصره ويحفظه، قال: ﴿وَإِنْ جُنَدَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ؛ لأن وليهم الله،

وأعداء الدين وليهم الشيطان، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ومن كان الله وليه كفاه وأيده ونصره ووقاه.
قال: «فَجُنِدُ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، كَمَا أَنَّ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالسِّيفِ وَالسِّنَانِ»؛ لأن معهم نصر الله وتأييد الله عز وجل وحفظه سبحانه.

قال مُحَذَّرًا رحمه الله تعالى: «وَأِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْأَلُكَ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ»؛ إِذَا الْعَامِي إِذَا حَقَّقَ الدِّينَ وَلَوْ شَيْءٌ مُّخْتَصَرٌ مِّثْلُ: «الْأَصُولُ الثَّلَاثَةُ» الَّتِي كَتَبَهَا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِلَهْجَةٍ مَبْسُوطَةٍ وَبِكَلِمَاتٍ مُّخْتَصَرَةٍ، إِذَا حَقَّقَ وَكُرِّرَتْ مَعَهُ وَأَصْبَحَتْ ثَابِتَةً عِنْدَهُ مَعَهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَدْلَةِ؛ فَيَاذَنُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَكُونُ سَبَبَ لِحَفْظِهِ وَسَلَامَتِهِ. وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْأَلُكَ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ؛ فَهَذَا فِيهِ تَحْذِيرٌ مِنَ التَّخْلِي عَنْ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ السِّلَاحُ.

«وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»، لاحظ هنا ملاحظة مهمة جدًا: خصوم الشيخ رحمه الله وأعداءه يزعمون ويدَّعون كثيرًا أنه جاء بدين خامس وبمذهبٍ جديد واخترع إلى آخره، ونحن نلاحظ الشيخ رحمه الله عليه في كل كتاباته لم يربط الناس بشيء اخترعه، ولم يربطهم بشيء أنشأه؛ وإنما كل ربطه لهم بالكتاب والسنة، الآن لما أكَّد على مسألة السلاح وأن الإنسان معه يكون سلاح، رأسًا ربط بالقرآن، ليكون معك سلاح، ما قال: "حافظ على مبادئنا -مثل بعض الطرق- ولا تضيع كلام أشياخنا، ولا تخرج عن رسومنا" إلى آخره هكذا يقول دعاة البدع، ما قال ذلك؛ لأنه ليس عنده شيء أنشأه هو، أما أولئك الأشياء التي عندهم هم أنشأوها أو أشياخهم؛ ولهذا وصاياهم ربط برسومهم وطرائقهم وأشياخهم ومبادئهم إلى غير ذلك.

فالشيخ هنا لما أوصى بحمل السلاح، لو كان يحمل مبدئًا أو يحمل أمرًا هو أنشأه أو اخترعه لقال في مثل هذا الموضع لما أوصى بحمل السلاح قال: «وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»، أي فحافظ على كتاب الله وحافظ على سنته نبيه صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا رأيت في هذا الكتاب وفي عامة كتبه لا يذكر شيئاً إلا ويُسَبِّغُهُ بِالْآيَةِ وَالْحَدِيثِ.

قال: «فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقِضُهَا وَيُبَيِّنُ بَطْلَانَهَا»، وهذا قاعدة تأصيل من هذا العالم المبارك؛ لَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقِضُهَا وَيُبَيِّنُ بَطْلَانَهَا، ما هناك شبهة تُثار يُناقَضُ بها التوحيد أو يُشَوِّشُ بها على أهل التوحيد إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها، لكن هل كل أحد يستحضر ذلك؟ حتى في الأشياء الواضحة قد لا يستحضر الإنسان.

أنا أريد أضرب لكم مثلاً: لقيت بعض الطلبة قديماً قبل أكثر من عشر سنوات في الجمهوريات الإسلامية؛ اذربيجان والمناطق التي هناك، فكنت معهم في بعض الدروس فذكرت لهم فائدة وقفت عليها في كتاب «الحُجَّة» للتيمي؛ وهي أن أحد الملاحدة جاء أمام بعض المسلمين وقال: "أنا أخلق! ليس الله وحده الذي يخلق، أنا أخلق!"، وأتى بزجاجة وضع فيها بعض الأشياء المتعفنة من اللحم أو غيره وأحكم إغلاقها، وقال: "أحضروها لي بعد ثلاث أيام"، فجيء بها فإذا هي ممتلئة دوداً، فقال: "أنا الذي خلقت هذا الدود، أنا الذي أوجدته"، فكان أحد الحاضرين - كما ذكر التيمي في (الحُجَّة) - وهو أصغر من في المجلس، قال: "لم يكن أحدٌ لِيُخْلُقَ إلا ويعلم عدد ما خلق، وذكورهم من إناثهم، وأرزاقهم، وآجالهم، فأين لنا ذلك كله!!"، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [سك: ١٤] ، فالخالق يعلم، من لوازم الخلق أن يعلم بمخلوقاته، أما يخلق ولا يعلم ما يمكن!، فأين لنا ذلك؟ كم عدد مخلوقاتك؟ السؤال الأول، كم عدد الذكور من الإناث؟ كل واحدة من هذه الدود متى تموت؟ كل واحدة من هذه الدود ما هي أرزاقها وأقواتها؟ ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

ذكرت هذه الفائدة في أحد الدروس - وهذا موضع الشاهد - فجاءني أحد الطلبة يُعْظِم هذه الفائدة تعظيماً ما سمعته، تعظيم شديد، "سبحان الله ما أعظم هذا الكلام!" مشدوداً! قال: "هذا أحد الشيوعيين فعله عندنا في الفصل!" يقول: "ونحن نعرف أنه خطأ؛ لكن ما هُدينا لهذا"، يقول: "ليتني عرفت هذا الكلام حتى أقوله" . إذاً الحجة موجودة، قد تكون تحفظ أنت الآية حفظاً متقناً؛ لكن ما يحضرك الاستدلال بها، ومعرفة دلالتها، ولهذا يقول الشيخ : «فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقِضُهَا وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا» ما الدليل؟ الشيخ لا يذكر شيء إلا بدليله.

قال: كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]؛ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بِحُجَّةٍ أو بشبهة أو نحو ذلك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، قال ابن القيم رحمه الله : «الحق: هو المعنى المدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق فهي تفسيره وبيانه ، وهذا كله في كتاب الله عز وجل» قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بحجة أو بشبهة أو نحو ذلك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ . فإذا القرآن كفيلاً بإبطال شبهات المبطلين وأضاليل المضلين، وهذا يقوله الشيخ رحمه الله لك حتى تعني بالقرآن، ليس المراد بالعناية بالقرآن حفظ حروفه؛ بل المراد مع الحفظ الفهم ؛ فهم معانيه ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال أهل العلم: لا يكون تَأْلِيّاً له حق التلاوة إلا بالحفظ والفهم والعمل ؛ بهذه الأمور الثلاثة.

«قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ؛ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله التزم مع خصومه -مع أعداء التوحيد وأعداء الإيمان- أن لا يحتجوا على باطلهم بآية من القرآن إلا ويرد عليهم بالآية نفسها التي احتجوا بها، قال: أنا ملتزم أن أي مبطل يحتج على باطله بآية من القرآن أن أرد عليه بالآية نفسها، غير الآيات الأخرى الكثيرة ؛ لكن التزم التزاماً أن أي مُبطلٍ يحتج بآية على باطله بآية من القرآن أن يرد عليه بالآية نفسها ، وأن يبين بطلان ما هو عليه بالآية نفسها.

ومن تطبيقه العملي لهذا الأمر في صغره رحمه الله: أنه لقي أحد المتصوفة، وقال ذاك المتصوف: "إن من أسماء الله (هُوَ)"، قال: "دليل ذلك في القرآن قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧٠]"، قال: "وما يعلم تأويل (هو) إلا الله"؛ قال : يعني لا يعلم تأويل اسم الله (هو) -هذا فهم الصوفي- لا يعلم تأويل اسم الله (هو) إلا الله " فيقول: (هُوَ) اسم من أسماء الله، قال : فقلت له : «لو كان الأمر كما تقول لرسمت (هُوَ) بالواو ليس بالهاء»؛ لأن هذا رسمها، (هو): هكذا تُرسم: ها واو، قال: "لو كان الأمر كما تقول لرسمت بالواو"؛ فأبطل قوله بالآية نفسها، وهو ملتزم رحمه الله هذا الالتزام أنه لا يستدل مبطل على باطله بآية من القرآن إلا يُرد عليه بالآية نفسها، فضلاً عن الآيات الأخرى.

ثم إنه فيما بعد التزم التزاماً آخر مع المتكلمين أنهم لا يتحجون على باطلهم بحجة عقلية إلا ردّ عليهم باطلهم بالحجة نفسها، والتزم هذا الالتزام لأن العقل الصحيح لا يدل إلا على حق، فإذا قالوا شيئاً يحتجون عليه بالعقل يُبين لهم بالعقل من خلال الاحتجاج نفسه أنه أمرٌ باطل ولا يستقيم.

«قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» .

ثم بعد ذلك دخل رحمه الله تعالى بعد أن مهّد بهذه التمهيدات دخل في أساس الموضوع وهو (كشف الشبهات). وكان في طريقته رحمه الله تعالى في كشف الشبهات أن ذكر أولاً إجابة مُجَمَّلة في رد كل شبهة ، ثم ضرب أمثلة لبعض الشبه التفصيلية وأجاب عنها تفصيلاً ، ويكون الكتاب بإذن الله تبارك وتعالى سلاحاً عظيماً لطالب العلم في باب الشبهات ، ولا يكون هذا سلاحاً لك إلا إذا ضبطت هذه المقدمات التي انتهت ضبطاً مُتَقَنّاً وعرفتها وعرفت دلائلها، ثم عرفت الجواب المجمل أيضاً وتضبطه ضبطاً جيداً، ثم بعد ذلك الأجوبة التفصيلية، وهذه كثيرة جداً قد لا يتهيأ لك العلم بكل التفاصيل؛ لكنك إذا أخذت أمثلة من التفاصيل وطريقة أهل العلم في الإجابة عليها تُصبح معك سلاح بإذن الله تبارك وتعالى تقطع به دابر كل مبطل . جعلكم الله أجمعين من أنصار دينه وحماة التوحيد .

والله أعلم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له في كتابه «كشف الشبهات»:

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا؛ فنقول: جوابُ أهلِ الباطلِ من طريقتين: مُجْمَلٍ ، ومفصلٍ. أما المجمل: فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] . وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم)).

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى بعد مقدماتٍ تمهيدية عظيمة صدرَ بها كتابه المبارك «كشف الشبهات»، بعد تلك المقدمات التي لا بد منها في هذا الباب شرع في مقصود الكتاب وهو كشف الشبهات، بأن يذكر الشبهة ويبيِّن ما يكشفها ويُعَرِّبُها ويبيِّن زيفها ووهاءها، وأنها لا تقوم إلا على الباطل، ولا تُفْضِي إلا إلى الباطل.

ولعلك أيها الأخ الموفق عرفتَ بتلك المقدمات التي بدأ بها الشيخ أنَّ الجانب التأصيلي في طالب العلم -أعني فهمه للعقيدة ودلائلها وبراهينها من كتاب الله عز وجل ووضوح أمرها عنده- هو الأساس الذي لا بد منه، وإن لم يكن عند طالب العلم أصول ثابتة وأمور راسخة يقوم عليها دينه وإيمانه وتوحيده فإن الشبهات تُؤثر عليه وتدخل عليه، وربما أثرت في نفسه؛ ولهذا كان كتاب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي عنوانه «كشف الشبهات» ؛ ولعلك لو كنت تقرأ هذا الكتاب لأول مرة تتوقع أن مُصنِّفه من أول ما يبدأ في كتابه يُعدد الشبهات ويحجب عليها، وتظن أن هذا الذي سيصادفك في الكتاب من أول وهلة؛ ولكن الشيخ رحمه الله تعالى عليه لحصافة علمه وحُسن نصحه وتمام بيانه وحسن درايته في هذا الباب العظيم ودخوله في المعترك مع خصوم التوحيد وأعداء العقيدة؛ قرَّر لك في بداية الكتاب جملةً من الأصول والقواعد والأسس التي لا بد من ضبطها، وكان يُنبِّه رحمه الله تعالى عليه على أنَّ هذه الأمور لا بد أن تعرفها معرفة قلب .

ولعلك تنبهت لنصحه الذي تكرر معك فيما تقدم من كتابه رحمه الله؛ حيث يقول تارة: «إذا تحققت من ذلك»، وتارة يقول: «إذا عرفته معرفة قلبٍ»، إلى غير ذلك من أنواع التأكيدات وصيغ العناية والاهتمام التي مرّت معنا في مقدمة هذا الكتاب؛ كل ذلكم يُؤكّد أنّ طالب العلم لابد له في باب كشف الشبهات وتعرية الباطل أن يكون على قدرٍ من الإمام بأصول الدين وقواعده ودلائله؛ فيبدأ مؤصّلاً نفسه بفهم الحق وضبطه ومعرفة دلائله وحُججه وبراهينه، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرحلةٍ أخرى تتعلق بكشف الشبهة وبيان عَوَارِها . وعندما يدخل طالب العلم دخولاً أولياً في باب الشبهات والنظر فيها ومحاولة كشفها فإنّه يُضِرُّ بنفسه من حيث يشعر أو من حيث لا يشعر، وليست هذه هي جادة أهل العلم.

ثم إنّ الشيخ رحمه الله لما بدأ بموضوع الكتاب ألا وهو «كشف الشبهات» ودخل في صميم الموضوع؛ بدأ بقوله هنا: «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا»؛ وهذا أيضاً من دقّة الشيخ رحمه الله، فالاهتمام كما تلاحظ بالقرآن، والاحتفاء بالقرآن وأدلة القرآن لا بالشبهات.

ولعلك تتصور -والموضوع في كشف الشبهات- أنه إذا بدأ في صميم الموضوع أن يقول لك: "وأنا أذكر لك بعض الشبهات وأذكر جوابها من القرآن"؛ لم يقل ذلك، وهذا من دقّة علمه وحُسن التفاته إلى كتاب الله عز وجل واحتفائه بالأدلة وعنايته بها . فرقٌ بين العبارتين، فرقٌ بين قوله رحمة الله تعالى عليه «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا» ، فرقٌ بين هذه العبارة وبين أن يقول القائل: "وأنا أذكر لك شبهاتٍ قالها المشركون في زماننا وأذكر لك أدلة من القرآن تكشف زيفها أو تُبيّن وهاءها"، فرقٌ بين العبارتين.

والشيخ رحمة الله تعالى عليه لما ذكر لك هذا البدء بهذا الأسلوب يُنبهك تنبيهاً في غاية الأهمية ألا وهو : أن يكون اهتمامك من حيث الضبط والإتقان هو بالأجوبة التي هي من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهذه التي عليك أن تعني بضبطها وإتقانها والاهتمام بها ، أما الشبهة إياك أن تحاول أن تُمكنها من قلبك؛ لأنها قد تتمكن من القلب ولا تخرج ، فإذا نظرت في الشبهة أو اضطرت إلى النظر في الشبهة لا تجعل قلبك يمتص الشبهة، ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله كلاماً معناه: ما نفني الله بشيء نفني بوصية أوصاني بها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: «اجعل قلبك للشبهة كالمرآة، ولا تجعل قلبك للشبهة كالإسفنجة»، ومن المعلوم أن الإسفنجة تشرب الماء وتمتصه ويكون الماء واصلًا إلى كل جزء من أجزائها، بينما المرآة تعكس الشيء ولا تمتصه ولا يصل إلى داخلها وإنما تعكسه عكسًا مباشرًا، فقال: «اجعل قلبك للشبهة كالمرآة، ولا تجعل قلبك للشبهة كالإسفنجة».

وهذا البدء من الشيخ رحمة الله عليه هنا ينبهك إلى أن الاهتمام هو بضبط الأدلة؛ فأنت الآن وأنت تقرأ ما سيأتي اهتم من حيث الضبط والإتقان والعناية والاهتمام بالأدلة، وليكن نظرك لهذه الشبهات النظر السريع الذي تعرف

وجه بطلانه؛ لأنك قد تحتاج يومًا من الأيام بأن تُثار في مجلس تكون حاضره أو في موطنٍ أنت لك شأنٌ فيه أو نحو ذلك فتحتاج إلى هذه الأجوبة.

قال: «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه»، وتقديم «الكتاب» هنا من باب تقديم ما حقه التقديم وما حقه العناية والاهتمام، وهذا كما قدّمت من حصافة علمه وجميل نصحه وحسن بيانه رحمه الله وغفر له وأسكنه الجنة.

قال: «جواباً لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا»؛ الشيخ رحمة الله عليه لما انتدب بعون الله ومده وتوفيقه لنصرة التوحيد وبيانه تصدى له عبّاد القبور وأهل الشرك والضلال وأخذوا يصفونه بالصفات ويتهمون به بالاتهامات ويثيرون حوله الدعايات المغرضة حتى لا يسمع له أحد، وهذه الطريقة التي صنعها أعداء التوحيد معه هي صنيع أعداء التوحيد وأعداء الأنبياء في قديم الزمان، فكانت طريقتهم إثارة الدعايات والاتهامات وإلقاء الكلام جُزأً، نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل عباد الله أُنهم بأنه ساحر وبأنه كاهن وبأنه شاعر وبأنه مجنون، وكان الغرض من إثارة هذه الاتهامات حتى ينفض الناس عنه ولا يسمعو إلى كلامه، فالشيخ رحمة الله عليه في زمانه بُلي بأعداء كانوا يُشكِّكون في دعوته ، ويثيرون شبهات حول أدلة التوحيد التي يُبرزها ويُبينها ويدعو إليها رحمة الله عليه، وكان حصيلة دخوله هذا المعترك والخصومة مع أعداء التوحيد والمناقشات والردود أن أعطاك هذه العُصارة والخلاصة العظيمة التي هي أعظم سلاحٍ لطالب العلم في باب كشف الشبهات وتعرية الباطل؛ وذلك لأن الشبهات التي أجاب عنها الشيخ رحمة الله عليه بالأجوبة المسددة في هذا الكتاب المبارك هي أبرز الشبهات التي أُثيرت ولا تزال تُثار من أهل البدع والأهواء.

وأريد أن أنبهك على أمرٍ ألا وهو: أنك إذا ضبطت أجوبة الشيخ رحمة الله عليه الآتية، سواء منها الجواب المجمل وهو الأهم والأعظم، ثم الأجوبة التفصيلية، فإنه بإذن الله تبارك وتعالى سيكون ما بعد هذه الشبهات أمرها أيسر، وسيكون في الأجوبة التي تمر عليك تقعيداً لك في رد كل شبهة بإذن الله تبارك وتعالى ، أقول ذلك استدعاءً لاهتمامك بأجوبة الشيخ رحمه الله المسددة الآتية في هذا الكتاب المبارك.

قال رحمه الله: «فنقول: جوابُ أهلِ الباطلِ من طريقين: مُجْمَلٍ ومَفْصَّلٍ» جواب أهل الباطل: أي فيما يثيرونه من شبهاتٍ على التوحيد والدعوة إليه، والتحذير من الشرك والخرافة والباطل؛ من طريقين: طريقٍ مجمل، وطريقٍ مفصل.

ويعني رحمه الله بالجواب المجمل: ذكر تقعيدٍ عام وتأصيلٍ كلي يفيدك في الجواب على أي شبهة تُثار ضد التوحيد، هذا هو الجواب المجمل؛ ولهذا أكّد الشيخ رحمه الله تأكيداً قوياً على ضبط الجواب المجمل والعناية به وحسن فهمه؛ لأنه بمثابة التأصيل العام والتقعيد الكلي الذي إذا ضبطته فإنك بإذن الله تبارك وتعالى تستطيع أن تُجيب به على أي شبهةٍ يثيرها مُشرك.

بدء بالجواب المجلد وأكد على الاهتمام به بقوله: «فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها»؛ فمن عقل هذه الإجابة المجلدة التي تصلح جواباً لكل شبهة تُثار ضد التوحيد فهي الفائدة الكبيرة والعظيمة بالنسبة له.

قال: «وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾» [آل عمران: ٧]، سيأتي تقرير الشيخ للجواب في ضوء هذه الآية؛ لكن أبين أولاً شيئاً من معاني هذه الآية المباركة ودلالاتها.

قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾؛ قَسَمَ تبارك وتعالى دلالات أي الكتاب أي القرآن إلى قسمين، قَسَمَ الأدلة السمعية إلى قسمين: مُحْكَم، ومُتَشَابِه. فأخبر عز وجل أن كتابه القرآن الكريم ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾، والمراد بالإحكام هنا: الوضوح؛ وضوح الدلالة وظهورها وبيانها وعدم خفائها، ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أي: بَيِّنَات واضحات جليّات دلالاتها ظاهرات.

قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وأم الشيء أصله الذي عليه يُبنى وإليه يُرجع وعليه يُعَوَّل، قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي الآيات المحكمات هنَّ أم الكتاب: أي هنَّ الأصل وهنَّ المرجع وعليهنَّ المعوَّل، قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، والآيات المحكمات واجبتا نحوها أن نؤمن بها وأنها من عند الله عز وجل، وأن نفهمها ونعني دلالاتها، وأن نعمل بها؛ هذا واجبتا نحوها.

قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، وأُخَرُ أي من آيات القرآن شأنها أنها متشابهة، والتشابه المراد به: خفاء المعنى وعدم ظهوره لكل أحد، هذا هو المراد بالتشابه هنا؛ أي أن المعنى فيها ليس ظاهراً بيّناً، بل فيه شيء من الخفاء وعدم الظهور، ولهذا فإنَّ المتشابه تشابه المعنى من آيات الكتاب لا يظهر معناه واضحاً إلا للراسخين في العلم الذين طريقتهم ومن رسوخهم في العلم ردّوا متشابه أي القرآن إلى مُحْكَمِهِ، لهذا قال الله تبارك وتعالى في تمام الآية: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

والمراد بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ على قول لأهل العلم وهو على قراءة الوصل في الآية: أي لا يعلم معناه وتفسيره إلا الله والراسخون في العلم؛ أي أنّ الراسخين في العلم يعلمون معنى المتشابه لرسوخهم في العلم، ولهذا جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» أي تأويل المتشابه؛ وعليه فإنَّ قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ التشابه هنا في المعنى، وهو ليس تشابهاً مُطلقاً كلياً

بحيث لا أحد يفهمه؛ حاشا أن يكون كلام الله سبحانه وتعالى فيه طلاس لا تفهم وأمر لا يُدرى ما هي؛ بل المتشابه هنا هو التشابه النسبي وليس المطلق في المعنى.

أما إذا أُريدَ بالتشابه من حيث الحقيقة -وهذا في قول لتفسير الآية من حيث الحقيقة والكيفية- فهو تشابه كلي لا يعلمه إلا الله، فالكيفيات الأمور المعيّنة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، وهنا يلزم الوقف في القراءة، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ تقف هنا إذا كان المراد بالتشابه: التشابه من حيث الحقيقة والكيفية فهذا أمر لا يعلمها إلا الله.

أما من حيث المعنى؛ معاني القرآن فإن الآيات المتشابهات يعلم الراسخون في العلم معانيها، وقد قال مجاهد: «قرأت القرآن كله على ابن عباس أقفه عند كل آية أسأله عن معناها».

قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُشَابِهَاتٌ﴾؛ الآيات المتشابهات ما هو واجبنا نحوها نحن طلاب العلم؟ ما واجبنا نحو الآيات المتشابهات؟ وقد عرفنا قريباً الواجب نحو الآيات المحكمات.

الآيات المتشابهات يجب علينا نحوها أمران:

● الأمر الأول: أن نؤمن أنها من عند الله، ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ نؤمن أنها من عند الله وأنها كلامه وتنزيله تبارك وتعالى.

● والأمر الثاني: أن نتبع المحكم من أي القرآن الكريم ونرد إليه ما تشابه علينا من أي القرآن.

لماذا؟ لأن الله قال عن الآيات المحكمات: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وأم الشيء أصله الذي إليه يُرجع وعليه يُعَوَّل، ففرد ما تشابه من أي القرآن علينا إلى المحكم من أي القرآن، وبهذا يكون الإهتداء، وهذه طريقة أهل الحق وأهل العلم مع الآيات المتشابهات؛ إذا تشابهت على الإنسان آية في كتاب الله عز وجل رأساً يُعيدها إلى الآية المحكمة والنصوص المحكمة التي ظاهراً دلالتها وظاهر الحكم منها ومتقرر واضح بين، فإذا تشابه عند الإنسان شيء من الآيات أعاده للمحكم وحينئذ يتبين الأمر.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً في رد التشابه إلى المحكم فيزول الالتباس ويذهب الاشتباه ويتضح الأمر، وأضرب على ذلك مثلاً واحداً وسيأتي أمثلة؛ لكنني أضرب مثلاً في باب آخر غير باب توحيد العبادة ثم ننقل إلى المثال الذي ضربه الشيخ رحمه الله في توحيد العبادة. والمثال أضربه من خلال قصة حصلت من أحد رؤوس المعتزلة وكبارهم ألا وهو بشر بن غياث المريسي وهو رأس من رؤوس الاعتزال، ذكر عنه ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» وغيره من أهل العلم أنه مرة كان في مجلس -ومن طريقة هؤلاء المتكلمين كثرة التشكيك وإثارة الشبهات والإكثار من طرحها حتى يتشوش على الناس أمرهم في عقائدهم وأديانهم- فقال بشر في مجلس يحضره جماعة من الناس: "إذا وقفت أمام الله يوم القيامة فسأقول له: إن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، فإن قال لي: وما حملك على ذلك يا بشر؟ أقول له: أنت قلت ذلك في القرآن الكريم"، وهذا كما تلاحظون فيه فُبح وإسفاف في الطرح وإثارة

الشبهات وجرأة قبيحة جدًا، قال: "إذا قال لي: وما حملك على ذلك يا بشر؟ أقول له: أنت قلت ذلك في القرآن الكريم، فإن قال: وأين ذلك؟ أقول له: أنت قلت في القرآن ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]"، إلى هذا الحد عندما يُطرح مثل هذا الكلام على عوام الناس وجُهاً لهم تُؤثّر فيهم ، مثل إثارة هذا المعنى في مثل هذه الآية التي يشتبه معناها على كثير من الناس، ولما كان المعنى مشتبهًا على كثير من الناس ولم يُوقفوا لردّها إلى المحكم من آي القرآن تجد أن هذه الآية أبرز ما يحتج به الخوارج والمعتزلة في عقيدتهم ، والسبب إتباع المتشابه وترك المحكم، فكان في المجلس شاب اسمه أنس وهو أصغر من في المجلس فقال وأجرى الله عز وجل الجواب المسدّد على لسانه، قال: "فإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]" وقد شئت أن أغفر له، فماذا تقول؟"، لاحظتم الجواب! رد هذه الآية المتشابه معناها إلى الآية المحكّمة، قال: "فإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني دون الشرك ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لأن الله عز وجل جعل كل أمرٍ دون الشرك تحت مشيئته، وقد شئت أن أغفر له، فماذا تقول؟" فُبُهِت! ولم يحر جوابًا.

وأزيدكم هنا أنّ الآية التي هي مثار الشبهة عند القوم وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هي في سورة النساء ومسبوقة وملحوقه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، جاء في سورة النساء قبل هذه الآية بآيات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وجاء بعدها بآيات في سورة النساء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] ، ويأتي هؤلاء الخوارج والمعتزلة إلى هذه الآية في أثناء السورة ويتركون ما قبلها وما بعدها من الآي المحكم الذي يوضح معناها!! مما يدل على أنهم أصحاب أهواء، وإلا لو كان صاحب حق لمّر في طريقه وهو يقرأ سورة النساء قبل أن يصل إلى هذه الآية إلى آية مُحكّمة في الباب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، وإذا فرغ من قراءة هذه الآية التي ثارت عنده الشبهة فيها سيأتي بعدها بآيات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ، أليس واضحًا بيّنًا أن قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ داخلٌ تحت قوله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أو ليس واضحًا؟ واضح؛ لأنه دون الشرك ، وما دون الشرك تحت المشيئة جعله رب العالمين ، فلماذا نجزم نحن في أمرٍ جعله الله رب العالمين تحت المشيئة نجزم جزمًا أنه ليس تحت المشيئة وأنه لا بد من الخلود؟! وبهذا يتضح لك أنّ ما تشابه على الإنسان من الآيات أو من الأحاديث مثل حديث: ((مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ

فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا)) هذا الحديث تردُّه إلى المحكم من القرآن الكريم يتضح لك الأمر ويستبين.

فإذاً طريقة أهل العلم هي: رد ما تشابه من النصوص إلى المحكم منها؛ فيزول الاشتباه. وطريقة أهل الزيغ: إتباع المتشابه وترك المحكم، يتركون المحكم ولا يلتفتون إليه ولا يُعَوِّلون عليه ويتبعون المتشابه.

قال: ﴿وَأَخْرُ مِثَابَاتُ﴾، ثم ذكر جل وعلا منهجين للناس؛ قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي انحراف، الزيغ: هو الانحراف والعدول عن الحادَّة السويَّة والسَّنة القويم.

قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾، ﴿مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي من آيات القرآن، يتبعون الآيات المتشابهات، لماذا؟، ما السبب؟، لأجل ماذا؟

قال: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾؛ ابْتِغَاءُ الْفِتْنَةِ: أي طلباً لإثارة الفتنة، أي الفتنة على الناس في دينهم وعقائدهم وإيمانهم وتوحيدهم، تشكيكاً وإثارةً للشبهات والشكوك تلبساً على الناس، ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾: أي فتنة الناس في دينهم وإيمانهم.

﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: أي تأويل القرآن بصرفه عن معناه ومقصود القرآن ومراده إلى أهوائهم وعقائدهم وآرائهم وتصوراتهم، ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: أي صرفه عن ظاهره إلى ما يريدونه وما تقرر عندهم بسبب الأهواء؛ ولهذا قالوا عن أهل البدع والأهواء أنهم أولاً يعتقدون ثم يستدلون، وعندما يعتقد أولاً ثم يستدل ثانياً يبدأ بهذه الطريقة بيتغي تأويل القرآن بحيث يكون موافقاً لما يهوى، وموافقاً لما يعتقد بالبحث عن مُستكره التأويلات وغريب اللغات ووخشي اللغات؛ حتى يجعل آيات القرآن أو يُطَوِّع آيات القرآن لتكون دالة على ما يعتقد؛ هذه طريقة أهل الزيغ. قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾، ما المراد بتأويله هنا؟ ﴿تَأْوِيلُهُ﴾ هنا على ما سبق أن بيَّنت تحتمل أحد أمرين:

١- ﴿تَأْوِيلُهُ﴾: أي معناه؛ وهذا إذا قُصِدَ بالمتشابه فيما تقدم أي من حيث المعنى، وعليه فإنه يجوز الوصل، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون معناه، وقد نقلت لكم كلام ابن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن وخبر الأمة في هذا الأمر.

٢- ويحتمل أن ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ المراد به: حقيقته وما يؤول إليه، وهذا أمرٌ لا يعلمه إلا الله. إذا أُريدَ بالمتشابه: الحقيقة والكُنْه والكيفية، فهذا أمرٌ لا يعلمه إلا الله. والتأويل: تارة يُراد به التفسير، وتارة يُراد به حقيقة الشيء وما يؤول إليه.

قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ على القول الأول: لا يعلم معناه -أي معنى المتشابه- إلا الله ، ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي الراسخون في العلم يعلمون معناه. وطريقة الراسخين في العلم تجاه المتشابه: أنهم يؤمنون به أنه من عند الله، ويردونه إلى المحكم، على خلاف طريقة أهل الزيغ.

قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ كله حق، وكله من الله، وليس في القرآن تناقض ولا اضطراب، ﴿وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولا يستقيم الأمر للإنسان في هذا الباب إلا إذا كان على هذا النهج ؛ يرد المتشابه من آي القرآن إلى المحكم. أما إذا كان بمعزل عن آيات القرآن ودلالاته، ويجتزئ من النصوص أشياء يُشبه بها على الناس فهذه طريقة أهل الزيغ، مثل طريقة الجهمية الذين يقولون الله في كل مكان، يقرأون مستدلين على قولهم "إن الله في كل مكان"، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. وابن القيم رحمه الله يقول:

يا قومنا والله إنا لقولنا ألفاً تدلُّ عليه ؛ بل ألفان

يعني الآيات التي في القرآن والأحاديث التي بالسنة التي تدل على علو الله ليست مئة ولا مئات ولا ألف؛ بل بالآلاف، تُترك هذه الآيات الواضحات البينات المحكمات والأحاديث الواضحات ثم يأتي إلى جزء من آية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ويحتج به على أن الله في كل مكان!! هل هذه طريقة أهل العلم؟ حاشا والله. ولهذا الإمام أحمد رحمه الله لما أراد أن يرد عليهم، ماذا قال؟ قال: «بدأ الله الخبر بالعلم، وختم الخبر بالعلم»، يعني هذا السياق في العلم، لكن القوم لا يقرأون النصوص كاملة؛ بل يجتزؤون من وسط النصوص آية، أو من وسط الآية جزء آية، ولعله ظهر لكم مثالان على ذلك ، إما أن يجتزأ من وسط الآية جزء آية، أو يجتزأ من الآيات آية مع أن السياق بتمامه يُوضح المعنى ويبيّنه. فإذاً طريقة أهل الرسوخ وأهل العلم رد المتشابه إلى المحكم.

نأتي الآن إلى موضوعنا: موضوع توحيد العبادة ؛ الشيخ يُنبهك هنا - كما سيأتي في كلامه رحمه الله - أنه يجب أن يكون راسخاً في قلبك ثابتاً عندك أن العبادة حق لله، وأن الله خلقك لتوحيده لتُفرده بالعبادة، واحفظ على هذا الأصل طرفاً من الأدلة، وهذا أمرٌ مُحكم، العبادة حق لله، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، ﴿وَالَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ [فاطر: ١٣]، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٢٢]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الأحقاف: ٥]، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي تجعل الأمر مُحْكَمًا بَيِّنًا ظاهرًا عندك أن العبادة حق لله، ليس لله تبارك وتعالى شريك فيها.

فإذا رسخ الأمر وظهر وضبطته بأدلته، إذا جاءك إنسان بآية أو بحديث يُريد من خلاله أن يقرر لك أنه يسوغ أن يدعى غير الله، فهذا الآن يُنازعك في أصل راسخ، ويأتيك بأمر قد يكون مشتبهاً عليك ولا يكون مشتبهاً على أهل العلم، قد يكون مشتبهاً عليك؛ لكن إذا ضبطت هذا الأصل المحكم وأتقنته إذا أثار عندك شيئاً من هذه الشبهات أعدته إلى المحكم، وإذا لم يكن عندك جواب حاضر تفصيلي على الآية المعينة التي ذكرها أو الحديث المعين الذي ذكره تكفي بجوابه المجمال وإعادته إلى المحكم، وتقول له: "أما جوابك التفصيلي على شبهتك هذه فتجده عند أهل العلم الراسخين، أما أنا لا أقبل كلامك، وأعتقد تماماً أن كلامك باطل وأنت على ضلال، وهذا هو المحكم من آيات القرآن تدل على بطلان هذا الأمر الذي أنت عليه"، فرددت ما تشابه عليك وعليه أو ما تشابه عليه وواضح لك ولكن لا تعرف عليه جواباً تفصيلياً رددته إلى المحكم.

فإذاً الجواب المجمال أن يكون راسخاً عندك في هذا الباب الأمر المحكم في أمور الاعتقاد بأدلتها؛ فإذا ما أثبتت شبهة رددت المتشابه إلى المحكم، وبهذا يكون الجواب الإجمالي على تفاصيل فيه يأتي تقريرها عند الشيخ رحمه الله تعالى.

لما أورد رحمه الله الآية قال بعدها: «وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم))»، انتبه هنا -رعاك الله- إلى قول نبينا عليه الصلاة والسلام: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه))، وهذا آية من آيات النبوة، أنه سيوجد في أمته عليه الصلاة والسلام أقوام شأهم ما هو؟ اتباع المتشابه، وفي الوقت نفسه نصح عليه الصلاة والسلام وهو الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه في الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان نحو هؤلاء.

قال: ((إذا رأيتم)) يعني إذا ابتليتم بمن هذا شأهم، ((الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله)): أين سماهم؟ بقوله جل وعز: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَنَجٌ﴾، بهذا سماهم الله، قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَنَجٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾، ((فأولئك الذين سمي الله)) أي في هذه الآية، قال: ((فاحذروهم)) أي إياكم وإياهم،

اجتنبوا عنهم، ابتعدوا عنهم، ((من سمع بالدجال فليأمنه))، هنا قال: ((فاحذروهم)) أي ابتعدوا عنهم، احذروا من الإصغاء إليهم، والركون إلى شبهاتهم، واستماع زخرفتهم للقول وتزيين العبارات وتنميق الكلمات، احذروهم، وإن لم يعمل المسلم بهذه النصيحة التي نصح بها النبي عليه الصلاة والسلام يورط نفسه، قال: ((فاحذروهم)) أي: كونوا منهم على حذر.

ومراد الشيخ رحمه الله تبارك وتعالى بذكر الحديث بعد الآية أن ينبهك يا طالب العلم لتكون على حذر من أهل الشبهات. والآن في زماننا وقد عاينث من هذا الصنف كثيراً من الشباب ومن تلوثت بعضهم ببعض الأفكار السيئة والشبهات المردية، والسبب عدم عملهم بهذه النصيحة النبوية: ((فاحذروهم))؛ تجد الشاب خلو من العلم ثم من باب ما يُسمى حب الاطلاع والفضول يبدأ يدخل على ما يقوله الجهمية وما يقوله الرافضة وما يقوله المتصوفة، يقول: "أريد أن أرى ماذا عندهم" ويدخل في المواقع، ويدخل في القنوات، ويدخل ثم يُفاجئ بعد فترة من الزمان وإذا عقله وفكره مُلوث، ويؤد أن يتخلص من تلك الشبهات فلم يستطع؛ بل بعضهم يكون لا علم عنده ويأتي إلى بعض كبار هؤلاء المبطلة وهو بزعمه يريد أن يناقشه وينظره ويبطل ما عليه من باطل، ثم يُفاجئ أنه خرج وقد ابتلي ببعض الشبهات التي استقرت في قلبه، ومتى يتخلص منها؟! . فهذه نصيحة مهمة وعظيمة يجب أن تكون عند طالب العلم الذي يريد حفظ إيمانه ودينه، قال: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم)) أي كونوا منهم على حذر.

وكأني بالشيخ رحمه الله تعالى يريد أن يؤكد عليك ألا تحتفي بالشبهات؛ احتفاؤك بالقرآن، بالآيات، بالأدلة، بالحجج، بالبراهين؛ بكلام أهل العلم الراسخين، والشبه إذا عرضت لك دون طلب منك لها وبحث عنها فردّها إن كنت ذا علم تفصيلي بجواب تفصيلي، وإن كنت لست على علم تفصيلي فردّها بالجواب المحكم وبالجواب المجمل مباشرة ولا تقف مع تفاصيل صاحب الشبهة.

قال: «مثال ذلك»، الإشارة في «ذلك» إلى ماذا؟ الجواب المجمل، "مثال ذلك": أي مثال الإجابة المجملّة لبعض شبهات المشركين.

قال: «إذا قال لك بعض المشركين ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]»، يقولون لك: "لا تؤمنون بالأولياء، بمكانة الأولياء؟، هذه آية في كتاب الله عز وجل فيها ثناء الله على أوليائه وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هذا يدل على مكانة الأولياء، أنتم لا تعرفون قدر الأولياء ولا مكانة الأولياء، ولا ما خصّ الله عز وجل به أوليائه من الفضائل، ويريد أن يصل بك من خلال هذه الآية إلى تعظيم الأولياء تعظيماً لا يليق إلا برب الأولياء سبحانه جل وعلا، فيبدأ من خلال هذه الآية ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وربما استشهد كثير منهم بقصصٍ يختلقونها "نحن نعرف السيد فلان، والولي الفلاني عنده قدرة على

التأثير، وعنده كذا، وعنده كذا، وشاهدنا، وعائنا، وجربنا... إلى آخره، فأنتم لا تعرفون قدر الأولياء، ولا تعرفون مكانة الأولياء، ولا تعرفون منزلة الأولياء، وجاههم عند الله، والأولياء من شأنهم، ومن شأنهم"، وهكذا يُثير هؤلاء هذه الشبهة.

فقال: «إذا قال لك بعض المشركين ﴿الْإِنِّى أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»، أمر آخر أيضاً: «أو أن الشفاعة حق»، يقول لك: "هل تنكر الشفاعة؟ النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح قال: ((أُعْطِيتِ الشَّفَاعَةَ))، كيف تنكرونها؟! الشفاعة حق وثابتة، والأدلة عليها كثيرة، والنبي صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع، والأدلة في القرآن وفي السنة على ثبوتها كثيرة، هل تنكرون الشفاعة؟ لا تؤمنون بها؟".

وإذا أيضاً قال لك: «أو أن الأنبياء لهم جاه عند الله»، الله عز وجل قال عن عيسى: ﴿وَجِئْنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقال عن موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ونبينا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين جاهاه عند الله أعظم جاها، ومنزلته أعظم منزلة، ألا تؤمنون بذلك؟، وهذه الآيات واضحة تدل على ذلك، ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾، ألا تؤمنون بجاه الأنبياء وأن لهم جاه عند الله؟!.

«أو ذكر لك كلاماً للنبي صلى الله عليه وسلم يستدل به على شيء من باطله»، وهم عندما يذكرون كلاماً للنبي، يعني عندما يذكرون أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام تارةً يذكرون أحاديث تكون صحيحة، وتارةً يذكرون أحاديث تكون ضعيفة أو موضوعة، وإذا ذكر لك حديث؛ حديثاً صحيحاً أو حديثاً لا تعرف صحته من ضعفه وشبهة عليك الأمر، مثل أن يقول لك -وأنت لا تعرف ولأول مرة تسمع- لو قال لك: "النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((توسلوا بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم))"، وأنت أول مرة تسمع بهذا، وهو يريد أن يصل من خلال هذا الحديث معك إلى أن يُشَبِّهَ عليك بجواز طلب الشفاعة من الأنبياء وطلب الالتجاء إلى الأنبياء في أن يشفعوا عند الله سبحانه وتعالى وأن يتوجه إليهم متذللاً طالباً راجياً، "يا رسول الله أشفع لي، يا رسول الله خذ بيدي، يا رسول الله أدركني، يا رسول الله ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم، أو نحو ذلك" فيأتي لك بأحاديث إما صحيحة: ((أُعْطِيتِ الشَّفَاعَةَ))، أو أحاديث غير صحيحة لا أصل لها. فإذا أعطاك مثل هذه الأشياء وأنت لا تعرف جواباً تفصيلياً على هذه الأشياء التي ذكر لك، الحديث لا تدري هو صحيح أو ضعيف؟ ما هو بيان أهل العلم، ما معناه عند أهل العلم؟ والآية أيضاً ما تعرف معناها، ما تستذكر تفسيرها، ما وقفت على تفسيرها، كيف تجيب؟ رأساً تُعيد المتشابه إلى المحكم، يُفترض أن تكون ضابط للتوحيد بأدلته، فإذا أتاك بشبهة تُناقض التوحيد وتصادم أصل الإيمان تردها للمحكم، كيف تردها للمحكم؟، تابع الجواب.

يقول الشيخ: «وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكر لك»، انتبه لهذه النقطة "وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكر لك" وهذا يحصل لكثير من الطلبة عندما يُتلى برأس من رؤوس أهل البدع يُثير له كلام ما يدري، ربما يفتح فمه ولا يدري ماذا يقول، يأتي له آيات ويأتي له بأحاديث، وما يدري ماذا يقول، وربما بعضهم التبس عليهم الأمر وقال: "والله صحيح كلامك، كلام واضح، كيف العلماء ما ردُّوا!، هذا فعلا كلام واضح!!"، بعضهم عوام أهل السنة يصل بهم الأمر إلى مثل هذا المُوَصِّل، وهو يُنمُّ عن جهله هو، عدم علمه، وعدم وجود أصول راسخة ثابتة عنده يعيد إليها مثل هذه الأمور المتشابهة. إذاً كيف تجيب وأنت لا تفهم هذه الأشياء التفصيلية التي ذكر لك؟ إن كان آية لا تعرف تفسيرها ومعناها عند أهل العلم الراسخين، وإن كان حديثاً لا تدري هل هو صحيح أو ضعيف، ولا تدري معناه ولا دلالاته، ماذا تصنع؟ رأساً تجيبه بالنقاط التي ذكرها الشيخ.

وهنا أنبهك -والشيخ يذكر لك الجواب الجمل- أن تتابع مع الشيخ بدقة أجوبته؛ لأن هي عبارة عن نقاط، تقريباً أربع نقاط ذكرها الشيخ رحمه الله، لابد أن تتابعها بدقة وتضبطها ضبطاً دقيقاً حتى يتسنى لك من خلالها إبطال كل شبهة يعرضها مَنْ يُناقض التوحيد بإثارته لشبهته، وهي سهلة وميسرة:

قال: «فجأبه بقولك: إنّ الله ذكر في كتابه أنّ الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه»، نبهك الشيخ على الآية والأصل الذي ذكره الله سبحانه وتعالى فيها، والمنهج الذي ينبغي أن يكون عليه صاحب الحق، وأنت إذا بدأت بهذه البداية وبهذه الآية وضّحت لخصمك ومن أمامك أن آيات القرآن أخبر ربنا أنها على قسمين: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، وأنت بعد قليل ستذكر له الآيات المحكمات الواضحات البَيِّنَات في هذا الباب، ستذكرها له بحيث تقطع عليه الطريق؛ لكن تبدأ بالآية تقول له: "إن ربنا سبحانه وتعالى ذكر في كتابه أنّ الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه"، اقرأ عليه الآية وقل: الله عز وجل ذكر في القرآن أن الآيات منها ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، وأن أهل الحق يُعيدون المتشابه إلى المحكم، وأهل الزيغ يتبعون المتشابه، وأنت الآن تأتينا بأشياء متشابهة تريد أن تقرر الشرك وعبادة غير الله سبحانه وتعالى، مع أن القرآن إنما أنزل لأجل ماذا؟ ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿النحل: ١-٢﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، القرآن والرُّسُل والكتب كلها أنزلت لأجل أن نعبد الله وأن نُخلص العبادة لله؛ فكيف تأتيني بآية مُتشابهة وتطالبني أن أتبع المتشابه، وأترك هذا المحكم الذي أنزل القرآن لأجله!! وهو واضح في آيات القرآن ودلالاته. هذه النقطة الأولى، النقطة الأولى التي تبدأ بها معه؛ بأن تذكر الآية الكريمة التي ذكر الشيخ وأن الله ذكر في كتابه أنّ الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه.

ثم تنتقل له إلى نقطة ثانية في الجواب على شبهته: وهي في قوله رحمه الله: «وما ذكرته لك -أي ي اطالب العلم- من أن المشركين يَقْرُون بالربوبية وأنه كَفَرَهُم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]»، يُشير إلى الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فالآيات -آيات القرآن- فيها تقرير أن المشركين الذين بُعِثَ فيهم النبي عليه الصلاة والسلام يَقْرُون بالربوبية وأن الرب الخالق الرازق النافع الضار المعطي المانع إلى آخره هو الله لا شريك له، وقد مر معنا سياق الشيخ رحمة الله عليه لجملة من الآيات الدالة على ذلك، وأيضاً آيات القرآن دلت على أنهم يتعلقون على الملائكة والأنبياء والأولياء، ليس الأولياء فقط، في الآية التي ذكر ﴿الْإِنِّ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، ويثير الآية يريد أن يطلب التعلق بالأولياء، فأنت تقول له: الله عز وجل ذكر أن المشركين في آيات كثيرة يقولون بأنه الرب الخالق الرازق المنعم، وفي الوقت نفسه ذكر سبحانه وتعالى عنهم أنهم يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء، وأيضاً ذكر أنهم يقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، فما الفرق بين الذي تقول أنت وتطالبني به وبين ما ذمَّ الله عز وجل المشركين عليه في آيات كثيرة في القرآن الكريم؟!، هذا شيء مُحْكَم واضح في القرآن، وهذا هو الذي بُعث النبي صلى الله عليه وسلم لأجل إنكاره وإبطاله على المشركين، فما الفرق بين ما تُحدثني عنه الآن وأنت تريد أن تصل إليه من خلال ﴿الْإِنِّ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وبين ما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم لإبطاله على المشركين؟ المشركين أخبر الله عنهم أنهم يَقْرُون بأن الله الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبّر إلى آخره، وأيضاً أخبر عنهم أنهم يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، وأنت الآن عندما تقول لي: هل تنكرون الشفاعة؟ الله عز وجل ذكر عن المشركين هذا الأمر وذمهم عليهم، وأنت تطالبنا أن نتوجه إلى الأولياء ونعلّق قلوبنا بالأولياء ونجعل التجاءنا إلى الأولياء بأمرٍ أنكره الله سبحانه وتعالى على المشركين؟!

فإذاً هذه نقطة ثانية في الجواب؛ تقول له: «هذا أمر مُحْكَم بَيِّن لا يقدر أحد أن يُغَيِّر معناه»، ما هو الأمر المحكم البَيِّن؟ بيان الله لحال المشركين وذمهم على تلك الحال وتحذيرهم من تلك الحال، فكيف تطالبني بعمل إنما أنزل القرآن وُبُعث الأنبياء لأجل إبطاله وهدمه؟!، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما قاتل المشركين لأجله، فكيف تُطالبني بأمر وتسوق لي هذه الأدلة وتقول لي أنها تدل على جواز الالتجاء إليهم أو طلب الشفاعة منهم أو التعلّق بهم أو نحو ذلك من المعاني؟! عندنا آيات مُحْكَمَة كثيرة واضحة بَيِّنَة في القرآن الكريم تدل على هذا الأمر الذي ذكره الشيخ، قال: «هذا أمر مُحْكَم بَيِّن لا يقدر أحد أن يُغَيِّر معناه»، أنت هكذا تقول له، بعد أن تذكر له هذا

الأمر وتسوق بعض الأدلة عليه، والأدلة على ذلك مرت معك قريباً عند الشيخ رحمه الله، تقول: هذا أمر مُحْكَم بَيِّن لا يقدر أحد أن يُغيّر معناه ؛ فأنت الآن أعدته إلى المحكم.

أيضاً تذكر له نقطة ثالثة تتعلق بالشيء المعين أو الشبهة المعينة التي أثارها؛ تقول له: «وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه»، ما مقصودك لأعرف معناه؟ أي لا أعرف له جواباً تفصيلياً، إن كانت آية ما يحضرنى تفسيرها، أو لم أقف على تفسيرها، ما أطلعت على تفسير الآية؛ لكن لها معنى حق صحيح لا يناقض هذا المحكم يعرفه أهل العلم ، فتقول له : هذا الذي احتججت به من القرآن أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه ، والمراد بعدم معرفة معناه: أي فيما يستدل به ، الآن هذا المشرك أو هذا الملبس يستدل به على الشرك ، وأنت عندك يقين راسخ في قلبك أخذته من الآيات المحكمات أن الآية لا تدل على هذا الأمر الذي احتج عليها به؛ عندك يقين بذلك لكن الجواب التفصيلي ليس عندك ، لأنه ليس عندك رسوخ في العلم ولا عندك معرفه تفصيليه؛ فتقول له بإجابة مجملة : «وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي عليه الصلاة والسلام لا أعرف معناه» ، ولا تلام في كونك ليس عندك أجوبة تفصيلية على كل ما يُذكر أو يحتج به المحتج على باطله . هذا أمر يكون لأهل الرسوخ وأهل التتبع وأهل الدراية والبصيرة والاستقراء للنصوص والأدلة ، وهذا لا يتسنى لكل أحد . وهذا يبين لك قيمة الجواب المحكم وشدة احتياج كل طالب علم إليه.

النقطة الرابعة في جوابك له ؛ أن تقول له : «لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا يخالف كلام الله عز وجل» . أقطع أنا بذلك ، أنا عندي يقين وجزم أن كلام الله لا يتناقض . وهذه الآية ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لو كانت دليلاً كما يزعمه هؤلاء الزاعمون أنه يجوز أن نقول : "مدد يا شيخ فلان ، الحقني ياشيخ فلان ، أدركني ياشيخ فلان" لأصبح الكلام في القرآن متناقضاً ، الله عز وجل يقول في الآيات المحكمة: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ويقول ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ [الأحقاف: ٥]، ويقول ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، آيات كثيرة جداً تحذر من دعاء غير الله أيأ كان ومهما كان.

فهل قوله ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تدل على جواز التعلق بالأولياء والالتجاء إليهم والطلب منهم ؟ هل تدل على ذلك ؟ إن قيل نعم ؛ أصبح في القرآن آيات متناقضة ، آيات تدعوا إلى عدم التعلق بغير الله وعدم الالتجاء إلى غير الله ، وآيات تدعوا إلى الالتجاء إلى غير الله والتوكل على غير الله ودعاء غير الله كما يزعم هؤلاء . فأنت تقول له: «لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض» وأنت عندما تقول له هذه الكلمة

تريد أن تبين له أنك على يقين أن ما احتج به من آية أو حديث لا يدل على جواز التعلق بغير الله ، ولو كنت لست على علم بجواب تفصيلي على الآية والحديث يكفيك أن تخبره هذا الإخبار وأن تبين له هذا الأمر .

قال : «لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا يخالف كلام الله عز وجل» وحاشاه عليه الصلاة والسلام أن يأتي بكلام يناقض كلام رب العالمين ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا

وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] .

فهذا الآن أربعة نقاط ذكرها الشيخ في الجواب :

❖ النقطة الأولى: مستفادة من الآية التي صدر بها ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُشَابِهَاتٌ﴾، فتقول له: إن طريقة أهل الزيغ الذين ذمهم الله: أنهم يتركون المحكم ويتبعون المتشابه ، تمهد له بهذا التمهيد؛ تقول له : انتبه أنا أحذرك ، الله عز وجل قال في آية عظيمة جداً في سورة آل عمران ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ احذر أن تكون من هؤلاء الذين حذرنا الله منهم ، لا تتبع المتشابه ، لا تترك المحكم وتذهب تتبع المتشابه . ربما أنت إذا قلت له هذا الكلام وكان فيه شيء من الخوف ربما تحرك فيه شيء من الخوف وقالك طيب ما المحكم في الباب ؟؟

❖ فتبدأ تنتقل للخطوة الثانية التي يذكرها لك الشيخ ؛ وهي أن تقول له ما قرره الشيخ سابقاً عندما بين دين المرسلين ودين المشركين ، أن تبين له دين المرسلين ودين المشركين الذين بُعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام وأنهم كانوا يعتقدون أن الله الخالق الرازق المنعم المتصرف ، وأنهم أيضاً كانوا يتعلقون بالملائكة وبالأنبياء وبالأولياء ، وأيضاً يقولون ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] ، تذكر له هذه التأصيلات التي سبقت أن مرت . الشيخ الآن يعيدك إلى التأصيل السابق تضبطه وتبدأ تعرضه خطوة خطوة حسب ما مر عليك حتى تبين له الأصول الثابتة الراسخة عندك .

❖ بعد ذلك تنتقل للنقطة الثالثة تقول له : وما ذكرته لي من آية أو من حديث أنا لا أعرف معناه ، أو جوابه التفصيلي ما عندي جواب ؛ لكنه كما تلاحظ ، هذا الذي أنت تذكره الآن وتطالب أن نفعله مستنداً على الآية به أو الحديث به مُصادم لهذه الآيات المحكمات فما هي الطريقة التي أرشدنا ربنا إليها ويجب أن نكون عليها؟؟ نتبع المتشابه الذي تُثيره! أو الآيات المحكمات التي ذكرتها لك وبينتها لك ؟.

❖ ثم تذكر له أمراً رابعاً ؛ تقول له : لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض ، وأن كلام النبي عليه الصلاة والسلام لا يخالف كلام الله عز وجل ؛ منبهاً إياه أن هناك أجوبة تفصيلية على هذا الذي أثرته لكنك ستجدها عند أهل العلم الراسخين . لكن حدثنا الآن أن نكف عن هذا الأمر ونحقق التوحيد الذي خلقنا لأجله ، وأن ندع هذه الأمور المشتبهة علينا وأن نعمل بالأشياء المحكمة الواضحة التي ذكرتها لك . وينتهي حديثك وإياه عند هذا الحد. تقول أتريد أجوبة تفصيلية انتهينا الآن ، هذا حدي معك ، تريد أجوبة تفصيلية نتواعد؛ تحب بكرة، بعد غد ، بعد أسبوع ، نقابل العالم الفلاني الشيخ الفلاني ، ونقرأ الكتاب الفلاني ، ندرس المسألة تفصيلاً هذه مسألة أخرى ما أستطيع أنا لكن هذا حدي وإياك انتهينا . جيد تنتهي معه إلى هذا الحد . هذا حدك معه.

إذا أعانك الله عز وجل وضبطت الأجوبة التفصيلية وسيأتي شيء منها يمكن أن تدخل معه في بعض التفاصيل ، أما بدون ذلك قف عند حدك ، وهذا هو فرضك وهذا هو الذي يجب عليك ، وإياك أن تخاطر بالدخول معه في التفصيل وأنت لست على علم ؛ لماذا ؟؟ لأنك إن دخلت في التفصيل وأنت تظن أن عندك شيء من الأشياء التي ستجيب بها قد يفاجئك بأشياء تفصيلية لا تجد جواباً عليها فينقلب الأمر عليك ، وربما إذا كان هناك حاضرين في المكان ينقلب عليك وعليهم؛ فيكون حدك هو هذا ، وجميل بالإنسان أن يلزم حده ولا يتعدى إلى حدود من هم أعلم منه وأرسخ منه وأدرى منه في العلم . هذا أمر ننتبه له .

قال الشيخ رحمه الله مؤكداً على ما مضى قال : «وهذا جوابٌ جيدٌ سديد» يعني هذا الجواب الذي عرضته لك وأبنته لك هذا جواب جيد سديد ، ولكن مع ما قدم الشيخ وبَيَّن قال: «ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى» اللهم وفقنا ، اللهم وفقنا ، اللهم وفقنا ، ولا تكلنا إلى أنفسنا يا ذا الجلال والإكرام، اللهم من علينا بتوفيق منك، لا حول ولا قوة لنا إلا بك.

قال الشيخ رحمه الله : «ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى» ولهذا هذه الكلمات القليلة التي مرت معك في أسطر أو في صفحات قلائل يؤكد لك الشيخ أنه ليس كل أحد يفهمها ، ولكن لا يفهمها إلا من وفقه الله ولهذا الجأ إلى الله ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] فالجأ إلى الله سبحانه وتعالى ، هذه الكلمات -وأنا أذكرك الآن- هذه الكلمات التأصيلات القوية المتينة إن لم يوفقك الله عز وجل لضبطها قد تُبلى يوم في من يثير عليك هذه الشبهات وتقول: "يوم من الأيام والله ودرسنا وأشياء جيدة ذكرت لكن أين ذهبت ما أدري" ؛ اسأل الله التوفيق يا أخي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ، وإذا كتب الله لك التوفيق وأمدك بالتوفيق والعون هُديت إلى صراط المستقيم.

ولهذا ما أجمل بيان الشيخ رحمة الله عليه وهو يقول لك هنا : «ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى» فالجأ إلى الله تبارك وتعالى واسأله بصدق وإلحاح أن يوفقك ولا تستهين به ، ولا تقول هذه والله أشياء معروفة وأشياء واضحة وبينه ، لا تستهين بها ؛ هذه أشياء عظيمة وأصول مهمة وهذه أساس ما خُلقت لأجله وأوجدت لتحقيقه وأساس ما أوجدت للانتصار له والذب عنه والحماية له ، هذا هو الأساس وأكثر الناس ظلوا عنه وانحرفوا عنه ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] فلا تستهين بهذا الأمر ، ولهذا ما سبق أعده مرات وكرات واسأل الله عز وجل أن يوفقك لضبطه لفهمه لإتقانه ، وراجع مراجعة تلو الأخرى .

قال : «إلا من وفقه الله تعالى فلا تستهين به؛ فإنه -أي هذا الأمر الذي ذكرت لك- منزلته كمنزلة الدفع بالتي هي أحسن» ؛ الآن لما أقول لك مذكراً لك بالآية الكريمة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] لما تأتي للناحية التطبيقية العملية للدفع بالتي هي أحسن أين حظك من الآية ؟! لما تأتي في معترك الناس والاحتكاك بهم ثم تحتاج إلى الدفع بالتي هي أحسن ، كثير منا أدنى التماس بينه

وبين شخص من الأشخاص يتكهرب مباشرة ورأساً يفعل ويغضب وهو يحفظ الآية !! والله عز وجل قال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصل: ٣٥] . الدفع بالتي هي أحسن في الناحية النظرية وأنت تدرس سهل ، أي واحد يخاصمني ما أخاصم معه بهدوء أكلمه "ويا أخي لا ، وما يليق" هذا في وقت الدرس وقت المذاكرة ، لكن لما تأتي الناحية التطبيقية كثير من الناس لا يلقى هذا الأمر ولا يُوفق له ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ، قال ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ . وكأن الشيخ رحمة الله عليه ينبهك إلى أن تصبر في طلب ، وتصبر في ضبط هذه الأمور وتتنها وتحسن ضبطها ، وتسال الله عز وجل أن يوفقك وأن يجعلك من أهل هذا الحظ العظيم والخير الكبير ، تضبط هذا الأصول وتعني بها حتى تكون سلاحاً لك وهي أعظم سلاح . وأقول ولا أبالغ : هذا الذي ذكره الشيخ الآن في هذا الصفحات أعظم ما يحتاج إليه المسلم كل مسلم ، أعظم ما يحتاج إليه المسلم كل مسلم هذه المقدمات التي بدأها الشيخ ، خاصة في زماننا هذا والناس ابتلوا ابتلاءات كثيرة بشبهات أهل الضلال ؛ فهذه الأشياء التي سبق أن قررها الشيخ لا تستهن بها هذه وصية الشيخ لك لا تستهن بها؛ لا تقول هذا أشياء هينه معروفة ، لا ، اضبطها وكررها، واضبط الآيات التي ذكر لك الشيخ رحمة الله عليه واعتني بها ، ولتكن سلاحاً معك وزاداً مستمسكاً به محافظاً عليه ؛ فهذا أعظم ما يكون وأعظم أمر ينبغي أن تعني به ، فلا تستهن بها فإنه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ .

ثم بعد ذلك انتقل الشيخ رحمة الله عليه إلى الأجوبة التفصيلية .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، أَمَّا بَعْدُ: نواصل القراءة في هذا الكتاب النافع المبارك «كتاب كشف الشُّبُهَات» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

قال رحمه الله:

وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمَفْصَّلُ: فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ لَهُمْ اغْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسُلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ؛ مِنْهَا قَوْلُهُمْ: نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ؛ بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ؛ وَلَكِنْ أَنَا مُذْنِبٌ، وَالصَّاحِحُونَ لَهُمْ جَاءَ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ. فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ؛ وَهُوَ: أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقْرُونَ بِمَا ذَكَرْتَ، وَمُقْرُونَ أَنَّ أَوْثَانَهُمْ لَا تُدَبِّرُ شَيْئًا؛ وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمَفْصَّلُ»؛ عرفنا أَنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى استهلَّ هذا الكتاب النافع بمقدمة بيِّن فيها حقيقة دين الأنبياء والمرسلين، وما كانوا يدعون إليه من التوحيد والإخلاص لله، ونَبَذَ الشُّرْكَ والتحذير من حالِ أهلِهِ، ودعوة الناس إلى كلمةٍ سواءٍ قائمةٍ على كلمةِ التَّوْحِيدِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». وبيَّن أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقة دين المشركين وما كانوا عليه من اتخاذ الأنداد والأولياء والشركاء والوسطاء، زاعمين أن تلك الأنداد تقربهم إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى زُلْفَى، ويعتقدون أن تلك الأنداد لا تَخْلُقُ ولا تَرْزُقُ ولا تَحْيِي ولا تَمِيتُ ولا تُعْطِي ولا تَمْنَعُ، بل ذلك كله بيد الله، لكنهم اتخذوها وسطاء وشفعاء بينهم، وبيَّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٥]، لم يقولوا ما نعبدهم إلا لأننا نعتقد أنهم يملكون نفعًا وعطاءً ودفعًا ورفعًا وحياةً وموتًا ونشورًا، لم يقولوا ذلك؛ بل هم يُقِرُّونَ أن تلك الأنداد لا تملك من ذلك من شيء، وَأَنَّ المَالِكَ لذلك كله هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فبدأ رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه «كشف الشُّبُهَات» بمقدمة قرر فيها حقيقة دين الأنبياء والمرسلين وما كانوا يدعون إليه من التوحيد، وبيَّن أيضًا حقيقة دين المشركين وما كانوا عليه من اتخاذ الأنداد والوسطاء والشفعاء والأولياء، يصرفون لهم من العبادة والذل والخضوع ما لا يُصْرَفُ إِلَّا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإذا قيل لهم في ذلك قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ

إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿١١٨﴾ ؛ وهذا هو أساس ضلال المشركين ؛ ثم على هذا الضلال بنوا كثيراً من الشبهات التي ضلوا بها وأضلوا بها كثيراً عن سواء السبيل. ولا تزال شبهات هؤلاء متكررة عبر التاريخ وبامتداد الزمان؛ فترى الشبهة التي قيلت في قديم الزمان تعاد من المشركين عبدة غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿شَآبَهتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] ؛ فما عند أولئك عند هؤلاء، وما عند هؤلاء من الأعمال عند أولئك، وما عند هؤلاء من الشبهات عند أولئك، اللهم إلا أن العبارة أحياناً تتغير، أما الحقيقة والمضمون فواحد.

ثم بعد أن بيّن رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في هذه المقدمة هاتين الحقيقتين: حقيقة دين الأنبياء وحقيقة دين المشركين؛ بدأ يُبين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كيف أنّ المشرك يحاول أن يجمع لنفسه ما ينصر به دينه الباطل وضلاله المبين ، وأنّ مثل هذه الشبهات ينبغي أن يكون كل مسلم على حيطةٍ وحذر؛ يحذر منها في نفسه ويحذر منها من يُخشى عليه أن يتضرر بتلك الشبهات؛ فبدأ رَحِمَهُ اللَّهُ بموضوع الكتاب وهو الإجابة على الشبهات أو كشفها وبيان زيفها ووهائها، وقرّر أنّ كشف شبهات هؤلاء من طريقين:

طريق مُجْمَل؛ وهو ما سماه رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى «الجوابُ المُجْمَلُ» ، والمراد بالجواب المُجْمَل: أي الجواب الصالح لكشف كل شبهة أياً كانت؛ في العقيدة أو في العبادة أو في أي باب من أبواب الدين ؛ فهي بمثابة القاعدة الكلية في باب كشف الشبهات ، صالحة لأن يُردّ بها المسلم كل شبهة تُثار. هذا معنى الجواب المُجْمَل، الجواب المُجْمَل؛ أي: الجواب الذي لا يَحْتَصُّ بكشف شبهة معينة ؛ بل هو جوابٌ لكل الشبهات.

وأيضاً نبّه رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في مضامين كتابه إلى ضرورة التدرج في هذا الباب ، خلافاً لما عليه بعض الناس من خطأٍ في هذا الباب وعدم الإتيان للأمور من أبوابها ؛ فمن الخطأ بمكان أن يدخل الإنسان غمار الشبهات بدون قاعدة. ومما يُقَعّد لطالب العلم في هذا الباب: أولاً معرفة حقيقة دين الأنبياء بالأدلة والبراهين ، ثم يعرف حقيقة دين المشركين بالأدلة والبراهين ؛ عندما نقول بالأدلة والبراهين: أي من كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، ثم بعد ذلك ينتقل إلى المرحلة الأخرى وهي معرفة الجواب المُجْمَل الصالح لكشف كل شبهة يثيرها مشرك أو مبتدع، ثم بعد ذلك يدخل في الأجوبة التفصيلية؛ والأجوبة التفصيلية هي التي تختص بالإجابة عن الشبهات تفصيلاً، وما من شك أن المشركين لهم شبهات كثيرة ؛ فمعرفة الإجابة التفصيلية عن تلك الشبهات تأتي مرحلةً ثالثةً في هذا الباب، كما هو التدرج الواضح في تقرير هذا الأمر وتثبيت هذا المنهج في هذا الكتاب المبارك «كتاب كشف الشبهات»؛ ولهذا بدأ هنا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بقوله: «وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمَفْصَّلُ».

ولمّا كانت الشبهات -شبهات المشركين- التي يثيرونها لتقرير باطنهم لا خطاب لها ولا زمام، وهي متعددة ومتنوعة، وكثيرة وليست بقليلة، لما كانت كذلك أراد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أن يُبين لطالب العلم طريقة الإجابة على شبهات هؤلاء بذكر أبرز وأهم ما عندهم من شبهات، ومن ثمّ الإجابة عليه بإجابة مختصرة كافية وافية بالمقصود؛

فإذا عرف طالب العلم طريقة كشف الشبهات والمنهج العلمي الرصين في بيان زيفها أصبح الأمر بعد ذلك عليه يسيراً بتيسير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ ولهذا أؤكد أننا ينبغي أن نراعي هذه المنهجية الدقيقة المتينة التي قررها رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في كتابه «كشف الشبهات» لبيان المسلك الصحيح الذي ينبغي أن يكون عليه طالب العلم في هذا الباب.

قال: «وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمَفْصَلُ: فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ هُمْ اغْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسُلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ» أي: عن دين المرسلين ؛ إذا كان الأمر كذلك فإنَّ أول ما ينبغي أن يُعنى به طالب الحق في هذا الباب أن يعرف دين المرسلين معرفة صحيحة بالأدلة ، فإذا عرف دين المرسلين معرفةً صحيحةً بالأدلة فإن ما سواه باطل، وكل شبهة تُثار لتقرير خلافه فهي باطلة، وهذه قاعدة في ردِّ كلِّ باطل؛ أن يعرف دين المرسلين ، أما من كان لا يعرف دين المرسلين أو معرفته بدينهم فيها ضعفٌ فإنه يُحترق بشبهات أهل الباطل.

قال: «هُمْ اغْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسُلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ» هذه الشبهات لو أعمتَ النظر فيها لوجدناها لا تخرج إلا من أحد شخصين : إما سيئٌ فهم ، أو سيئٌ قصدٍ ، أو شخص جامع بين السوأتين؛ سوء الفهم وسوء القصد؛ أما مع سلامة الفهم وسلامة القصد فإن مثل هذه الشبهات لا تثور ولن تثور بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

بدأ بعد ذلك رَحِمَهُ اللهُ يذكر أمثلة تفصيلية لشبهات هؤلاء، بدأها رَحِمَهُ اللهُ بثلاث شبهاتٍ صدرَ بها الكلام على الأجوبة التفصيلية لشبهات هؤلاء، ونَبَّه في خاتمها أن هذه الشبهات الثلاث هي أكبر ما عندهم ، ونبه أيضاً طالب العلم أنك إذا عرفت هذه الشبهات واتضح لك كشفها وفهمتها فهماً جيداً فما بعدها أيسر منها، وهذا تنبيه من الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلى الاهتمام بالأمر ، فأكثر ما عند هؤلاء القوم من الشبهات هذه الشبهات الثلاثة التفصيلية التي يبدأ بها رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى كشفه لشبهات هؤلاء تفصيلاً.

بدأ بالأولى منها قال: «مِنْهَا قَوْلُهُمْ: نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ» ؛ يَتَبَرَّوْنَ وَيَتَنَصَّلُونَ مِنَ الشَّرِكِ ، وهذه حال صاحب كلِّ باطل ، ليس هناك صاحب باطل يقول عن نفسه أنا صاحب باطل، أو يقول أنا صاحب بدعة، أو يقول أنا صاحب إلحاد أو أنا صاحب شرك؛ بل "كلُّ يدَّعي وصلاً ليلي" على ما عليه هؤلاء من انحراف وانحلال وضياع كلُّ يدَّعي أنَّ ما عنده هو الحق؛ فليس هناك صاحب باطل يقول إني صاحب باطل أو داعية ضلال ؛ فرعون كان يقول لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] ، ما قال: "وما أهداكم إلا سبيل الضلال"، وهو أكبر دعاة الضلال. إبليس ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا﴾ [الأعراف: ٢١] ما قال "من المضلين"؛ قال: ﴿لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ، وهكذا صاحب كل باطل يدعي لنفسه أنه داعية حق ، وينفي عن نفسه أنه من أهل

الباطل؛ ولهذا لاحظ كيف يبدأ هؤلاء بنفي ذلك عنهم؛ قالوا: «نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ»، تراه متلطخًا بالشرك متلوًا به صريعاً لشبهاته؛ ثم يقول: لا، أنا لست من أهل الشرك.

يقولون: «نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ؛ بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَزُوقُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ»، عبد القادر: أي الجيلاي؛ وهو من علماء المسلمين ومن الأئمة المصلحين، معروفًا بحسن السيرة وحسن العقيدة، لكن كثيرًا من أتباعه والمنتسبين إليه انخرفوا انحرافًا مبينًا وضلوا ضلالاً كبيرًا، واتخذوا عبد القادر وليًا من دون الله، يُنزلون به من الحاجات والرغبات والطلبات ما لا يُنزل إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ونسبوا إليه كذبًا وزورًا أنه يدعو إلى ذلك وأنه يرضى بذلك ويرغب بذلك، وحاكوا حول ذلك كثيرًا من الأكاذيب والقصص والتجارب المدعاة، وأيضًا أنواع من المنامات والخوارق التي أضلوا بها كثيرًا من الناس عن سواء السبيل؛ فأصبح يُدعى من دون الله، ويُذبح له من دون الله، ويُتَقَرَّبُ إليه بأنواع من التقربات التي لا تكون إلا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فيقولون: «نحن نعتقد أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ» أي: فضلًا عمن دون النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام من الصالحين والأولياء، أو أيضًا من الطالحين الذين لا يُعرفون بصلاح أو استقامة ممن اتَّخَذُوا أُنْدَادًا من دون الله.

قال: «وَلَكِنْ أَنَا مُذْنِبٌ، وَالصَّالِحُونَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ» أي: أعتقد أن هؤلاء أهل صلاح وأهل مكانة وأهل منزلة عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ ولهذا لا أطلب من الله مباشرة، وإنما أطلب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بواسطة هؤلاء، فأأخذهم شفعاء لي عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وهذا عين ما ذكره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن المشركين الأول: ﴿مَا يَعْبُدُهمُ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهمُ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] أي: وسطاء لنا عند الله.

فإذا قال لك هذا الكلام، وانتبه لتبين الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه أكبر ما عندهم من الشبهات؛ يقولون نحن لا نشرك، ونحن نعتقد أَنَّ الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله، ونعتقد أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعموم الأولياء والصالحين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولكننا ندعوهم ونستغيث بهم ونلتجئ إليهم ونطلب منهم المدد والعون والعافية والشفاء وغير ذلك لأن لهم جاهًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومكانةً عليَّةً عنده؛ فنحن نطلب من الله بهم؛ أي: بواسطة هؤلاء، فنجعلهم بيننا وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شفعاء ووسطاء؛ فكيف تجيبه إذا ذكر لك هذه الشبهة؟

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ»؛ أي: بما تقدم معك في هذا الكتاب من تقرير لحقيقة دين المشركين، وقرأ عليه الآيات التي قررت حقيقة دين المشركين، وأن المشركين لا يعتقدون في الأصنام المتخذة من دون الله أنها

تنفع وتضر وتعطي وتمنع وتخفض وترفع ، لا يعتقدون فيها ذلك بل يعتقدون أن ذلك كله بيد الله سبحانه وتعالى، ومَرَّ معنا آيات عديدة ساقها المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى؛ مثل قول الله جلَّ وعلا: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ماذا يقول المشركون إذا سُئِلُوا هذه السُّؤَالَاتُ؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ أي: سيقولون هذه الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى، لا يقولون إنها بيد الأصنام.

وإذا سُئِلَ المشركون الأول: لِمَ تعبدون هؤلاء وأنتم تعتقدون أنها لا تنفع ولا تعطي؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى؛ فنقول لهم: ما الفرق بين حقيقة دين المشركين التي يَبْنِيها اللهُ سبحانه وتعالى في القرآن، وبين هذا الأمر الذي تذكره لي الآن؟ وَضَح لي الفرق، بعد أن تُبَيِّنَ له أَنَّ هذا الذي ذكره هو نفس الكلام الذي قرَّره اللهُ سبحانه وتعالى في كتابه عن المشركين الأول، وقرأ عليهم الآيات التي تبين حقيقة دين المشركين؛ وقل له: وضح لي فرقاً بين هذا الذي تقول وبين الذي قاله المشركون الأول، ما الفرق بين هذا وهذا؟

قال: «فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ وَهُوَ: أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقَرَّرُونَ بِمَا ذَكَرْتَ»؛ عرفت أنت ما المراد بقوله «مُقَرَّرُونَ بِمَا ذَكَرْتَ»؛ أي: مِنْ أَنَّ الخالق الرزق المنعم المدبر هو الله، وَأَنَّ الأنبياء والأولياء لا يملكون نفعاً ولا دفعاً ولا عطاءً ولا منعاً ولا حياةً ولا موتاً ولا نشوراً.

«وَمُقَرَّرُونَ أَنَّ أَوْلِيَانَهُمْ لَا تُدَبِّرُ شَيْئاً، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ»؛ أي: المشركون الأول إنما أرادوا بتلك الأصنام الجاه والشفاعة.

«وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ»؛ يعني اقرأ عليه الآيات التي قرر الله سبحانه وتعالى فيها حقيقة دين المشركين ووضح له هذه الآيات حتى يعرف معناها، ثم قل له: ما الفرق بين هذا الذي تقول وبين الذي كان عليه هؤلاء الذين بيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ حقيقة دينهم في القرآن الكريم؟! هنا تنتهي الشبهة الأولى بجوابها.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

فَإِنْ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟ فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا أَقَرَّ أَنَّ الْكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا لِلَّهِ، وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِنْ قَصْدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ؛ فَادْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ

أَتَيْهِمْ أَقْرَبُ ﴿الآية [الإسراء: ٥٧] . وَيَدْعُونَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَنَهُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[المائدة: ٧٥-٧٦] ، وَادْكُرْ لَهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿[سبا: ٤٠-٤١] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿[المائدة: ١١٦] . فَقُلْ لَهُ: عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ كَفَرَ مَنْ قَصَدَ الْأَصْنَامَ، وَكَفَرَ أَيْضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ.

ثمَّ بعد ذلك انتقل رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى إلى ذكر الشبهة الثانية والجواب عليها؛ لكن قبل ذلك فيما يتعلق بالشبهة الأولى والجواب عليها أريد أن تنتبه إلى أن قول الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تمام جوابه على الشبهة الأولى: «واقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحْهُ» أراد رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِ نوعين من الآيات:

- النوع الأول: الآيات التي تُقرر أن المشركين يُقرّون بأنَّ الخالق الرازق المنعم المعطي المحيي المميت هو الله لا شريك له، وهي كثيرة، وأنهم لا يعتقدوا فيمن اتخذهوهم من دون الله أولياء شيئاً من ذلك، فهم لا يعتقدون في الأنداد أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت وتعطي وتمنع، لا يعتقدون فيها ذلك، فاقْرَأْ عَلَيْهِ الآيات التي تبين هذا الأمر.
 - النوع الثاني من الآيات: أن تقرأ عليه الآيات التي تبين أن عبادة المشركين للأصنام والأوثان واتخاذهم للأنداد؛ إنما هو من أجل أن تقرهم إلى الله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ، فتقرأ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ، تقرأ عليه الآيات التي من هذا النوع والآيات التي تقرر أن العبادة حق لله سبحانه وتعالى ليس مع الله فيها شريك كائناً من كان.
- بعد ذلك ذكر رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى الشبهة الثانية؛ قال: «فَإِنْ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيْمَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ»، متى يقول لك من اتخذ مع الله الشركاء هذه الكلمة؟ «هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيْمَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ» متى تسمعها منه؟ إذا تلوت عليه الآيات؛ ولهذا من لا يعتني بالآيات وتلاوتها في مقام الجواب على المشركين لم يصبح مؤهلاً لدعوتهم وكشف شبهاتهم؛ لأن أساس كشف شبهات المشركين تلاوة آي القرآن الكريم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ، ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] ؛ فإذا ثلّيت عليه هذه الآيات

سيقول لك في الغالب: قف انتظر، هذه الآيات التي تتلو عليّ هذه نزلت في من يعبد الأصنام، نزلت فيمن يدعو اللات والعزى ومناة، أحجار صخور، نزلت فيمن يعبد الأصنام.

«كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟» وهذه طريقة عند هؤلاء للتشنيع على أهل الحق وإثارة الشوشرة على أصحاب الحق؛ «كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟» يقولون نحن لم ندعُ اللات ولا العزى ولا مناة ولا غيرها من الأصنام، نحن دعونا الأنبياء ودعونا الأولياء ودعونا من لهم مكانة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَكَيْفَ تَقْرَءُونَ عَلَيْنَا الْآيَاتِ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا حَالِ مَنْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ؟! نحن لا نعبد الأصنام ولا ندعو الأصنام؛ فهذه الآيات لا علاقة لها بموضوعنا وبأمرنا، هذه تتعلق بقوم كانوا فبانوا، نزلت في أقوام يعبدون الأصنام وحاربهم النبي عليه الصلاة والسلام وانتهى أمرهم، أما نحن ما لنا ولهؤلاء وما أبعد حالنا عن حال هؤلاء، نحن ندعو الأنبياء وندعو الأولياء وندعو الصالحين ممن لهم المكانة العلية عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فكيف تتلون في حقنا آيات إنما نزلت فيمن يعبد الأصنام؟ هكذا سيقول، فكيف يُجاب عن هذه الشبهة؟

وأحبُّ أن أنبهك أنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ عندما يبين لك مثل هذه الشبهات والأجوبة عنها، يَبْنِيهَا بعد أن دخل معترِكًا طويلًا مع خصوم كُثُرٍ مشافهةً ومكاتبةً، وجاهد في الله جهادًا عظيمًا في تقرير التوحيد ونصرته وإبطال الشرك وبيان زيفه؛ فنفع الله سبحانه وتعالى بما كتب نفعا عظيما، ولهذا يعطيك عُصَاةً عن خبرة وتجربة واسعة جدًا في هذا الباب العظيم، وإذا خُضْتَ هذا الغمار نفعا لعباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ستري أنه أحسن في صنيعه أيما إحسان رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .

قال: «فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ» لازلنا باقين مع الأساس الذي يُبْنَى عليه الموضوع؛ جَاوِبُهُ بما تقدم في صدر الكتاب من تقرير لحقيقة دين الأنبياء وحقيقة دين المشركين، وأنَّ الأنبياء دعاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإخلاص التوحيد له، وأنَّ المشركين دعاة لاتخاذ الأنداد والأولياء من دون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتذكر له أنَّ المشركين الأول كانوا يقرون بالربوبية ويقولون أنَّ الله هو الخالق الرازق النافع الضار المعطي المانع، وأنَّ هذه الأصنام التي اتخذوها من دون الله لم يتخذوها إلا لغرض أن تقرّبهم إلى الله؛ لأنّها بزعمهم لها مكانة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهم اتخذوها من أجل أن تقرّبهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى زلفى.

«فَإِنَّهُ إِذَا أَقَرَّ أَنَّ الْكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا لِلَّهِ، وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِمَّا قَصَدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ»؛ يعني: إذا أقر لك بأن المشركين الأول يقرون بالربوبية، وأنَّ الربوبية أمرها الله وحده، وليس بيد الأصنام والأوثان شيئًا من ذلك. إذا أقر بذلك؛ ولكنه أراد أن يفرّق بين فعله وهو دعاء الأنبياء والأولياء والصالحين وبين فعل أولئك الذين يتخذون الأصنام الأحجار من دون الله، فماذا تصنع معه حينئذ؟ إذا

أراد أن يفرّق بين الآيات التي تلوّتها عليه وبين صنيعه بأنّ الآيات التي تلوّتها عليه إنما هي مُنصبّةٌ في حق من دعا صنماً من حجر أو شجر أو نحو ذلك، وأنّها لا تشمل من دعا نبياً أو دعا ولياً، فماذا تصنع حينئذ؟ يقول الشيخ: إذا أراد ذلك «فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَصْنَامَ»؛ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلَّ لَهَا عَآكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] منهم من يعبد الأصنام، منهم من يعبد الشمس، منهم من يعبد القمر، منهم من يعبد الأحجار والأشجار.

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ» القرآن دلّ على ذلك، قل له: القرآن دلّ على أن المشركين الذين كانوا خصوصاً للأنبياء والمرسلين منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الأولياء، ومنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد غير ذلك، وقل له: عندي آيات في القرآن الكريم تدلّ على ذلك، وأنّ المشركين الذين ذمّ الله باطلهم وضلالهم في القرآن ليسوا فقط من كانوا يعبدون الأحجار والأصنام؛ بل منهم من عبد الأصنام، ومنهم من عبد الأنبياء، ومنهم من عبد الأولياء، ومنهم من عبد الملائكة، هكذا قل له؛ فإذا قال لك: أعطني الآيات، هات الآيات التي تدل على أن المشركين منهم من كان يعبد الأنبياء وأن منهم من يعبد الأولياء وأن منهم من يعبد الملائكة، هات الآيات التي تدل على ذلك؟ اقرأ عليه الآيات.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾»؛ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ما هي حال المدعوين هؤلاء؟ قف هنا وتأمل في حال المدعوين من دون الله ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ما هي حالهم؟ أصنام؟ أحجار؟ أم ماذا؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ هؤلاء أولياء الله أو ليسوا بأولياء؟ هؤلاء من أرفع وأعظم أولياء الله ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾؛ بل عندهم أساس الولاية التي عليه تُبنى؛ وهو أن يكون مُحِبّاً لله سبحانه وتعالى متقرباً إليه وحده، راجياً رحمته، خائفاً من عذابه؛ وهذه أركان التعبد القلبية الثلاثة؛ فهؤلاء عباد الله من أولياء الله المقربين وكانوا يُدْعَوْنَ من دون الله. وقد قيل في معنى هذه الآية: إنّها نزلت في نفر من الإنس كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم هؤلاء الجن وصلحت حالهم مع الله، واستمر أولئك على عبادتهم لهم من دون الله، وقيل: إنّها كانت نزلت فيمن يدعو العُزَيْر وعيسى من دون الله عزَّ وجلَّ.

فإذن هذه الآية من سورة الإسراء ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ نزلت فيمن يعبد صنماً، حجراً من الأحجار؟ أم نزلت في من؟ نزلت في من يعبد ولياً من الأولياء أو نبياً من الأنبياء؛ على قولين: إما أنها في الأولياء أو في الأنبياء، وهي على كلا القولين حجة على أولئك القائلين أن أولئك إنما كانوا يعبدون الأحجار والأصنام.

﴿وَيَدْعُونَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَنَهُ﴾ أيضاً قل لهم: من المشركين من كان يدعو الأنبياء والأولياء؛ عيسى نبي وأمه وليّة من أولياء الله، ليست من الأنبياء، الأنبياء ليسوا إلا رجالاً، فهي من أولياء الله، أمه من أولياء الله، وعيسى نبي من أنبياء الله ومن الرسل المقربين، عبد من دون الله أو لم يُعبد؟ وأمه عُبدت من دون الله أو لم تعبد؟ هو نبي وأمه وليّة، وعُبدت من دون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ إذاً المشركين الأول لم تكن عبادتهم مختصة بعبادة الأصنام، فيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الأولياء، والآيات جمعت لك الأمرين، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؛ هذا السياق الآن إنكار على من عبد صنماً من الأصنام؟ أم هو إنكار على من عبد نبياً من الأنبياء أو ولياً من الأولياء؟ هذا السياق إنكار على من عبد نبياً من الأنبياء ووليّاً من الأولياء، عيسى عليه السلام نبي وأمه وليّة من الأولياء وعُبدت من دون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وأنكر الله سبحانه وتعالى ذلك على من فعله ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. ولو قرأت عليه هذه الآية: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ربما قال لك : هذه نزلت في من عبد صنماً، قل له: اقرأ ما قبلها، فيمن عبد عيسى وأمه.

قال: «وَاذْكُرْ لَهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِبَادُكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سج: ٤٠-٤١]» ؛ هذه الآية تدل على أن من الناس من عبد الملائكة من دون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، ولهذا الملائكة تتبرأ يوم القيامة من هؤلاء وأنهم لا يرضون بذلك.

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]﴾ . إذاً هذه الآيات تدل دلالة واضحة على أن المشركين الأول الذين ذمَّ الله شركهم في القرآن الكريم منهم من يعبد الصنم، ومنهم من يعبد النبي، ومنهم من يعبد الولي، ومنهم من يعبد الملك، ومنهم من يعبد غير ذلك؛ فيكون بذلك اتضح جواب هذه الشبهة عندما يقول: "هذه الآيات

إنما نزلت فيمن يعبد الأصنام ونحن لا نعبد الأصنام، نحن فقط اتخذنا الأنبياء والأولياء وسطاء لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، ففرقُ بيننا وبين هؤلاء"، ففي مثل هذه الحال تقرأ عليه هذه الآيات.

قال الشيخ: «فَقُلْ لَهُ: عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ كَفَرَ مَنْ قَصَدَ الْأَصْنَامَ، وَكَفَرَ أَيْضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ» ؛ نبينا عليه الصلاة والسلام لم يفرق بين كُفر من عبد صنم وكُفر من عبد نبيا أو وليا؛ بل كُفر هؤلاء باب واحد ، كله شرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واتخاذُ للأنداد والأولياء والوسطاء يصرفون لهم من العبادة ما لا يُصرف إلا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْمُدَبِّرُ لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ، وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؛ وَلَكِنْ أَقْصِدُهُمْ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ شَفَاعَتَهُمْ؛ فَاجْأَبُ: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً سَوَاءً، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَر: ٢٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يُونُس: ١٨] . وَاعْلَمْ: أَنَّ هَذِهِ الشُّبُهَةَ الثَّلَاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ وَضَحَّهَا فِي كِتَابِهِ وَفَهِمْتَهَا فَهَمًّا جَيِّدًا فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى هنا شبهة هؤلاء الثالثة ؛ قال: «فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ»؛ إن قال الكفار أي: الكفار الذين نزل فيهم القرآن ونزلت فيهم الآيات، قد مرَّ معنا شيءٌ منها، وتكون أنت أيضًا قد تلوت شيئًا منها، «فَإِذَا قَالَ لَكَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ» يريدون من هؤلاء؛ أي: يقصدونهم راجين منهم طالبين منهم حظوظًا وحاجات دينية ودنيوية. «وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْمُدَبِّرُ لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ»؛ بمعنى أنه يريد أن يقول لك: أنا مجرد اتخذت هؤلاء وسائط، أنا لا أريد منهم ابتداءً ، وإنما أريد منهم شفاععة وواسطة عند الله، فأنا أريد من الله؛ لكن هؤلاء جعلتهم بيني وبين الله واسطة من أجل أن يقربوني إلى الله؛ لأني مذنب ومقصر وهم لهم مكانة عليّة عند الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومنزلة رفيعة عنده، فأنا لا أريد منهم مباشرة ولا أطلب منهم مباشرة؛ لأنهم لا يملكون من ذلك شيئًا، لكنني أريد أن يكونوا واسطة بيني وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

«فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْمُدَبِّرُ لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ، وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَلَكِنْ أَقْصِدُهُمْ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ شَفَاعَتَهُمْ» ؛ فهذا الكلام الذي يقوله هو الآن هل تجد بينه وبين عمل المشركين الأول فرقًا؟ المشركين يقولون: نحن لا نريد إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهذه لا تنفع ولا تعطي

ولا ترفع ولا تملك، والآيات مرت معنا غير مرة دالة على ذلك، إذا لماذا تدعوهم وتطلبون منهم؟ قالوا: من أجل أن يقربونا إلى الله سبحانه وتعالى ويكونون وسطاء بيننا وبينه سبحانه.

ولهذا قال الشيخ: «فالجواب: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ»؛ أي: شبراً شبراً، ذراعاً ذراعاً، هذا نفس العمل الذي عمله الكفار الأول، وهذا نفس قول الكفار الأول، حتى إنهم عندما يُسألون يجيبون بذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ما قالوا: ما نعبدهم إلا لكوننا نعتقد فيهم أنه ينفعونا أو يدفعونا أو يرفعون أو غير ذلك، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

قال: «فالجواب: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، وَأَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية من أولها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: وسائط بيننا وبين الله تبارك وتعالى، اقرأ عليه مثل هذه الآيات.

وبهذا يكون الشيخ قد أجاب باختصار عن أكبر شبهات هؤلاء، ولا تزال هذه الشبهات هي أكبر ما عند القوم وتكرر منهم عند أي انتقاد يكون منهم على ما هم عليه من شرك وضلال وباطل.

قال رحمه الله: «وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الشُّبُهَةَ الثَّلَاثُ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ» أي: أكبر ما يحتج به هؤلاء هذه الشبه الثلاث. وتأكيداً لما سبق؛ الشيخ رحمه الله عليه عندما يقول لك: إن هذه أكبر ما عندهم؛ يقوله عن بصيرة وعلم بحال هؤلاء، ودخل معهم معترفاً طويلاً في حياة مديدة في الجهاد والنصح لدين الله تبارك وتعالى، فهذه أكبر ما عندهم، يعني أكبر الشبهات التي واجهت الشيخ رحمه الله وواجهت أيضاً المصلحين دعاة التوحيد والحق، أكبر الشبهات التي يثيرها هؤلاء هي هذه الشبهات الثلاثة.

قال: «فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ وَضَحَّهَا فِي كِتَابِهِ وَفَهَّمَهَا فَهَمًّا جَيِّدًا فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا» إذا كان أكبر ما عند القوم أطيح به بهذه السهولة واليسر من خلال كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام وفهم القرآن والسنة؛ فما بعدها من شبهات القوم أيسر من ذلك.

ثم بعد ذلك دخل رحمه الله تعالى في ذكر شبهات أخرى هؤلاء؛ لكننا نكتفي اليوم بهذا القدر.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كشف الشبهات

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٦ إلى الدرس ٩

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٦/٠١ هـ

الدرس السادس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين نبينا محمدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه كشف الشبهات:

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَهَذَا الْأَلْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ، وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ. فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تَقْرَأُ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ؟ فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْ لَهُ: بَيْنَ لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ. فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ وَلَا أَنْوَاعَهَا، فَبَيِّنْهَا لَهُ بِقَوْلِكَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فَإِذَا أَعْلَمْتَهُ بِهَذَا، فَقُلْ لَهُ: هَلْ عَلِمْتَ هَذَا عِبَادَةً لِلَّهِ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، وَالِدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَفَرَرْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَدَعَوْتَ اللَّهَ لَيْلًا وَنَهَارًا خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الْحَاجَةِ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ غَيْرَهُ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: فَإِذَا عَمِلْتَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وَأَطَعْتَ اللَّهَ وَنَحَرْتَ لَهُ هَلْ هَذِهِ عِبَادَةٌ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، فَقُلْ لَهُ: فَإِنْ نَحَرْتَ لِمَخْلُوقٍ نَبِيٍّ أَوْ حَيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ غَيْرَ اللَّهِ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقْرَأَ وَيَقُولَ: نَعَمْ. وَقُلْ لَهُ أَيْضًا: الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ، هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالصَّالِحِينَ وَاللَّاتِ وَغَيْرَ ذَلِكَ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَّا فِي الدُّعَاءِ وَالذَّبْحِ وَالْأَلْتِجَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَهُمْ مُقَرَّبُونَ أَنَّهُمْ عِبِيدُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأُمْرَ؛ وَلَكِنْ دَعَوْهُمْ وَالتَّجَنُّوا إِلَيْهِمْ لِلجَاهِ وَالشَّفَاعَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جَدًّا.

هذه شبهة يطرحها المشبه الذي ابتلي بعبادة غير الله تبارك وتعالى من حجر أو شجر أو ولي أو غير ذلك، وسبق أن ذكر الشيخ رحمه الله تعالى ثلاث شبه، ذكر أنها هي أكبر ما عند القوم من الشبهات التي يطرحونها محاصمةً منهم للتوحيد ومعاندةً منهم للحق، والشبه الثلاثة التي بدأ رحمه الله بذكرها والإجابة عنها تتلخص في:

■ الشبهة الأولى: زعمهم انتفاء الشرك مع الإقرار بتوحيد الربوبية، وسبق أن أجاب الشيخ رحمه الله عن هذه الشبهة ووجه رحمه الله بأن يُتلى عليهم من آي القرآن ما يكشف ذلك ويزيله، وسبق أيضا البيان أن الآيات التي تُتلى عليه في هذا الباب نوعان من الآيات:

أولاً: الآيات التي تُبين أن المشركين كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية، وأن هذا التوحيد وحده والإقرار به لا يكفي ولا يُنجي، لا يكفي في حصول التوحيد، ولا ينجي من عذاب الله تبارك وتعالى يوم القيامة.

والنوع الثاني: من الآيات التي تتلى عليهم هي الآيات التي تقرر توحيد العبادة وإخلاص الدين لله تبارك وتعالى.

■ والشبهة الثانية: حصرهم الشرك في عبادة الأصنام؛ عندما يُخاصَمون أو يُنتقدون في عبادتهم لغير الله سبحانه وتعالى يزعم بعضهم أن الشرك محصور في عبادة الأصنام، وسبق أيضا جواب الشيخ على ذلك، ومن أجوبته على ذلك: أن تتلو عليه الآيات التي تقرّر أنّ المشركين الأول منهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد الملائكة ، ومنهم من عبد الأنبياء ، ومنهم من عبد الأولياء ، ومنهم من عبد غير ذلك.

■ والشبهة الثالثة: زعمهم أن الكفار الأول كانوا يريدون ممن يدعوهم وأنه لا يريد منهم إلا الشفاعة، ومضى أيضا الجواب على هذه الشبهة وأن هذا هو عين فعل المشركين ، فإنهم كانوا يتخذون الأنداد والوسطاء لا يريدون منهم إلا الشفاعة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٥] ، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] .

فهذا ملخص ما مرّ معنا من شبهات ثلاث وأجوبة الشيخ رحمه الله عن ذلك مختصراً.

ثم ذكر هذه الشبهة لهم وأجاب عنها من وجهين؛ أجاب عنها أولاً بجواب وافٍ كافٍ في الإقناع وإقامة الحجة، ثم بعد ذلك ذكر جواباً آخر على هذه الشبهة وهو جواب قوي ، وهذه أيضا من طريقة الشيخ رحمه الله في هذا الكتاب؛ من طريقته رحمه الله تعالى في هذا الكتاب أنه يجيب على الشبهة بما هو كافٍ في كشفها وبيان زيفها ووهائها، ثم يعيد الكرة بجواب آخر، وهو يشير بهذا إلى أن شبه القوم يمكن كشف زيفها من وجوه كثيرة؛ فيكون ذكره للوجه أو الوجهين أو الثلاثة في هذا المختصر تنبيهاً منه رحمه الله أن كشف مثل هذه الشبهات يكون من وجوه عديدة وبأجوبة متنوعة سديدة.

قال رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ لَكَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَهَذَا الْاَلْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ» هذه الشبهة؛ إذا قال أنا لا أعبد إلا الله، معنى "لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ": أي أن عبادتي كلها لله خالصة لا أجعل معه شريكاً في شيء منها، هذا زعم يزعمه ودعوى يدّعيها، والدعوى لا بد أن يُقام عليها البيّنة، فمن يدّعي أنه لا يعبد إلا الله فإنه يجب عليه أن يكون كذلك حقاً وصدقاً؛ قول القائل: لا إله إلا الله هذه معاهدة وعهد وميثاق أن يُوحّد الله سبحانه وتعالى في العبادة وأن يُخلص لله تبارك وتعالى الدين، لا أعبد إلا الله: أي أخلص الدين كله لله ولا أجعل مع الله شريكاً في شيء من ذلك، وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»؛ لكن بعض من يقول هذه الكلمة «لا إله إلا الله» له أو أيضا هذه الكلمة بهذا اللفظ الذي ساقه الشيخ عنهم "أنا لا أعبد إلا الله" يقولها ولا يعرف حقيقة معناها، فبعضهم يقول «لا إله إلا الله» وهو لا يعرف ما نفته هذه الكلمة ولا يعرف ما أثبتته، لا يعرف الشرك الذي نفته هذه الكلمة، ولا يعرف الإخلاص والتوحيد الذي أثبتته هذه الكلمة ؛ ولهذا بعضهم يقول «لا إله إلا الله» ويثبت ما نفت وينفي ما أثبتت ، مناقضاً لهذه الكلمة ومُراغماً لما دلت عليه من التوحيد والبراءة من الشرك والخُلوص منه.

فإذا قول القائل من هؤلاء "أنا لا أعبد إلا الله" ؛ هذه دعوى لا تكفي بحد ذاتها حتى يقيم عليها برهاناً من حاله وواقع أمره بأن يقيم وجهه لله تبارك وتعالى مخلصاً، فلا يجعل مع الله تبارك وتعالى شريكاً في شيء من العبادة.

ومن يقول: "لا أعبد إلا الله" يُفترض فيه ليكون صادقاً في دعواه أن يكون على علم بحقيقة العبادة التي قال عن نفسه أنه لا يصرفها لغير الله، "لا أعبد إلا الله" أي لا أصرف شيئاً من العبادة لغير الله تبارك وتعالى، فإذا كان من يقول "لا أعبد إلا الله" يصرف شيئاً من العبادة لغير الله؛ فيكون بحثك معه وكشفك لخطئه بالطريقة التي ستأتي عند المصنف رحمه الله في جوابه لهذه الشبهة، ألا وهو: أن تبحث معه في حقيقة العبادة وأن تعرّفه بحقيقتها؛ ليتضح له أن في أفعاله ما هو مناقضٌ لقوله ودعواه ، بسبب عدم فهمه لحقيقة العبادة التي ادّعى بقوله أنه لا يصرف شيئاً منها لغير الله تبارك وتعالى. يقول: "أنا لا أعبد إلا الله" أي لا أصرف شيئاً من العبادة إلا لله تبارك وتعالى، هذا الكلام توحيد؛ لكنه من هؤلاء دعوى لا يصدّقها واقع حال هؤلاء؛ ولهذا أنظر ماذا يقول بعد قوله هذه الكلمة ؛ «يقول "أنا لا أعبد إلا الله" وَهَذَا الِاتِّجَاءُ إِلَيْهِمْ، وَدَعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ»، إذاً هو يلتجئ لغير الله ويدعو غير الله، ويُخرج الالتماء إلى غير الله ودعاء غير الله تبارك وتعالى من مفهوم العبادة، ويزعم أنه ليس داخلاً في العبادة. فمثل هذه الشبهة إذا طرحها أحد هؤلاء كيف يكون جوابك له وكشفك لشبهته؟

يقول الشيخ رحمه الله تعالى: «فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تَقَرَّرُ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ؟» تقرر بذلك؟ ماذا سيقول؟ هو بين أحد جوابين: إما أن يقول "نعم أنا أقرّ بإخلاص العبادة لله تبارك وتعالى"، وللکلام معه حينئذ مجال. أو يقول: "لا، أنا لا أقرّ بإخلاص العبادة لله تبارك وتعالى، وأنه يجوز أن يُصرف شيءٌ من العبادة لغيره تبارك وتعالى"، فهذا أيضاً للكلام معه مجال آخر؛ وهو أن عدم إقراره بإخلاص العبادة لله نقضٌ لقوله: "أنا لا أعبد إلا الله".

فيقول: «إذا قلت له أنت تقرر أن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله فإذا قال : نعم» ، أي نعم أنا أقر بأن الله افترض عليّ إخلاص العبادة له ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ويقول جل وعلا: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ومعنى الخالص: الصافي النقي ، ومعنى إخلاص العبادة لله : أن يُفرد وحده تبارك وتعالى بالعبادة فلا يُجعل معه شريك في شيء منها ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨] ؛ هذا هو معنى الإخلاص في العبادة أن تُجعل العبادة كلها لله ، والخالص: هو الصافي النقي ، فتكون العبادة من العابد صافية نقية لم يرد بها ولا بشيء منها إلا الله سبحانه وتعالى .

فتبدأ معه الحديث بقولك : هل تقرر بأن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله ؟ ويمكن أن تتلو عليه بعض الآيات: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] تقرر بذلك؛ أن العبادة حق لله و أنها يجب أن تخلص له تبارك وتعالى وأن لا يصرف شيء منها لغيره ، تقرر بذلك ؟ فإذا قال لك نعم ؛ تنتقل معه إلى بيان حقيقة العبادة .

ولاحظ هنا يقرر الشيخ رحمه الله طريقة بديعة جداً في مناقشة الخصم وإلزامه إلزامات قوية لا مفر له منها ، فهنا أتى الشيخ رحمه الله في جوابه للخصم من شيء يقر به الخصم ، إذا قال لك نعم معناه فيه قاعدة يقر بها الخصم وتكون منطلق لك في مناقشته ، وهذا الذي طرحه الشيخ لا يمكن للخصم أن يرفضه أو ينفيه ، عندما تقول له هل تقرر بأن العبادة يجب أن تخلص لله وأن الله افترض علينا إخلاصها له وتقرأ عليه ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ما يقول لك أنا لا أقر بذلك ، بل في الغالب والله تعالى أعلم أنه سيقول نعم أنا أقر ، فإذا أصبح بينك وبينه أمر يقر به فتنتقل من خلاله لإقامة الحجة عليه وإزالة الشبهة عنه .

«فقل له : بين لي هذا الذي فرضه الله عليك ، وهو إخلاص العبادة لله وهو حقه عليك» طالبه أن يبين لك هذه العبادة التي هو يقر بأن الله افترض عليه أن يخلصها له ، قل له إن عرفت العبادة وبيّنت لي حقيقتها فمعرفتك بما وبحقيقتها هو الذي في ضوئه يمكن أن نعرف إمكانية الإخلاص من عدمه ، لأن فاقده الشيء لا يعطيه ، وكيف يتحقق منه أن يخلص لله وهو لا يعرف هذا الشيء الذي سوف يخلصه أو يجعله خالصاً لله!! فإذا تبحث معه حينئذ في حقيقة العبادة.

قال : «فقل له بين لي هذا الذي فرضه الله عليك وهو إخلاص العبادة لله ، وهو حقه عليك» ؛ "فرضه الله عليك وهو إخلاص العبادة" هذا دليله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ، وقوله "وهو حقه عليك" دليله حديث معاذ ((أتدري يا معاذ ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟)) والحديث معروف وهو في الصحيحين ، ومنه سمى رحمه الله تعالى كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» .

قال : «فإنه لا يعرف العبادة ولا أنواعها» ، لو قلت له بين لي العبادة ، عرف العبادة ، ما هي العبادة ؟ ستجد أنه لا يعرف العبادة ، إما أن يعرفها تعريفاً خاطئاً ، أو أن يعرفها تعريفاً ناقصاً ، أو أنه سوف يخرج في تعريفه لها ما هو داخل في حقيقتها مثل ما هو واضح في كلامه كلام الخصم "أنا لا أعبد إلا الله و الالتجاء ليس عبادة" ، فسترى فيه خللاً في هذا الجانب وهو فهم معنى العبادة . فما هي الطريقة التي تناقشه فيها من أجل إلزامه ؟ لأنه لاحظ الآن قال لك: "أنا ألتجأ إلى غير الله ، أدعو غير الله وهذا الالتجاء وهذا الدعاء ليس عبادة" ، أنت من خلال هذا عرفت أن مفهوم العبادة عنده فيه خلل ، فأنت تبدأ -مثل ما سيوضح لك الشيخ رحمه الله- تبدأ تناقشه في هذا تقول به بين لي معنى العبادة ، أول ما تبدأ معه في مناقشته في هذه الشبهة بعد أن تقرره في هذا الأصل وهو أن الله افترض علينا إخلاص العبادة له وأنها حق لله سبحانه وتعالى على العباد ، يقول نعم أقر بذلك ، قل له : ما هي العبادة ؟ وسترى في جوابه الخلل ، أو ربما لا يجيب ، بعضهم لو تقول له ما هي العبادة؟ ما يحسن أن يجيب ، ما يحسن أن يأتي بكلمة واحدة ، وخاصة الجهال والعوام ما يحسن أن يأتي بأي كلمة ، وبعضهم ربما أنه يأتي بجواب ناقص بحيث أنه يخرج من مفهوم العبادة ما هو داخل فيها . فالشيخ رحمه الله

عنده طريقة هنا عظيمة وعجيبة جدًا في تفهيمه لمعنى العبادة ؛ أن تبدأ معه في بيان للعبادة من خلال بعض أفراد العبادة التي تعلم أنت مسبقا أنه يصرفها لغير الله تبارك وتعالى ، أو يصرف شيئًا منها لغير الله. فتبدأ تبحث معه بهذه الطريقة .

يقول الشيخ : «فإنه لا يعرف العبادة ولا أنواعها ، فبين له بقولك: قال الله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]»؛ لماذا أتى الشيخ بهذه الآية ؟ لأنها دليلٌ صريحٌ واضح بين أن الدعاء عبادة ، وهو قبل قليل قال لك "دعائهم ليس بعبادة" ، فأنت تأتي بآيات صريحة في أن الدعاء عبادة ؛ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ هذا واضح أن الدعاء عبادة من جهة أمر الله سبحانه و تعالى به ، ودلالة الآية على حبه لأهل الدعاء المخلصين له ورضاه عنهم قال ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ؛ مفهوم الآية أن من يدعو الله مخلصا له سبحانه وتعالى يحبه الله جل وعلا لأنه يقوم بطاعة عظيمة ، وفي الحديث ((ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء))، وفي الحديث الآخر ((من لم يسأل الله يغضب عليه)) ، فالله سبحانه و تعالى يحب الدعاء ويجب عباده الداعين، والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

ولك أيضا أن تتلو عليه آيات أخرى في الباب مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] سمي الله عز وجل الدعاء عبادة ، ولهذا لما قال نبينا عليه الصلاة والسلام على المنبر كما في حديث النعمان بن بشير في السنن وفي المسند قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول : ((إن الدعاء هو العبادة)) وتلا قول الله جل وعلا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ . أيضا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦٠] فسمى تبارك وتعالى الدعاء عبادة ، والأدلة على هذا المعنى كثيرة .

فأنت أورد له الآيات ، وكلما جمعت له أكبر قدر من الآيات فهذا فيه شفاء بإذن الله تبارك وتعالى إن كتب الله له هدايةً ، ولهذا تحرص على أن تأتي له بعدد من الآيات التي تقرر ذلك ، مثل قوله : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧] ، وقوله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا

يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴿١٣-١٤﴾ [فاطر: ١٣-١٤] سمي جل وعلا صرف الدعاء لغيره شرًا ، أيضا قوله ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [سبا: ٢٢] ، وقوله ﴿ وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ آيات كثيرة في هذا المعنى . اقرأ عليه ما يتيسر لك من الآيات التي تحفظها في هذا الباب .

وأذكر مرة قصة سمعها مني غالب الأخوة ؛ رجل عربي جمعي به جلوسي في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام وكان جالسا عن يساري ورافعا يديه يدعو ، وأنا كنت أقرأ في القرآن فكان رافعا يديه يدعو وأخذ يبكي بكاء مؤثرا ، ثم سمعته يرفع صوته في الدعاء يا رسول الله يا رسول الله ويناجي ، كان بكاءه ومناجاته دعاء للرسول عليه الصلاة والسلام ، فالتفت عليه وأخذت أسأله عدة أسئلة؛ عن بلده وعن صحته وعن أولاده وأنا مبتسم وأسأله أسئلة عديدة أريد أن يلتفت إليّ ويصغي إلى ما أقول ، وفي الغالب أن الابتسامة والملاينة والملاطفة ما تجعل من أمامك ينفر من كلامك ، وهذا الشيء محرج ومعروف ، فأسأله عن سفره لعلك ما تعبت اعتمرت أو لم تعتمر إلى آخره الأسئلة المعروفة ، ثم قلت له الدعاء أمر عظيم وإذا كان الإنسان يدعو ويبكي هذا أعظم وأعظم ، عندما يخشع الإنسان في دعائه ويناجي ويلج ، وبدأت أذكر أدلة في فضل الدعاء ومكانة الدعاء ؛ فوافقت هذه الأشياء حاجة في نفسه ، هو عنده طلبات ورغبات فاستدار ، كان معطيني جنبه وكان يريد أن يتخلص مني حتى يستمر فاستدار ، ثم انتقلت معه إلى ذكر الآيات التي تقرّر أن الدعاء عبادة وأنها حق لله سبحانه وتعالى ، أوضح له إياه باختصار شديد ، فذكرت له آيات كثيرة جدا ، ثم انتقلت من الآيات إلى الأحاديث مثل ((إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله)) ، و كان عليه الصلاة والسلام إذا أتى له بمريض قال: ((اللهم رب الناس أذهب البأس واشف أنت الشافي)) ، وذكرت له شيء من أدعيته هو عليه الصلاة والسلام ومناجاته لله وأشياء من هذا القبيل ، لما انتهيت قل له : فهمت هذا الكلام ؟ واضح لك ؟ قال : نعم ، قلت له : ما رأيك ؟ السؤال فيه شيء من الخطأ لكنني متقصد لهذا السؤال قلت له ما رأيك ؟ قال لي كلام دكرني بكلام للشافعي رحمه الله قال لي : تقرأ عليّ آيات وأحاديث وتقول لي ما رأيك ؟ أنا ذكرني كلامه هذا بكلام للشافعي رحمه الله أن سائلا مرة سأله عن مسألة فذكر الشافعي رحمه الله حديثا فقال ما رأيك ؟ فغضب رحمه الله قال: "هل رأيتني خارجا من كنيسة ؟ هل رأيت الصليب على صدري ؟ هل رأيت زجاجة الخمر في يدي ؟ أقول لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول ما رأيك!!" فهذا الرجل ذكرني والله بكلمة الشافعي رحمه الله تعالى ، قلت له معذرة أنا سمعتك في دعائك تقول كذا وكذا وكذا ، ولهذا قلت لك ما رأيك ؟ لأن هذا الدعاء يدل على أن فيه رأي مخالف لهذه الآيات وهذه الأحاديث ، فماذا قال لي ؟ قال لي كلام مؤلم جدا ، قال أنا من بلد كذا -وسمى لي بلده- وما أحد قال لي الكلام هذا ، يعني منذ نشأ ومن حوله أئمة ضلال زينوا له دعاء غير الله ولبسوا عليه وشبهوا عليه

ونشأ على هذه الحال يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويستنجد بغير الله ، ولما تليت عليه آيات القرآن وُئيت له ووضح له معناها قبلها بكل ارتياح وكل طمأنينة.

فيقول الشيخ رحمه الله : «فبينها له بقولك قال الله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فإذا أعلمته بهذا»؛ انتبه لهذه الكلمة «فإذا أعلمته بهذا» ، إذا أعلمته أي إذا بينت له وفهمته ووضحت له أن الدعاء عبادة وأنه حق لله وتلوت عليه من الآيات ما تقيم عليه بها الحجة ، وواحدة من هذه الآيات كافية في ذلك مثل ما قرر الشيخ رحمه الله اكتفى بآية واحدة .

«فإذا أعلمته بهذا فقل له : هل علمت هذا عبادة لله ؟» هل علمت هذا أي الدعاء عبادة لله ؟ أي يجب إخلاصها له وأن لا يجعل معه شريك فيها ؟

«فلا بد أن يقول نعم» إن قال لك لا في هذا المقام ، فقل له لا في هذا المقام مصادمة صريحة لكلام الله سبحانه وتعالى وللآيات البينات والحجج الواضحات ، فلا بد أن يقول نعم ، والدعاء مخ العبادة أي خالصها ، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام ((الدعاء هو العبادة)) أي خالص العبادة ولب العبادة .

«فقل له : إذا أقررت أنها عبادة - إذا أقررت بأن الدعاء عبادة يجب أن تُخلص لله ، إذا أقررت بذلك - ودعوت الله ليلا و نهاراً خوفاً و طمعا ثم دعوت في تلك الحاجة نبياً أو غيره ، هل أشركت في عبادة الله غيره أو لا ؟ لا بد أن يقول نعم» مثل لو قلت له : لو أقررت أن السجود عبادة وسجدت لله وأقمت السجود لله وحصل منك السجود في الليل و النهار ، لكنك سجدت أيضا لغير الله ، ماذا يكون عملك هذا ؟ فإذا أقررت أن الدعاء عبادة وأن العبادة حق خالص لله ودعوت الله ليلا ونهارا ثم دعوت مع الله غيره تكون بذلك جعلت مع الله شريكا ، ﴿وَأَنِ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أي لا تجعلوا مع الله شريكا .

قال : «إذا أقررت أنها عبادة و دعوت الله ليلا و نهاراً خوفاً و طمعا ثم دعوت في تلك الحاجة نبياً أو غيره ، هل أشركت في عبادة الله غيره ؟ فلا بد أن يقول نعم» ، هذا الآن تعريف للعبادة واستدلال على هذا التعريف بالقرآن بذكر فردٍ من أفرادها ، فلا بد أن يقول نعم . لك حينئذ أن تتلو عليه بعض الآيات التي تنهى عن الشرك ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الحل: ٥١] ، ما دمت تقرر أن الدعاء عبادة و أنها حق لله فلا تجعل إلهين ، لا تتخذ معبودين ، الله عز وجل تدعوه وأيضا نبيا أو وليا أو غير ذلك تدعوه مع الله جل وعلا ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي معبود واحد ، يجب أن يصرف له وحده تبارك وتعالى العبادة بجميع أنواعها.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعريف للعبادة آخر بذكر فرد من أفرادها وهو النحر ، والنحر عبادة وقربة لله كما يدل على ذلك الآية التي ذكر ، وأيضا قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَسُكِّيْتُ وَمَحَيَّيْتُ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]

قال : «فقل له فإذا عملت بقول الله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ ﴾ [الكوثر: ٢] وأطعت الله ونحرت له ، هل هذا عبادة؟ فلا بد أن يقول نعم» ، اقرأ عليه ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ ﴾ ، اقرأ عليه ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَسُكِّيْتُ وَمَحَيَّيْتُ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وقل له لو اشتريت إليك ذبيحة وجئت وقلت "بسم الله" وذبحتها متقربا بها إلى الله وأكلت منها و تصدقت ، هذا العمل عبادة أو ليس عبادة ؟ والله أمرك به ، قال ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ ﴾ أي لربك، وضم ذكر النحر إلى ذكر الصلاة ، فكما أنه لا يجوز أن تصلي إلا لله ، لا تسجد ولا ترقع إلا له فكذلك لا يجوز أن تذبح أو تنحر إلا له تبارك و تعالى . والنحر أعظم العبادات المالية.

قال : «فإذا عملت بقول الله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ ﴾ وأطعت الله ونحرت له هل هذا عبادة ؟ فلا بد أن يقول نعم ، فقل له فإن نحرت إلى مخلوق نبي أو جني أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله ؟ لا بد أن يقر ويقول نعم» ؛ إن لم يقل نعم ناقض هذه الآيات البينات . أيضا العبادات الأخرى ، ونضرب بمثال ثالث إضافة إلى ما ذكر الشيخ وهي عبادة الالتجاء ، لأن السائل أو المخالف يقول "وهذا الالتجاء إليهم ودعائهم ليس عبادة" ، الالتجاء عبادة وهو طلب عون من الله ، اللجوء إلى الله عبادة يُطلب فيها عون الله سبحانه و تعالى ، اللجوء إلى الله فرار إلى الله ؛ وهذه عبادة ، وقد جاء في حديث البراء في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم المسلم الدعاء الذي يقوله عندما يأوي إلى فراشه لينام : ((اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت)) ؛ هذا دعاء علمه النبي صلى الله عليه وسلم أمته وكان يقوله إذا أوى إلى فراشه ، هو نفسه عليه الصلاة والسلام يقول ((لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك)) ، ما معنى لا ملجأ إلا إلى الله ؟ هذا توحيد ، لا ملجأ إلا إلى الله : أي ليس هناك من يُلجأ إليه ويُعتمد عليه ويتوكل إليه ويفوض الأمر إليه إلا الله ، فقوله «لا ملجأ و لا منجأ منك إلا إليك» هذا توحيد ، ضده ما هو ؟ هذا الذي يقوله القائل "واللجوء ليس عبادة" هذا مناقضة لقول النبي صلى الله عليه وسلم المتكرر كل ليلة عندما يأوي إلى فراشه ((لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك)) ، وإذا كان يلتجئ إلى النبي عليه الصلاة والسلام لك أن تقول له : هذا الذي تلتجئ إليه كل ليلة إذا أوى إلى فراشه يقول ((لا ملجأ و لا منجأ منك إلا إليك)) يخلص اللجوء إلى الله ؛ فكيف تجعل من يخلص لجوئه إلى الله نداً لله تلجأ إليه!! فاللجوء عبادة لا يجوز أن يصرف إلا لله تبارك و تعالى . ولهذا ينبغي أن تلاحظ في مثل هذه الأجوبة أن

تكون أنت مرتبط بالقرآن والحديث ، تقرأ عليه الآيات والأحاديث التي تكشف ضلال هؤلاء وتبين زيف شبهاتهم

قال : «وقل له» ، الآن الجواب الذي مضى هذا جواب مقنع وكافي في إزالة الشبهة ، لكن أعاد الكرة بجواب آخر مسدد في كشفها ، وهو ينبهك هنا ينبّه طالب العلم أن كشف الشبهات متيسر و متهيؤ لمن ارتبط بالقرآن من خلال وجوه كثيرة و أجوبة عديدة .

قال : «وقل له أيضا : المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك ؟ فلا بد أن يقول نعم» ، إن قال لك "لا" ماذا تفعل ؟ الشيخ يقول لا بد أن يقول نعم ، إن قال لك لا لم يكونوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين ماذا تصنع ؟ تقرأ عليه الآيات التي قريبا ذكرها الشيخ رحمه الله وتقرر أن المشركين الأول منهم من كان يعبد الملائكة ومنهم من كان يعبد الأنبياء ومنهم من كان يعبد الصالحين .

فيقول الشيخ : «قل له هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك ؟ لا بد أن يقول نعم ، فقل له حينئذ قل له هل كانت عبادتهم إياهم هل كانت إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك ؟ وإلا فهم مقرون أنهم عبيده» ، افرض أنك قلت له هل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك وقال "لا لم تكن عبادتهم في الدعاء" ماذا تصنع ؟ تقرأ عليه الآيات التي تدل دلالة واضحة صريحة أن عبادتهم لهم كانت في الدعاء وكانت أيضا في الذبح وكانت أيضا في الالتجاء ، اقرأ عليه الآيات التي تقرر ذلك ، مثل ما مر معنا ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ ، ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ اقرأ عليه هذه الآيات وهي صريحة أن من ضمن العبادات التي كانوا يصرفونها لغير الله الدعاء ، ومن ضمن العبادات التي كانوا يصرفونها لغير الله الذبح ، كانوا يذبحون لله ويذبحون لغير الله ﴿ فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ [الأنعام: ١٣٦] ، فكانوا يذبحون لله ويذبحون أيضا لغير الله ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((لعن الله من ذبح لغير الله)) ، فتقرأ عليه الآيات التي تدل أن هؤلاء كانوا يعبدون غير الله بالدعاء ويعبدون غير الله بالذبح ويعبدون غير الله بالالتجاء .

يقول الشيخ : «فقل له : هل كانت عبادتهم إياهم إلا بالدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك؟» هو بين إما أن يقول لك نعم ، أو يقول لا ، إن قال "نعم" خصمته بذلك وكشفت باطله ، و إن قال "لا" فإنك تقرأ عليه من الآيات ما أشرت إلى بعضه .

قال : «فقل له هل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك؟ وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره» ؛ وإلا فهم أي المشركون الأول مقرون أنهم عبيده ؛ ما معنى هذه الكلمة ؟ المشركون الأول

مقرون أنهم عبيد الله ، العبودية لله نوعان : عبودية لربوبيته وعبودية لألوهيته . فقلوه "مقرون أنهم عبيده" أي لربوبية الله ؛ بمعنى أنه ربحهم خالقهم رازقهم محييهم مميتهم المتصرف فيهم ، مقرون بذلك ، يقرون أنهم عبيد لله أي ممالك له ، بل يقرون أن من يعبدونهم من دون الله أيضا ممالك لله وعبيد له ، مثل ما في تلييتهم «لييك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» ، تملكه أي مملوك لك تحت قهرك وتصرفك وتديريك ، تملكه وما ملك ؛ فيقرون أنهم عبيد لله وتحت قهر الله ، ويقرون أن من يدعونهم من دون الله أيضا كذلك عبيد لله وتحت قهره جل وعلا . «وإلا فهم مقرون أنهم عبيده» العبودية هنا للربوبية ، وليس المراد بها العبودية لألوهيته في مثل قوله ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] وإنما المراد بعبيده هنا في مثل قوله ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مرم: ٩٣] أي ذليلاً خاضعاً لله .

قال : «وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره وأن الله هو الذي يدبر الأمر» هذا الإقرار مقرون أنهم عبيده وتحت قهره وأن الله هو الذي يدبر الأمر ؛ هذا الإقرار هو توحيد الربوبية الذي كان يقر به المشركون لكن عرفنا أنه لا يكفي ولا ينجي ، ما معنى لا يكفي ولا ينجي ؟ لا يكفي في كون العبد موحداً ، ولا ينجي أي من النار وعذاب الله سبحانه وتعالى ، فهو لا يكفي ليكون به العبد موحداً ، ولا ينجي أيضا من عذاب الله جل وعلا يوم القيامة ، وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره وأن الله هو الذي يدبر الأمر .

«ولكن دعوهم و التجؤوا إليهم للجاء والشفاعة» ، ولكن دعوهم أي المشركون الأول دعوا هذه الأصنام والتجؤوا إليها من أجل ماذا ؟ للجاء والشفاعة ؛ وهذا ظاهر جداً من حالهم ، فإذا ما الفرق بين حال هذا الذي يقول "أنا لا أعبد إلا الله وهذا الالتجاء إليهم ودعائهم ليس بعبادة" ، ما الفرق بين حاله وبين حال المشركين الأول؟!

فإذاً بكل من هذين الجوابين انكشفت هذه الشبهة وزال وظهر عوارها.

قال رحمه الله تعالى :

فإن قال أتكر شفاعَةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ منها ؟ فقل : لا أنكرها ولا أتبرأ منها. بل هو صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع ، وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعَة كلها لله تعالى كما قال تعالى : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٤٤] ، ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ولا يُشفع في أحدٍ إلا من بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] ، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى : ﴿

وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥] . فإذا كانت الشفاعة كلها لله ، ولا تكون إلا من بعد إذنه ، ولا يشفع النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد ؛ تبين لك : أن الشفاعة كلها لله ، وأطلبها منه فأقول : اللهم لا تحرمني شفاعته ، اللهم شفّعه في ، وأمثال هذا .

ثم ذكر رحمه الله تعالى شبهه أخرى لهؤلاء : «فإن قال اتكر شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ منها؟ فقل : لا انكرها ولا اتبرأ منها ، بل هو الشافع المشفع وأرجو شفاعته» ؛ هذه الآن شبهه أخرى للقوم .
أريد أن أنبه هنا قبل الدخول في هذه الشبهة والجواب عليها إلى أمرين:

❖ الأمر الأول : الشيخ رحمه الله يذكر لك هذه الشبهات بعد المقدمات التي نفعلك الله سبحانه وتعالى بها على افتراض أن تُطرح عليك أو يُطرح عليك قريب منها ، لكن لا يلزم أن يطرح عليك كل واحد من هؤلاء المبتلين بهذا الباطل مثل هذه الشبهات ؛ فكثير منهم يكون دخل في الباطل وليس في ذهنه عندما دخل هذا الباطل إلا شبهه أو شبهتين أدخلته في الباطل ، وبعضهم ممتلئ بالشبهات ؛ ولهذا من يقع في هذا الباطل بعضهم عنده شبهة شبهتين ثلاث أدخلته في الباطل ، فإذا كشفتها عنه زال عنه الاشتباه . وبعضهم يكون ممتلئ بشبهات كثيرة؛ فمثل هذا ربما يستمر معك في المناقشة وقتاً طويلاً إلى أن ينقطع . أما بعض هؤلاء فجواب أو جوابين مما مر كافي بإذن الله إلى حصول الاقتناع والرجوع إلى الحق والهدى . لكن طالب العلم يحتاج أن يكون مسلح بهذا العلم الرصين والكلام المتين ، حتى في أي حال من الاحوال يكون عنده نفس في كشف شبهات القوم .
وإذا ضبطت هذا الكتاب بإذن الله ضبطاً متقناً تستطيع بإذن الله أن تجيب على جُل الشبهات التي يطرحها هؤلاء لأنها إما أن يكون وضعها مجرد اختلاف العبارة وطريقة الطرح ، أو أشياء من هذا القبيل . فالشيخ يذكر لك هذه الأنواع ويجب عليها لتكون سلاحاً لك ، ولا يلزم من ذلك أن كل من تلقاه ممن يقع في هذا الشرك أن يكون على معرفه بهذه الشبهات . ولهذا بعضهم كما ذكرت لك عنده شبهة أو شبهتين أو ثلاث أو أربع وينتهي كل ما عنده من شبهات ، فإذا أزلتها بمثل هذه الحجج البينة اتضح له الحق . وبعضهم عنده شبهات أكثر ، وبعضهم معاند ومكابح يعرف أن الذي عندك هو الحق لكنه لا يقبله منك ؛ إما خشية ضياع رئاسة أو ضياع جاه أو ضياع أشياء من هذا القبيل ، لا يلزم من ذلك أن يكون الأمر مشتبهاً عليه . فإذا مراد الشيخ أن تكون مسلحاً ، لا يلزم كما قلت لك أن كل من تلقاه من هؤلاء عنده مثل هذه الشبهات بمثل هذا الكم أو بمثل هذا العدد .

❖ الأمر الثاني مما أنبه إليه : هو ارتباط الشيخ رحمه الله الواضح بكتاب الله عز وجل وبسنة النبي عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا تراه في كشف الشبهات كل ما يأتي به من كشفٍ لشبهة يأت بآيات ؛ آية أو آيتين كافيه في إزالة الشبهة ، وهذا من علاج الأمراض التي تكون في الناس بالقرآن، والله عز وجل وصف القرآن بأنه شفاء؛

شفاء لكل الأمراض ، وأعظم الأمراض الشرك ، والقرآن شفاء ، ولهذا يحتاج هؤلاء أن يداووا ويعالجوا بالقرآن الكريم ، تُقرأ عليهم الآيات وتبين لهم معانيها وتوضح ولعل الله سبحانه وتعالى يجعل فيها شفاء لأمراض هؤلاء . قال : « **فإن قال : أتنكر شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتبرأ منها؟** » وهذه طريقه معروفة عند هؤلاء أنهم يحاولون إظهار الشناعة والتشنيع على أهل التوحيد ، فيأتي في مثل هذا المقام ويقول : أنت تنكر شفاعته النبي عليه الصلاة والسلام ! أو ربما قال لك : أنت تنكر جاهه ومكانته عند الله ! أو ربما قال لك : أنت تنكر فضل الأولياء ومكانة الأولياء عند الله ومنزلة الأولياء عند الله ! ربما يقول لك هذا الكلام ؛ فبماذا تجيبه؟

قال : « **فإن قال : أتنكر شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتبرأ منها!** » معنى تتبرأ منها : تقول إنني أبرأ من كون النبي صلى الله عليه وسلم شفيعا؛ هل تنكرها وتتبرأ منها ؟

« **فقل لا أنكرها ولا أتبرأ منها** »؛ لا ينكر الشفاعته إلا ضلال الخلق ، ولا ينكر أن النبي عليه الصلاة والسلام إلا الكفار من اليهود والنصارى أو ضلال الفرق المبتلة ، أهل الضلال والباطل . قل لا أنكرها ، وإذا تريد أن أقرأ عليك من الآيات والأحاديث التي تقرر كونه عليه الصلاة والسلام شفيعا قرأت عليك مما تعرفه وما لا تعرفه ، تريد أن اذكر لك من الآيات التي تثبت أنه عليه الصلاة والسلام شفيعا وأنه أُعطي الشفاعته وأنه الشافع المشفع ؟ هذا أمر لا ينكره من يعرف القرآن والسنة ، ولا يتبرأ منه من يعرف القرآن والسنة ، وحاشا أن ننكر أنه عليه الصلاة والسلام شفيعا . هم بهذا نوع من المغالطة لإظهار الشناعة على أهل الحق . "تنكر الشفاعته!"

هو عندما يقول لك : تنكر الشفاعته يقولها لماذا؟ لأن مفهومه للشفاعة مفهوم خاطئ . ولما رآك لا تفهم الشفاعته على فهمه هو للشفاعة أظهر الشناعة بقوله "تنكر الشفاعته!" ؛ ما الذي يفهمه هو من الشفاعته ؟ يفهم من الشفاعته المعنى الذي أنكره الله على المشركين ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] الذي يفهمه من الشفاعته هو هذا المعنى: اتخاذ الأنداد من الأنبياء أو الأولياء أو الملائكة ودعائهم وسؤالهم وإذا قيل له لماذا ؟ يقول : هؤلاء شفعاء لنا عند الله وسطاء لنا عند الله يقربونا إلى الله سبحانه وتعالى . فلما كان مفهومه للشفاعة مغلوطا قال هذه المقالة «تنكر الشفاعته وتتبرأ منها؟» .

« **فقل له : أنا لا أنكر الشفاعته ولا أتبرأ منها** » بل الشفاعته ثابتة وحق وأثبتها الله سبحانه وتعالى في القرآن ، وأثبتها النبي عليه الصلاة والسلام في السنة ، وهو عليه الصلاة والسلام أعطي الشفاعته ، وهو أعظم شافع صلى الله عليه وسلم ، وهو الشافع المشفع صلوات الله وسلامه عليه ، فلا أنكر ذلك ، وله الشفاعته العظمى يوم القيامة ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ، وله شفاعات اختص بها ؛ يشفع لأهل الجنة في أن يدخلوا الجنة ، وله شفاعات يشاركه فيها الانبياء والملائكة والصالحين ، لا أنكر ذلك ؛ ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ هذا للتكثير ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

وَيَرْضَى ﴿النجم: ٢٦﴾ ، الشفاعة ثابتة لا أنكرها ولا أتبرأ منها بل هو صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع وأرجو شفاعته؛ أرجو: أي من الله سبحانه وتعالى ، لأن شفاعته عليه الصلاة والسلام لمن يشفع له بإذن الله وبإيد الله ، وهي ملك لله سبحانه وتعالى. وأرجو شفاعته : أي أسأل الله عز وجل أن يجعله شفيعا لي يوم القيامة .
الآن بهذه الكلمتين «لا أنكرها ولا أتبرأ منها ، بل هو صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع وأرجو شفاعته» تكون أزلت ما أرادته من الشناعة على صاحب الحق .

ولو قال لك: تنكر جاهه ماذا تقول؟ أبرأ الى الله ان أنكر جاهه ، من الذي ينكر جاه النبي عند الله؟ إذا كان الله سبحانه وتعالى قال عن موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] ، وقال عن عيسى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] ، ونبينا عليه الصلاة والسلام جاهه عند الله أعظم جاه ، ومكانته عند الله أعظم مكانه ، ومنزلته عند الله أعظم منزله. من الذي ينكر مكانه وجاهه ومنزلته! لا أنكر ذلك.

«ولكن الشفاعة كلها لله»؛ انظر الى التوحيد ، الشفاعة كلها لله ، ما معنى الشفاعة كلها لله؟ أي ملك لله. نبينا عليه الصلاة والسلام لما قال في الحديث الصحيح ((أعطيت الشفاعة)) من الذي أعطاه إياها ؟ مالكها رب العالمين سبحانه وتعالى. ((أعطيت الشفاعة)) : يعني أعطاني الله عز وجل الشفاعة. وفي الحديث الآخر في صحيح مسلم قال عليه الصلاة والسلام : ((لكل نبي دعوه مستجابة ، وإني أدخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، وإنها نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا)).

فقوله رحمه الله : «ولكن الشفاعة كلها لله» ضع على قوله (ولكن الشفاعة كلها لله) رقم واحد ، لأنه سيأتي أجوبه متسلسلة مترابطة بمجموعها هي تتعري شبهة هؤلاء ، وكل واحد مبنية على ما قبلها.

«ولكن الشفاعة كلها لله» هذا أمر أول تبينه له؛ الشفاعة كلها لله ، كلها أيًا كانت ولمن كانت الله سبحانه تعالى، ومعنى «لله»: أي ملك له كما قال تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] ، وباتفاق المفسرين من أهل الحق والبصيرة بكتاب الله اللام لام الملك ، ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ : أي ملك لله ، مثل قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ : أي هو المالك سبحانه وتعالى لما في السموات والأرض ، كل ما في السموات والأرض ملكه. ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ : أي الشفاعة كلها ملك لله ؛ هذا واحد الشفاعة كلها لله ، الدليل: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ .

هذه الآية وردت في سياق قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كُنَّا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤] ؛ ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ الآن المقام إبطال ما عليه

المشركين من اتخاذ الشفعاء والأنداد ، ففي هذا السياق قال الله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي الشفاعة كلها ملك لله سبحانه وتعالى ؛ قال الله جل وعلا ذلك في إبطال دعوى المشركين في اتخاذ الأنداد مع الله زاعمين أنهم شفعاء لهم عند الله فأبطل الله ذلك عليهم بقوله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ ؛ فمن اتخذ ندًا مع الله تعالى يدعوه ويلتجئ إليه أيًا كان هذا الند ثم قال "أنا أريد بذلك أن يكون شفيعًا لي عند الله" ؛ اقرأ عليه قول الله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ : أي الشفاعة كلها ملك لله . هذا الأمر الأول.

الامر الثاني: قل له «ولا تكون إلا من بعد إذن الله» ؛ أي لا يمكن لأحد كائنا من كان أن يشفع عند الله ابتداءً ، لا يمكن لأحد كائنا من كان لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا ولي ولا غيرهم ، لا يمكن لأحد كائنا من كان أن يشفع عند الله ابتداءً ، بل لا أحد يشفع عند الله إلا إذا أذن الله له ، ولهذا نبينا عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين يخبر يوم القيامة ساجدًا تحت العرش ويحمد الله بمحامد يعلمه الله إياها في ذلك الوقت ، ثم يقول له رب العالمين : ((ارفع رأسك وسل تعطى واشفع تشفع)). فهل يشفع ابتداءً ؟ أبدا . لا ، ليس أحد يشفع عند الله حتى أكرم الشفعاء وأعظمهم نبينا عليه الصلاة والسلام لا يشفع عند الله إلا من بعد إذن الله . قال : «ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] » هذا الأمر الثاني.

الأمر الثالث : «ولا يُشَفِّعُ فِي أَحَدٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهِ» ؛ بعد أن يأذن الله فيه : أي في هذا المشفوع له ؛ والمراد أن يرضى الله عن المشفوع له ، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

إذا الآن مر علينا أمور ثلاثة في الشفاعة:

- ١ . الشفاعة ملك لله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] .
 - ٢ . ولا أحد يشفع عند الله إلا إذا أذن الله له ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .
 - ٣ . الأمر الثالث : أنه لا أحد يُشَفِّعُ له عند الله إلا إذا رضي الله عنه ؛ رَضَاهُ سبحانه وتعالى عن المشفوع له ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] .
- وجمع الله سبحانه وتعالى بين الإذن والرضى في قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي للشافع ﴿وَيَرْضَى﴾ أي عن المشفوع له .

الأمر الرابع : قال «وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد ، كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يُبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]» ، والصحابة رضي الله عنهم كانوا يدركون هذه الحقيقة في باب الشفاعة؛ أن شفاعة النبي عليه

الصلاة والسلام لا ينالها كل أحد ، ولهذا جاء في صحيح مسلم أن أبا هريرة رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : «من أولى الناس بشفاعتك يوم القيامة؟» ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ ((من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه)) ، لأن التوحيد أساس لا بد منه ليكون العبد بذلك مؤهلاً لأن يشفع له الشفعاء يوم القيامة ، ومن يأتي يوم القيامة مشركاً متخذاً الانداد والشركاء بأي اسم كان وبأي صفة كانت ، من جاء على هذه الهيئة ليس أهلاً لأن يشفع له لأن الله لم يرضَ قوله ولا عمله . الأدلة دلت أن الله سبحانه وتعالى لا يرضى إلا عن أهل التوحيد والدليل ﴿وَمَنْ يُتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، أيضاً قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] . واعتبر في هذا الباب قصة إبراهيم الخليل عليه السلام في صحيح البخاري ، قال عليه الصلاة والسلام : ((يلقى إبراهيم الخليل أباه يوم القيامة فيقول له: ألم أقل لك لا تعصني؟ قال: الآن لا أعصيك . قال فيقول إبراهيم : يا رب ألم تعدني ألا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد! فيقال له انظر إلى قدميك ، فينظر وإذا بذخ - يعني تتحول هيئة والده إلى ذبخ ، والذبخ ذكر الضباع - ويؤخذ بقوائمه ويطرح في النار)). فالشاهد أن الله سبحانه وتعالى لا يرضى إلا عن أهل التوحيد ، فكيف تُطلب الشفاعة بفعل ما يناقضها ويضادها!! قال: «وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد» ؛ هذا الأمر الرابع كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يُتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ .

«فإذا كانت الشفاعة» هذا تلخيص لما سبق ، يقول الشيخ : «فإذا كانت الشفاعة كلها لله» هذا واحد ، «ولا تكون إلا من بعد إذنه» اثنين ، «ولا يشفع النبي صلى الله عليه ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه» هذا الثالث ، الرابع «ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد». هذه أربعة أمور مهمة وفصول عظيمه وركائز متينة في موضوع الشفاعة تبينها له بالآيات كما بينها الشيخ رحمه الله .

«فإذا كانت الشفاعة كلها لله ، ولا تكون إلا من بعد إذنه ، ولا يشفع النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد؛ تبين لك ان الشفاعة كلها لله» ؛ ماذا يُستفاد من هذا؟ إذا تبين له أن الشفاعة كلها لله عبر النقاط العديدة التي بيّنتها له؛ أنها ملك لله، وأنه لا يشفع أحد إلا بإذنه ، وأنه لا يُشفع إلا لمن رضي الله قوله وعمله ، وأن الله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد . إذا تبين له ان الشفاعة كلها لله وتبينت له هذه الامور ماذا ينتج عن ذلك ؟ ما هي النتيجة الحتمية التي يقتضيها علمه بذلك ؟ ألا يلجأ في طلبها إلا الله ؛ وبهذا يظهر فساد شبهته.

ولهذا قال: «تبين لك ان الشفاعة كلها لله وأطلبها منه فأقول» هذا حال الموحد .

تقول له: «وأطلبها منه فأقول»؛ وهذا من دقة بيان الشيخ رحمه الله لأنه يبين حال الموحد الذي يمشي على المنهج الصحيح والمنهج السديد في باب الشفاعة ، "أنا لا أنكر الشفاعة" ، ثم تبين له حقيقة الشفاعة ، ثم تبين

له حالك يا من وفقك الله في هذا الباب بعيداً عن ضلال أولئك تقول : «وأطلبها منه فأقول اللهم لا تحرمني شفاعته» ، أما هو فماذا يقول؟ لأنه لم يفهم هذه النقاط المبينة في القرآن يقول "يا رسول الله اشفع لي" طلبها من غير المالك ، المالك هو الله سبحانه وتعالى ، وهي ملك لله ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يشفع لأحد إلا إذا أذن الله له ، ولا يشفع إلا لمن رضي الله قوله ، والله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد ؛ فالذي يريد الشفاعة يطلبها من المالك ، ولهذا يقول «وأطلبها منه فأقول» ، لم يقل له "تبين لك أن الشفاعة كلها لله فاطلبها منه" ، وإنما قال: «تبين لك ان الشفاعة كلها لله وأطلبها منه» ؛ أي هذا حال الموحّد الذي يفهم هذه الحقيقة ، فإن فهمت هذه الحقيقة واستقرت في قلبك وعملت بها كنت من أهل التوحيد فلم تطلبها إلا من الله كما هي حال أهل التوحيد .

قال : «وأطلبها منه فأقول : اللهم لا تحرمني شفاعته ، اللهم شفّعه فيّ ، وأمثال هذا» يعني وأمثال ذلك من العبارات التي تصدر من أهل التوحيد الذين لا يلجئون إلا إلى الله سبحانه وتعالى ، لا يدعون إلا الله ، لا يطلبون إلا من الله سبحانه وتعالى الشفاعة وغيرها ، النبي عليه الصلاة والسلام اعطي الشفاعة نعم ، لكن الشفاعة هذه نقاط وركائز دل عليها القرآن؛ إن فهمتها وتبينت لك وعملت بما تقتضيه صيرت من أهل التوحيد الذين لا يطلبون الشفاعة إلا من الله ، ولا يلتجئون في طلبها إلا إلى الله سبحانه وتعالى .

نقف عند هذا الحد ، والله تعالى أعلم وصلّى الله وسلم على رسول الله.

الدرس السابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

قال شيخ الإسلام الإمام الأَوَّاب محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ؛ فَاجْأَبُ: أَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨] ، فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللهَ أَنْ يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فِيكَ فَاطِطُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾. وَأَيْضاً فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَهَا غَيْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطُ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءُ يَشْفَعُونَ، أَتَقُولُ: إِنَّ اللهَ أَعْطَاهُمُ الشَّفَاعَةَ فَاطِطُهَا مِنْهُمْ؟ فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ. وَإِنْ قُلْتَ: لَا، بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطَاهُ اللهُ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ.

هنا ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى شبهة أخرى من الشبه التي يتعلق بها من يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويلتجئ إلى غير الله، وذكر رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى هذه الشبهة بعد شبهة أخرى قبل هذه الشبهة تتعلق بالباب نفسه «باب الشفاعة»؛ حيث ذكر قول هؤلاء عن الموحِّد، قولهم: «أَتُنْكِرُ الشَّفَاعَةَ وَتَتَبَرُّأُ مِنْهَا؟»، وأجاب رَحِمَهُ اللهُ عن ذلك بأن أهل الإيمان والتوحيد ليسوا منكرين للشفاعة؛ بل هم مؤمنون بها، وأن شفاعة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حق، وشفاعة الملائكة حق، وشفاعة الصالحين حق، كل ذلك يؤمنون به؛ لكن دلت دلائل الكتاب والسنة على أمور بينها رَحِمَهُ اللهُ هي تُعد ركائز في باب الشفاعة لا بد من ضبطها:

- الأولى: أن الشفاعة ملك لله.
- والثانية: أنها لا تكون إلا بإذن الله.
- والثالثة: لا تكون إلا برضا الله عن المشفوع عنه.
- والرابعة: أنه جل وعلا لا يرضى إلا عن أهل التوحيد ، ﴿وَمَنْ يُبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

لما ذكر ذلك، ذكر لهم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى شبهة أخرى؛ قال: «فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ»؛ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ ، وهذا حق كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث الصحيح ((أُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ)) ، ومعنى أُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ: أي أعطاني الله الشَّفَاعَةَ ، لأن الشَّفَاعَةَ

ملك لله ولا سبيل لأحدٍ أن يشفع عند الله إلا إذا أذن له المالك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قال: ((أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ)) أي أعطاني الله الشَّفَاعَةَ، ويوم القيامة يقول الله له: ((ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع))، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعطي الشَّفَاعَةَ وهو الشافع المشفع صلوات الله وسلامه عليه .

قال: «وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ» يعني هذا شيء أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أطلبه مما أعطاه الله، «أطلبه» أي أطلب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . والطلب هنا طلب أن يكون النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شفيع له يوم القيامة هذا عبادة والتجاء ، والالتجاء لا يكون إلا لله ، والشَّفَاعَةُ ملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فقولهُ «أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ» أي أطلب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا الطلب منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والتوجه إليه والالتجاء إليه في هذا الباب هذه عبادة هي حقُّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قال: (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) فبِمِ يُجَاب؟

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «فالجواب: أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا» ؛ أعطاه الشَّفَاعَةَ، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ((أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ)) ، ونهاك عن هذا : أي عما عَبَّرَتْ عنه بقولك «أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ» نهاك عن هذا في أي كثيرة، نهى فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن دعاء غير الله وسؤال غير الله والالتجاء إلى غير الله، نهى عن ذلك، ومن شفع له النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يوم القيامة فاز فوزاً عظيماً ونجا من عذاب الله وفاز بدخول الجنان، فاز فوزاً عظيماً، والفوز العظيم بيد من؟ الفوز العظيم والنجاة من النار ودخول الجنة كل ذلكم بيد الله، فلا يُطلب إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فقولهُ «وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ» هذا باطل ومناقضة للتوحيد، مناقضة للإخلاص الذي أُمر أن يكون عليه العبد ﴿وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨] ، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الإسراء: ٥٦] ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥] والآيات في هذا الباب كثيرة؛ فقولهُ (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) فهذا مخالفة ومناقضة للتوحيد.

قال: «وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا» أي عن هذا التوجه والطلب والالتجاء إلى غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

«فقال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ و«أحدا» جاءت نكرة في سياق النهي فأفادت العموم ؛ ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أي أي أحد كان، لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلأ ولا ولياً من الأولياء، لا تدعو مع الله أحداً؛ بل ليكن دعاؤك وتوجهك والتجاؤك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وإذا كنت تريد شفاعته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وترجو أن تكون ممن يشفع لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فتفوز فوزاً عظيماً فاطلبها من الله المالك ، قل مخلصاً موحداً ملتجئاً إلى الله: "اللهم شفع في نبيك" ، أو "اللهم اجعل نبيك شافعاً لي" ، أو "اجعلني ممن يشفع لهم نبيك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" ، أو نحو هذه العبارات التي يكون فيها الالتجاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ولا تُنال شفاعته النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا بالإخلاص، كما في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم «قلت يا رسول الله من أسعد الناس

بشفاعتك يوم القيامة؟» قال ((من قال لا إلا الله خالصاً من قلبه)) ، وقول هذا القائل «وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ الله» هذا مناقضة للإخلاص الذي تُنال به الشفاعة.

قال: «فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فِيكَ فَاطِعُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾» ؛ إِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ لعل المراد -كما قال الشيخ محمد بن ابراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ- لعل المراد "إذا كنت ترجو الله أن يشفع نبيه فيك"، ترجوه أو تطمع أن يكون عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شفيعاً فيك أي يوم القيامة فأطعه في قوله ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، الذي أعطى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشفاعة هو الذي قال لك في القرآن ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ، فإذا كنت تريد أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفيعاً لك يوم القيامة فلا تدعو مع الله أحداً؛ لأن الله نهاك عن ذلك وحرمه عليك وتوعد فاعله بأشد الوعيد وأشد العقاب ، فلا تدعو مع الله أحداً؛ بل أخلص الدعاء لله. وفي هذا الباب «باب الشفاعة» أخلص أيضاً الدعاء لله، قل "اللهم لا تقل "يا نبي الله" ولا تقل "يا ملائكة الله" ولا تقل "يا أولياء الله" ولا تقل "يا ولي فلان" أو "يا شيخ فلان"؛ وإنما قل: "يا الله"، "اللهم"، "يا رب اجعلني ممن يشفع لهم نبيك وملائكتك" أو نحو ذلك، ولا تتوجه لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِسْؤَالٍ أو طلب لأن هذا مخالفة صريحة لما نهاك الله عنه بقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

هذا جواب من الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى على هذه الشبهة، وهو كافٍ في كشفها. ثم زاد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى جواباً آخر؛ قال: «وَأَيْضاً» أي أيضاً في الجواب على هذه الشبهة نفسها يقال :

«فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَهَا غَيْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» أي دلت الدلائل في الكتاب والسنة على أن غير النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُعْطِيَ الشفاعة، مثل الملائكة ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وأيضاً الأفرات يشفعون، وفَرَطَ الإنسان: من يموت من ولده صغيراً فيسبقه إلى الدار الآخرة؛ يشفع لوالديه، الأفرات يشفعون.

قال: «فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطُ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءُ يَشْفَعُونَ»؛ من كان مؤمناً تقياً من أولياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنه يشفع يوم القيامة.

قال: «فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطُ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءُ يَشْفَعُونَ، أَتَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُمُ الشَّفَاعَةَ فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟» إذا قلت له هذه الكلمة هو بين أمرين:

- إما أن يقول: "لا، لا أطلبها منهم" ؛ مع أنهم أعطوا الشفاعة لا أطلبها منهم؛ بل أطلبها من الله، فحينئذ ناقض نفسه وظهر فساد مذهبه من خلال كلامه وتناقضه.
- وإما أن يقول: "بل أطلبها منهم" أي من الملائكة ومن الأفرات ومن الأولياء؛ ويكون بهذا دخل في الشرك من أوسع أبوابه ، والعياذ بالله.

قال: «فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ» يعني إن قلت أنا أطلبها منهم ؛ أي أطلبها من الملائكة وأطلبها من الأولياء وأطلبها من الأفراس؛ ألتجئ إلى هؤلاء كلهم في طلبها، رجعت إلى عبادة الصالحين وشرك الأولين شبراً شبراً، ذراعاً ذراعاً «التي ذكرها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ» أي في مثل قوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] يعبدون من دون الله: أي يلتجئون إلى غير الله ممن لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، فالولي ومن فوقه ومن دونه لا يملك لأحد ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا جنة ولا ناراً ، ولا سعادة ولا شقاء ، لا يملك ذلك، ذلك كله ملك الله جل وعلا؛ فمن طلبها من الأولياء ومن الملائكة طلبها ممن لا يملك ذلك ، وجعل من لا يملك ذلك شريكاً للمالك، فرجع إلى عبادة الصالحين التي كان عليها المشركون الأول.

قال: «فَإِنْ قُلْتَ هَذَا» أي إن قلت أنا أطلبها منهم «رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، وَإِنْ قُلْتَ: لَا، بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطَاهُ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ».

وأيضاً مما يجب به على هذه الشبهة والأجوبة كثيرة ؛ قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لفاطمة بنته : ((يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً)).

ويجاب عنها أيضاً بقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للرجل الذي قال: «يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة»، قال: ((أعني على نفسك بكثرة السجود)) أي السجود لله، انتبه قال ((أعني على نفسك بكثرة السجود)) أي لله، إذا كنت تريد مرافقتي في الجنة أكثر من السجود لله، فعندما يسجد لله يطلب من؟ عندما يضع جبهته لله ساجداً وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فالذي يريد مرافقة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الجنة عليه أن يكثر من السجود لله عز وجل، أي تسجد له متذللاً له خاضعاً داعياً طالباً منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أرشده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى الطريق. ولما قال له أبو هريرة رضي الله عنه: «من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟» قال : ((من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)).

كذلك أيضاً الحديث الذي في صحيح مسلم ، وهو من حديث أبو هريرة، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني ادخرت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، وإنها نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً)) ؛ «إن شاء الله» أي بإذنه، وقوله «من لا يشرك بالله شيئاً» خرج بذلك من يدعو غير الله من الأنبياء والأولياء والصالحين من الظفر بالشفاعة والفوز بها.

قال رحمه الله تعالى :

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً حَاشَا وَكَلاَّ، وَلَكِنَّ الْإِتِّجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشَرِكٍ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزِّنَا، وَتُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ؛ فَمَا هَذَا الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ؟

فَإِنَّهُ لَا يَذَرِي. فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟ كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هَذَا وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ؟! أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يَبَيِّنُهُ لَنَا؟

ثم ذكر الله تعالى هذه الشبهة لهؤلاء ؛ «فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً» يعني نفى عن نفسه الوقوع في الشرك كله، «لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً» هذه نكرة تفيد العموم في قوله «شَيْئاً»؛ فإذا نفى عن نفسه الشرك «قَالَ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً» أبرأ من الشرك ومن أن أكون من أهل الشرك أو أكون من المشركين

«لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً حَاشَا وَكَلاَّ» حاشا أن أكون من أهل الشرك وكلا، أي لست منهم ولا على طريقتهم. «وَلَكِنَّ الْاِلْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ» لا أعَدُّ هذا شركاً، أنا لا أشرك ، وأرى أن الشرك محرم حرمة الله وأن الله يعاقب عليه يوم القيامة أشد العقوبة، أقر بذلك وأنا لست من أهل الشرك لَكِنَّ الْاِلْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ؛ الالتجاء أي اللجوء إليهم طلباً وتذلاً وطمعاً ورجاءً ورغبة، يلجأ إليهم في نوائبه وفي حاجاته؛ بل بلغ الحال ببعض هؤلاء في باب الالتجاء أنه عند الشدائد والكربات -وقد كان المشركون الأول في مثل هذه الحال لا يلجؤون إلا إلى الله- بلغ الحال ببعض هؤلاء أنه حتى في حال الشدائد والكربات لا يلجأ إلا إلى غير الله ، ممن تعود الالتجاء إليهم في رخائه وسرَّائه ، فصار الحال عنده سواء في الشدة والرخاء والسراء والضراء، لا يلجأ إلا إلى غير الله، وبعضهم يلجأ إلى الله ويلجأ أيضاً إلى غير الله.

فإن قال : «وَلَكِنَّ الْاِلْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ»؛ الآن أخرج هو من الشرك ما هو داخل فيه وما هو نوع من أنواعه فكيف تعالج هذه المشكلة؟ يقول لك : الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك؟ سواء قال لك الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك ، أو قال لك الدعاء ليس بشرك ، أو قال لك الذبح ليس بشرك ، أو أخرج لك نوع من أنواع الشرك من الشرك، فكيف تكون المعالجة لذلك؟

قال رَحِمَهُ اللَّهُ : «فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزِّنَا وَتَقَرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ» ؛ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزِّنَا لأنه أشد المحرمات، ولهذا في القرآن والسنة في باب النواهي يُقَدَّمُ الأشد تحريماً على ما دونه في الحرمة كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ [الإسراء: ٢٢] ثم بعدها بآيات قال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢] ، كما في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ ففي باب النواهي في القرآن يُقَدَّمُ الأشد والأخطر، وهكذا في السنة ((اجتنبوا السبع الموبقات)) بدأ بالشرك ثم ذكر بقية المحرمات ومنها رمي المحصنات . أيضاً في باب الأوامر يُبَدَأُ بالأمر بالتوحيد، فالتوحيد أعظم شيء أمر الله به والشرك أعظم شيء نهى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنه ، فهو أشد حرمة من الزنا ومن القتل ومن عموم المحرمات ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]

وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي لا أحد أضل ﴿مِمَّنْ يَدْعُونَ دُونَ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿[الأحقاف: ٥: ٦] ، وهذا أمر ربما بعض العوام أو الجهال لا يدركه أو لا يستشعره، ولهذا يُذكر أن أحد أهل العلم أراد أن يمتحن فُهم الناس للتوحيد ومكانته، فذكر لهم حال رجل اعتدى على بيت وانتهك عرض امرأة في البيت، تقحّم البيت وانتهك عرض امرأة في البيت ومارس معها الفاحشة ووصف لهم هذه الحال فضجّ من حوله مستنكرين ، في يوم آخر ذكر لهم حال رجل بنى بيتاً وأراد أن يسكنه فقيل له: لكي تُحفظ وتوقى في بيتك اذبح لك شاة أو دجاجة ولا تسمي، لا تذكر اسم الله عليها أو شيئاً من هذا القبيل من أعمال أهل الشرك في التقرب إلى غير الله، فما رأى عليهم استنكاراً؛ فبعض الناس ربما يجهل ذلك وربما بعضهم لا يستشعر ذلك، يعني يتغيّظ لرؤية فاحشة الزنا وتغيظه في محله؛ ولكن لا يتغيّظ لحصول الشرك الذي هو أعظم العدوان وأظلم الظلم وأكبر الإجرام.

قال: «وَتَقَرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ» أي كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] أي من مات على ذلك، أي من مات مشركاً فلا مطمع له في مغفرة الله، كما قال جل وعلا في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦] .

يقول له الشيخ: «قل له : إِذَا كُنْتَ تَقَرُّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزِّنَا، وَتَقَرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ فَمَا هَذَا الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ؟» ما هو الشرك الذي حرّمه الله؟ عرّفه لي، بيّن لي حقيقته ؟

«فَمَا هَذَا الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ؟ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي» لماذا قال الشيخ رحمه الله (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) قبل أن يُسمع الجواب؟ لأن قوله المسبق: "أنا لا أشرك بالله، والالتجاء لغير الله ليس بشرك" هذا يدل دلالة واضحة أنه لا يدري ما هو الشرك، ولهذا قال رحمه الله: «فإنه لا يدري» ؛ لأنه لو كان يدري ويعرف حقيقة الشرك لما قال تلك المقالة ، ولهذا إذا قلت له عرّف لي الشرك؟ سترى أنه إما لا يجب بشيء، يعني سيقول لك هذه العبارة بلفظها "لا أدري" أو "لا أعرف"، أو يجب بأجوبة خاطئة من جنس جوابه الأول .

قال: (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) ستكتشف أنه لا يعرف الجواب، قال (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) أي لا يدري ما هو الشرك. وقد قيل قديماً "كيف يتقي من لا يدري ما يتقي" الذي لا يدري ما هو الشرك كيف يتقيه؟ ولهذا قوله السابق هو فرع عن عدم معرفته بالشرك وبحقيقة الشرك ، قال «فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي» .

قال: «فَقُلْ لَهُ : كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟» لاحظ أنك من أجل أن تقول له هذه الكلمة (كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟) ربما قبلها تمر ببعض المحاورات معه، حسب حال الرجل؛

لأنه إما أنه سيقول لك "لا أدري" مباشرة أو "لا أعرف" ، أو أنه سيبدأ يخوض في تعريفات خاطئة للشرك، فماذا ستصنع؟ في كل مرة يُعرّف الشرك تُبين له الخطأ وتستدل له، في بيانك الخطأ تستدل مبيناً خطأه بالدليل ، إلى أن يصل إلى حال لا يستطيع أن يُعرّف الشرك؛ فحينئذ تقول له هذه الكلمة: «كَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشَّرِكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟»، كَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشَّرِكِ الذي حرّمه الله وأخبر أنه لا يغفره وأنت لا تعرفه في ضوء الدلائل من الكتاب والسنة، وعندما تتكلم في تعريفه تتكلم بفكر قاصر وفهم سيء ضعيف ليس قائماً على دلائل كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، (فَكَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشَّرِكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ).

«كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ؟» هذه مشكلة أهل الضلال؛ حرّم الله عليهم الشرك، فقاموا وأتوا بالعبادة ولم يسألوا ولم يعرفوا، ولهذا ترى كثير من هؤلاء إذا سمع آيات الشرك ينفر منها ويرى نفسه ليس من أهلها ، ليس من أهل هذه الخصال؛ لكن لما كان لا يعرف الشرك وحقيقته وقع فيه ، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «إنما تُنْقِضُ عَرَى الْإِسْلَامِ عُرُوَّةَ إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةَ»، وأعظم الجاهلية الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لهذا من لا يعرف الشرك يقع فيه، لهذا قيل:

تعلم الشر لا للشر ولكن لتوقيه فإن من لم يعرف الشر من الناس يقع فيه

فلا بد من معرفة الشرك من أجل أن يُحْذَرُ وَيُتَّقَى، والله يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] ؛ إذا استبان سبيل المجرمين كان الناس منها على حذر، أما إذا لم تستبين ربما وقع بعض الناس في سبيلهم من حيث لا يشعرون ومن حيث لا يدري.

قال: «وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ»، قل مثل هذا أيضاً في حال كثير من الناس في المحرمات الأخرى، حرّم الله عز وجل الربا ، وباع كثير من الناس واشترى ولم يسأل ولم يعرف الربا ، وحرّم الله عز وجل أكل مال اليتيم فأكل ولم يسأل، وحرّم أموراً عديدة فتعامل بها ولم يسأل.

قال: «كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هَذَا وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟» هذا الكلام عظيم جداً؛ «أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا!!» أي يترك أمر بيانه لعقول الناس والآراء والأفهام، يتركه دون بيان؟ حاشا وكلا، فالله عز وجل أمرنا بالتوحيد وبَيَّنَّه ، ونهانا عن الشرك وبَيَّنَّه ، بيّنه في كتابه في آي كثيرة من القرآن، اقرأ في بيان الشرك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨] هذا بيان للشرك، لا تدعو مع الله أحداً لأن دعاء غير الله شرك، أيضاً اقرأ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿[الأحقاف: ٥٠-٦٠]، واقرأ أيضاً قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ

عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧]، دعاء غير الله هذا شرك. قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار)) دعاء غير الله هذا شرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أيضاً اقرأ قوله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]؛ فمن جعل شيئاً من ذلك لغير الله اتخذهُ شريكاً مع الله. والشرك: هو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه أو حقوقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والعبادة حق لله وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. فمن سوى غير الله بالله في هذا الحق -أعني العبادة- فقد اتخذهُ شريكاً مع الله؛ من دعا غير الله أو التجأ إلى غير الله أو استعاذ بغير الله أو توكل على غير الله أو نذر لغير الله أو ذبح لغير الله فقد أشرك بالله واتخذ الأنداد والشركاء مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: «أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟» أيضاً هذه الكلمة تحتها من التوجيه والبيان: أن بيان الشرك ومعرفة حده يُرجع فيه إلى الكتاب والسنة، كذلك بيان التوحيد وبيان المحرمات يُرجع فيها لمعرفة حدودها إلى كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يحرم علينا أمراً ويتركه دون أن يبينه.

نعم الإمام مالك استدل أيضاً لمثل هذا المعنى بحديث سلمان الفارسي، لما قال له نفر من المشركين أو اليهود قالوا له: إن نبيكم علمكم كل شيء حتى الخراءة، قالوا ذلك على وجه التهكم والسخرية، قال: «أجل -هذه مفخرة الإسلام- علمنا كل شيء؟ قال: لا يستقبل أحدكم القبلة ببول ولا غائط، ولا يستنجي بعظم ولا رجيع، ولا يمسن ذكره يمينه»؛ فمالك بن أنس رحمه الله انتزع من هذا الحديث استدلالاً عظيماً جداً، قال: «محال أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علم أمته كل شيء حتى الخراءة ولم يعلمهم التوحيد» محال هذا، التوحيد أعظم شيء في الدين، فمحال أن يكون علم الأمة كل شيء الآداب والأخلاق والتعاملات ودقائق الأمور بينها مفصلة صلوات الله وسلامه عليه ثم يترك التوحيد الذي هو أعظم شيء في الدين دون بيان!! هذا محال، فالتوحيد بُيِّنَ في الكتاب والسنة أتم بيان، وأيضاً الشرك بُيِّنَ وعُرفت حقيقته في الكتاب والسنة أتم بيان، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] .

قال رحمه الله تعالى :

فَإِنْ قَالَ: الشِّرْكَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ. فَقُلْ لَهُ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ أَتَظُنُّ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَخْشَابَ وَالْأَحْجَارَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاها؟ فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ. وَإِنْ قَالَ: هُوَ مِنْ قَصَدِ خَشَبَةٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ بَنِيَّةٍ عَلَى قَبْرِ أَوْ غَيْرِهِ، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يَقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ عَنَّا اللَّهَ بِبِرْكَتِهِ أَوْ يُعْطِينَا بِبِرْكَتِهِ. فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الْأَحْجَارِ وَالْأَبْنِيَةِ الَّذِي

على القُبُورِ وَغَيْرِهَا، فَهَذَا أَقَرُّ أَنْ فَعَلَهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، فَهُوَ الْمَطْلُوبُ. وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: قَوْلُكَ : الشِّرْكَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا؟ وَأَنَّ الْاعْتِمَادَ عَلَى الصَّالِحِينَ وَدُعَاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟ فَهَذَا يَرُدُّهُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرٍ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَوْ عِيسَى أَوْ الصَّالِحِينَ. فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَرَّرَ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكَ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ. وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ. فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشِّرْكَ بِاللَّهِ؟ فَسِرُّهُ لِي. فَإِنْ قَالَ: هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ. فَقُلْ: وَمَا مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ فَسِرُّهَا لِي. فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ. فَقُلْ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ؟ فَسِرُّهَا لِي. فَإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيْنَهُ الْقُرْآنُ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ. وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ؟ وَإِنْ فَسَّرَهُ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنْتَ لَهُ الْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ فِي مَعْنَى الشِّرْكَ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ؛ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ بَعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا وَيَصِيحُونَ فِيهِ كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥٠] .

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى هذه الشبهة الأخرى لهؤلاء، قال: «فَإِنْ قَالَ: الشِّرْكَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ» ذكرت، والشيخ يعدّ هذه الشبهات لهم قد سمعها أو سمع كثيراً منها من هؤلاء وناقشهم فيها وأقام عليهم رَحِمَهُ اللَّهُ الحجة، ذكرتُ حال الغريق، يُقال الغريق يتمسك بكل شيء حتى بالقشة، يتمسك بما لا متمسك به ويتعلق بما لا مُتَعَلِّقُ به، وإنما محاولة للنجاة من الغرق أو التخلص من الأمر الذي هو فيه؛ وهذه حال هؤلاء، يتخبطون في باب الاحتجاج ويتمسكون بأشياء واضحة تماماً أنها ليست بمُتَمَسِّكٍ. واقرأ في هذا المعنى قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١] ، وهذا بيانٌ لحال المشرك ومن اتخذهُ نِدَاءً مع الله؛ فمثل المشرك مثل العنكبوت، ومثل من اتخذهُ نِدَاءً مع الله تبارك وَتَعَالَى كمثل بيت العنكبوت، وبيت العنكبوت - كما لا يخفى - لا يقي حرّاً ولا برداً ولا يقي من عدو ولا يقي من مطر، وهو بيت واهي، متهالك ضعيف، أوهى البيوت؛ فمثل الذي يتعلق بغير الله التجاءً ورجاءً وطمعاً مثل العنكبوت اتخذت بيتاً. ثم إن من حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن العنكبوت وبيتها موجودة في كل مكان، حتى الأماكن التي تُقصد ليعبد أهلها أو تُعبد من دون الله فيها بيت العنكبوت وتوجد العنكبوت، ولهذا أقول لو أنه هؤلاء الذين يذهبون إلى تلك الأماكن يلتفتون إلى الأركان والزوايا يرون العنكبوت التي تصف حالهم وحال من تعلقوا به ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

فالمشرك المتعلق بغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يتخبط ويتعلق بكل شيء في تقرير باطله، صاحب الحق إذا أراد أن يستدل تجده يحسب للاستدلال ألف حساب وينتبه ويراعي، إذا أراد أن يذكر حديثاً يتأكد، أما الذي يتعلق بغير الله، ما عنده مشكلة تسمع منه ولا يبالي، تسمع منه أن يقول لك: النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "القبور ترياق المجربين" أو يقول لك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال "من تعلق بحجر نفعه"، وقالوا ذلك! لهذا ابن القيم لما بين أن هذا الحديث موضوع ومكذوب عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام؛ قال وضعه أحد عبَاد الأوثان، ولهذا لا يبالي هؤلاء بأن يضعوا حديثاً أو يستدلوا بموضوع مكذوب عن رسول الله أو يلفقوا مناماً أو خبراً أو قصة أو تجربة أو غير ذلك من الأشياء التي يوردونها مستدلين بها في تقرير هذا الباطل.

قال: «فَإِنْ قَالَ: الشِّرْكَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ. فَقُلْ لَهُ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ أَتَظُنُّ أَنَّهُمْ -أي الذين كانوا يعبدون الأصنام- يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَخْشَابَ وَالْأَحْجَارَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاهَا؟» هل تعتقد ذلك؟ «فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ» يعني القرآن دلّ في مواضع عديدة وذكر بعضها الشيخ رحمه الله فيما سبق أن المشركين لم يكونوا يعتقدون في الأصنام ذلك، ما كانوا يعتقدون أنها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت ؛ بل يقولون الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قل له «فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ».

«وَإِنْ قَالَ» في بيان حقيقة عبادة الأصنام «هُوَ مِنْ قَصْدِ خَشَبَةٍ، أَوْ حَجَرًا، أَوْ بُنْيَةً عَلَى قَبْرِ أَوْ غَيْرِهِ، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يَقْرِبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا بَرَكَتَهُ وَيُعْطِينَا بِبَرَكَتِهِ» إن قال لك ذلك، وهذا هو فعلاً الذي كان يفعله المشركون الأول، كانوا يقصدون الخشبة أو الحجر أو البناء الذي على القبر أو غيره، يدعون ذلك ويعكفون عنده ويزبحون له ويقولون إنه يقربنا إلى الله زلفى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٥].

«وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا بَرَكَتَهُ أَوْ يُعْطِينَا بِبَرَكَتِهِ» إن قال لك ذلك «فَقُلْ لَهُ: صَدَقْتَ» هذا عمل المشركين الذي أنكره الله عليهم في القرآن وذمهم عليه أشد الذم وتوعدهم عليه أشد الوعيد.

«فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الْأَحْجَارِ وَالْأَبْنِيَةِ الَّتِي عَلَى الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا، فَهَذَا أَقَرُّ أَنْ فِعْلَهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ» إذا أجاب بهذا الجواب فإنه يكون بذلك أقر أن فعلهم -أي عند القبور- هو فعل عبَاد الأصنام عند الأصنام ، وهو المطلوب.

قال ويقال له أيضاً: «قَوْلُكَ: الشِّرْكَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ» هذا جواب آخر غير الجواب الأول، «إذا قال: الشِّرْكَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، قل: هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا» أي لا يكون شركاً إلا إذا كان توجهاً لصنم؟ لا يكون شركاً إذا توجه إلى ملك، إلى كوكب، إلى نبي، إلى ولي، هذا لا يكون من الشرك؟ يعني الشرك محصور في عبادة الأصنام؟ هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا؟ أي لا يتجاوزه ولا يتعداه؟

«وَأَنَّ الْاعْتِمَادَ عَلَى الصَّالِحِينَ وَدُعَاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟ فَهَذَا يَرُدُّهُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرِ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَوْ عِيسَى أَوْ الصَّالِحِينَ»، وسبق أن ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الآيات الدالة في ذلك.

«فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَرَّرَ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ» ؛ ولاحظ أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في كشفه للشبهات -وهذا نبهت عليه وسأؤكد عليه- في كشفه للشبهات، مرتبط كلياً بالقرآن والسنة، ودائماً يكشف الشبه بالآيات وبالقرآن، بكلام الله.

قال : «فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَرَّرَ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ» أي أنه يتبين أن من عبد صنماً أو عبد ولياً أو عبد ملكاً أو عبد نبياً كل ذلك شرك بالله ؛ وهذا فيه بيان لبطلان قوله «الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ». وبهذا يكون الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كشف هذه الشبهة وبين بطلانها من وجهين.

ثم قال ملخصاً ما سبق: «وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ» أي: حاصل الأجوبة المتقدمة وخلاصتها

«أَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ. فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشِّرْكُ بِاللَّهِ؟ فَسِرُّهُ لِي» إن قال لك أنا لا أشرك بالله قل له فسر لي الشرك.

«فَإِنْ قَالَ: هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ. فَقُلْ لَهُ: وَمَا عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ؟ فَسِرُّهَا لِي» فسر لي عبادة الأصنام؛ إن قال لك عبادة الأصنام : أن يُعتقد في الأصنام أنها تخلق وترزق، قل له لم يكن المشركون الأول يعتقدون في الأصنام ذلك، هذا أمر يكذبه القرآن، وإن قال: عبادة الأصنام هو جعلها واسطة بين العابد وبين الله تقربه إلى الله زلفى، يرجو بركتها، فقل له هذا هو نفس الممارسة التي يمارسها من يعبد الأولياء والصالحين.

«فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحده . فَقُلْ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحده لا شريك له؟ فَسِرُّهَا لِي» فهذه ثلاثة أمور قد يقولها وتطلب منه تفسيرها. وأخطاء هؤلاء وانحرافاتهم مبنية على جهلهم بهذه الحقائق، لا يعرف حقيقة الشرك ، ولا يعرف حقيقة عبادة الأصنام ، ولا يعرف أيضاً حقيقة إخلاص العبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

يقول الشيخ: «فَإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيَّنَّه الْقُرْآنُ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ» إن فسر لها لك يعني هذه الأشياء بما بيَّنه القرآن فهو مطلوب، وماذا تصنع حينئذٍ إن فسر لها لك بما بيَّنه القرآن ؟ توضح له أن الحال التي يمارسها تخالف القرآن وتخالف الآيات التي هو استدلل بها من القرآن الكريم.

«وَأَنَّ لَمْ يَعْرِفْهُ» يعني إن لم يعرف هذه الأشياء «فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئاً وَهُوَ لَا يَعْرِفُهَا؟» وفاقد الشيء لا يعطيه

«وَأَنَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنَّتْهُ لَهُ» لاحظ الآن: تلخص لك أن الخصم إذا قلت "فسره لي" ؛ أي فسر لي الشرك أو فسر لي العبادة أو فسر لي معنى «لا أعبد إلا الله» لا يخلو في تفسيره لها من ثلاث حالات كما بين لك الشيخ:

١. إما أن يفسرها بتفسير صحيح مطابق للقرآن؛ هذا هو المطلوب. إن فسرنا تفسيراً صحيحاً مطابقاً للقرآن هذا هو المطلوب ، وحينئذ يُبين له أن الحال التي تمارسها تناقض ذلك.

٢. الحالة الثانية: أن يفسر ذلك بغير معناها؛ يعني يفسرها بمعنى آخر، فماذا عليك في هذه الحال؟ قال : بَيَّنْتَ لَهُ الآيات الواضحات في معنى الشرك وعبادة الأوثان.

٣. والحالة الثالثة: أن يقول لك لا أدري لا أعلم لا أعرف ؛ فأيضاً تبين له وتُعرفه بحقيقة ذلك من خلال الآيات الواضحات.

قال: «وَأِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئاً وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ؟ وَإِنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنْتَ لَهُ الْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ فِي مَعْنَى الشَّرِكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا» كيف ينكرونها على أهل التوحيد؟ ينكرونها على أهل التوحيد من جهات عديدة: مثلاً يقولون ينكرون الشفاعة ، أو ينتقصون الأولياء، أو يقولون لا يعرفون مكانة الصالحين أو جاههم عند الله ، أو غير ذلك من أنواع الكلام الذي يقصدون به التشنيع على أهل الحق.

قال : «وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا وَيَصِيحُونَ فِيهَا كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾» المشركون الأول لما قال لهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام: ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا))، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؛ بل بلغ حالهم إلى ما ذكره الله ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦٠]، وأيضاً يتفاخرون يقولون: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢] أي لولا أننا كنا مُتَحِلِّين بالصبر وإلا كاد ليضلنا عن الآلهة.

قال: يصيحون علينا كما صاح الأولون في إنكار التوحيد؛ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ هذا إنكار للتوحيد. وأيضاً هؤلاء لما يتعلقون بغير الله من الأولياء والصالحين وغيرهم ويُتَكَرَّ عليهم فيصيحون، هذا إنكار للتوحيد ومنافحة ومدافعة عن الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ونقف إلى هنا .

والله أعلم وصلى الله وسلم على رسول الله.

الدرس الثامن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين:

فإن قال إنهم لم يكفروا بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله، ونحن لم نقل إن عبد القادر ولا غيره ابن الله، فالجواب: أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفرٌ مستقل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) الله الصمد ﴿[الإخلاص: ١-٢] والأحد: الذي لا نظير له ، والصمد: المقصود في الحوائج؛ فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد آخر السورة، ثم قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد أول السورة. وقال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا ذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] ففرّق بين النوعين وجعل كلاّ منهما كفرًا مستقلًا ، وقال الله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ففرّق بين الكافرين . والدليل على هذا أيضًا: أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجالًا صالحًا لم يجعلوه ابن الله، والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك، وكذلك العلماء أيضًا وجميع المذاهب الأربعة يذكرون في باب حكم المرتد أن المسلم إذا زعم أن لله ولدًا فهو مرتد، وإن أشرك بالله فهو مرتد، فيفرّقون بين النوعين، وهذا في غاية الوضوح. وإن قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فقل: هذا هو الحق ولكن لا يُعبدون، ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله وإشراكهم معه، وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم، ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلالات، ودين الله وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين، وحق بين باطلين .

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى الإمام محمد بن عبد الوهاب هذه الشبهة التي يثيرها المشبه؛ والمراد بالمشبه: أي الذي يثير الشبهات التي يناقض بها التوحيد ويخالف بها الحق والهدى.

قال: «فإن قال: إنهم لم يكفروا بدعاء الملائكة والأنبياء وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله» إن قال أي المشبه الذي يبرر لأعماله الشركية وأفعاله الكفرية ويقرر أن ما يعمل من الشرك لا تنزل عليه أي القرآن التي نزلت

في ذم المشركين؛ بحمله شرك المشركين وتكفير الله تبارك وتعالى لهم لأنهم ادَّعوا لله الولد وأن الملائكة بنات الله، وأن الله سبحانه وتعالى إنما كفرهم بذلك، ولهذا ربما يقول بعضهم: إنهم -أي المشركون الأول- لم يكفروا بدعاء الملائكة والأنبياء، أي لم يكن كفرهم وشركهم لكونهم دعوا الملائكة والأنبياء ، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله . و«إنما» هذه من أدوات الحصر، وقوله: «إنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله» حصر بكلامه هذا الكفر في هذا الجانب وحده، وهو أن الذي يكفر إنما هو من يدَّعي لله الولد، أو يقول الملائكة بنات الله، أو عزيز ابن الله، أو المسيح ابن الله.

قال: «وإنما كفروا -أي المشركون الأول- لما قالوا الملائكة بنات الله» أي هذا هو الأمر الذي كفروا به، ونحن لم نقل ذلك.

قال: «ونحن لم نقل أن عبد القادر ولا غيره ابنٌ لله»؛ قال: "لم نقل أن عبد القادر" لأنهم يعبدون عبد القادر ، المراد بعبد القادر: الجيلاي؛ يعبدونه ويدبحون له وينذرون ويستغيثون به وإليه يلتجئون في الملمات والحاجات والنوازل والطلبات ، فيقول : نحن لم نقل أن عبد القادر ولا غيره أي من الأولياء والصالحين ومن ندعوهم من دون الله؛ لم نقل أنهم أبناء الله. فإذا يعني مرادهم بذلك أن الآيات التي نزلت في ذم المشركين وتقبيح أفعالهم وصنائعهم لا تنزل علينا، لأن المشركين يقولون بأن الملائكة بنات الله، ونحن لا نقول ذلك فيمن ندعوهم أو نسألهم. فهذه شبهة ربما أثارها بعض المشبهة من هؤلاء؛ فما الجواب؟

قال رحمه الله: «فالجواب» ؛ وأجاب عن هذه الشبهة بأربعة أجوبة مسددة، كل واحد منها كافٍ في كشف هذه الشبهة وبيان بطلانها:

الوجه الأول أو الجواب الأول قال: «أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفرٌ مستقل» أي هذا بحد ذاته كفر مستقل، والكفر أنواع ، وأفراد الكفر كثيرة، ومن قال إن لله ولدًا سواء الملائكة أو عزيزًا أو عيسى أو غير هؤلاء، هذا بحد ذاته كفر بالله.

قال: «أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿ وَالْأَحَدُ: الذي لا نظير له»؛ الأحَد: أي المَـتَوَحَّد بصفات الجمال ونعوت الكمال، فليس له شبيه ولا مثال.

«والصمد: المقصود في الحوائج» أي الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها وطلباتها؛ فتفزع إليه وتبتهل إليه وتلتجئ إليه.

«فمن جحد هذا فقد كفر» أي من جحد أن الله أحد صمد فقد كفر «ولو لم يجحد آخر السورة» وهو قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) ولم يكن له كُـهُوا أَحَدٌ ﴿ ؛ فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد آخر السورة .

«ثم قال -أي الله جلّ وعلا- ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد أول السورة؛ إذّا من جحد أول السورة أن الله أحد صمد فهذا كفر مستقل ، ومن جحد آخر السورة: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذا كفر مستقل ، وهذا فيه نقضٌ لدعوى هؤلاء أن الكفر إنما هو في ادّعاء الولد ونسبة الولد إلى الله والقول بأن الملائكة بنات الله. فالشيخ يقول: من جحد أول السورة الأحد الصمد، وأثبت آخرها لم يلد ولم يولد، يكون بذلك كافراً مع أنه لم ينسب الولد إلى الله تبارك وتعالى؛ فهذا تقريرٌ منه رحمه الله في رد هذه الشبهة ببيان أن نسبة الولد إلى الله تبارك وتعالى هذا بحد ذاته كفرٌ مستقل، وما جاء في أول السورة أيضاً كفرٌ مستقل . هذا الجواب الأول.

الجواب الثاني على هذه الشبهة؛ قال: «وقال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]» ذكر الله عزّ وجل شيئين نفاهما ونزه نفسه عنهما جلّ وعزّ؛ قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ ومن ادعى لله الولد فقد كفر ، ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ ومن ادعى أن مع الله إله آخر فقد كفر؛ وهذا فيه إبطال

لدعوى هذا المدعي بأن الكفر إنما هو في ادّعاء الولد ، لأن الله ذكر شيئين أو نوعين فرّق بينهما.

«قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ففرق بين النوعين وجعل كلا منهما كفراً مستقلاً» فرّق بين النوعين، فرّق بين ادّعاء الولد أن الله اتخذ ولداً ، وبين ادّعاء أن الله معه إله آخر؛ فهذان أمران فرق الله سبحانه وتعالى بينهما، وهذا فيه بيان لبطلان دعوى من ادعى أن الكفر إنما هو في ادّعاء اتخاذ الله جلّ وعلا الولد.

«وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، ففرق بين الكافرين؛ فرق بين نسبة الولد إلى الله جلّ وعلا، وأيضاً ادّعاء أن مع الله جلّ وعلا شريكاً.

■ فإذا الوجه الأول الذي ذكره الشيخ رحمه الله وقرره هو : بيان أن ادّعاء الولد هذا كفر مستقل .

■ الوجه الثاني: أن الله عزّ وجلّ في عدد من آي القرآن فرّق بين الأمرين: اتخاذ الشركاء مع الله يُدْعَوْنَ وَيَسْتَعِثُّ بِهِنَّ وَيُذَبِّحُ لَهُمْ وَيَنْذِرُ لَهُمْ، وبين نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى، ومثّل على ذلك بآيتين؛ الأولى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] ففرّق فيها بين الأمرين، والثانية: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ هذا نوع من الكفر، ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] هذا نوع آخر من الكفر فرّق الله عزّ وجلّ بينه وبين النوع الأول. فهذا الجواب الثاني على هذه الشبهة.

الجواب الثالث؛ قال رحمه الله : «والدليل على هذا أيضاً أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجلاً صالحاً لم يجعلوه ابن الله» ؛ الله جلّ وعلا كفّر الذين دعوا اللات وغيره مع الله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ

الأخرى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿[النجم: ١٩-٢٢]﴾، فهؤلاء الذين عبدوا اللات من دون الله، واللات رجلٌ كان معروفاً بالبذل والإحسان والصدقة، كان يلتُ العجين للحجاج ويحرص على إكرامهم واستضافتهم والإحسان إليهم، فلما مات صنعوا له حجراً، وقيل نفس الحجر الذي كان يلتُ عليه السويق عبده من دون الله، فقول القائل: إنما كفر أولئك بكونهم نسبوا الولد إلى الله وقالوا الملائكة بنات الله؛ هل هؤلاء الذين كفّهم الله عزّ وجل بعبادة اللات ادّعوا أن اللات ابنُ الله؟ أبداً ما قالوا ذلك، لكن كفّهم الله لأنهم عبدوه مع الله، وصرفوا له ما لا يُصرف إلا لله سبحانه وتعالى .

فهذا وجه ثالث في الجواب على هذه الشبهة، قال: «أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجالاً صالحاً لم يجعلوه ابناً لله والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك» أي ابناً أو أبناء لله .

الوجه الرابع في الجواب على هذه الشبهة قال: «وكذلك العلماء أيضاً، وجميع المذاهب الأربعة يذكرون في باب حكم المرتد أن المسلم إذا زعم أن لله ولداً فهو مرتد» ؛ يعني مما يرتد به من كان مسلماً ادّعاء أن الولد لله .
«وإن أشرك بالله فهو مرتد، فيفترقون بين النوعين» يعني من ادّعى لله الولد ارتد بذلك ، ومن أشرك مع الله غيره ارتد بذلك ، ومن أعطى غير الله من خصائص الله عزّ وجل في ربوبيته أو أسمائه وصفاته ارتد بذلك ، ومن سب الله أو دينه أو نبيه عليه الصلاة والسلام ارتد بذلك ؛ يذكرون أموراً كثيرة يرتد بها الإنسان وينتقض بها إسلامه ، ولم يحصروها في دعوى اتخاذ الله الولد.

فهذه وجوه أربعة ذكرها رحمه الله تعالى في إبطال هذه الشبهة، قال: «وهذا في غاية الوضوح» أي أن وضوحه وضوحاً بيّناً في إبطال هذه الشبهة وكشف زيفها.

قال: «وإن قال» ؛ وهذا أمر آخر . انتهى الجواب على الشبهة الأولى.

قال: «وإن قال: ﴿الْإِنِّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾» إذا تلا هذه الآية مستدلاً بتلاوته لها على أن الآية تدل على أن للأولياء مكانة عند الله ومنزلة ، وهذا كافٍ في تسويغ اللجوء إليهم والالتجاء إليهم ودعائهم لمكانتهم العظيمة عند الله ومنزلتهم العلية ، وربما أيضاً قالوا : أتذكرون فضل الأولياء ومكانة الأولياء وقدر الأولياء وجاه الأولياء؟ فهذه الآية مما يستدلون بها ويتلوونها في تقرير الشرك والعياذ بالله ؛ وأعظم به من إثم أن يتلى كلام الله جلّ وعلا ليقرّر به الشرك، أن يتلى كلام الله تبارك وتعالى ليستدل به على الشرك الذي هو أظلم الظلم وأكبر الموبقات.

قال: «وإن قال: ﴿الْإِنِّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فقل هذا هو الحق» ؛ هذا هو الحق، من المسلم الذي يُنكر فضل الأولياء ومكانة الأولياء!! هذا حق، أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ نفى

عنهم الخوف والحزن، وإذا جُمع بين الخوف والحزن في موضع واحد؛ كان تعلق الحزن في الأشياء الماضية ، والخوف في الأمور المستقبلية، يعني لا حُزن عليهم فيما فارقوه ، ولا خوف عليهم مما هم ملاقوه.

قال: ﴿الْإِنِّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]؛ ولهذا قال شيخ الاسلام استدلالاً بهذه الآية الكريمة: «من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً» ؛ أي أن ولاية الله عز وجل إنما تُنال بالإيمان والتقوى . والإيمان والتقوى إذا جُمع بينهما؛ فإن المراد بالإيمان: فعل الأوامر والطاعات والقيام بالعبادات، والتقوى: اجتناب النواهي والمحرمات. فالإيمان يتناول التوحيد والإقرار بأمور الإيمان، وأيضاً يتناول فعل الطاعات، والتقوى تتناول اجتناب النواهي والمحرمات. فدلّت الآية أن أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى؛ الذين يطيعون الله بفعل أوامره ، ويتقون ما نهاهم عنه وحرّمه عليهم سبحانه وتعالى .

ولما كان عند القوم انحرافٌ في هذا الباب وشَطَطٌ فيه؛ أصبحت الولاية تطلق على من لا يُعرَف لا بإيمان ولا بتقوى، تطلق على من يضيّع الأوامر ويرتكب المحرمات، ويُدعى فيه أنه من أولياء الله!! وكل هذا الباطل -أعني ترك الأوامر وفعل المحرمات- أُطلق على أصحابه أنهم أولياء الله زعمًا أن هذا الترك هو من كراماتهم! وهذا من أعجب العجب، يمارسون فعل المحرم وترك الطاعة تحت باب الكرامة؛ وهذا قد يعجب له من يسمعه، لكن مثلاً -والأمثلة على ذلك في واقعهم كثيرة- مثلاً في باب ترك العبادة يقولون: "الولي مكانته وكرامته عند الله ألا يطوف بالبيت بل البيت هو الذي يطوف به" ، وهذا مقرر في كثير من كتب هؤلاء، حتى كتب لأناس معاصرين، يقولون الكعبة هي التي تطوف به، كرامته ومكانته عند الله الكعبة هي التي تطوف به، ولا يطوف بالبيت، سيد الأولياء وسيّد ولد آدم طاف مرات وكرات بالبيت ذليلاً خاضعاً لله سبحانه وتعالى منكسراً لجنابه ؛ يقول: ((ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار))، وهؤلاء يقولون الولي مقامه أكبر من أن يطوف بالبيت، بل البيت هو الذي يطوف به!! ولهذا في أحد كتب الفقه المشهورة عُقدت مسألة في كتاب الصلاة مبنية على هذه الخرافة، قالوا إذا ذهب الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصلي الناس ؟ قال: لأهل العلم في هذه المسألة قولان: القول الأول: يصلُّون إلى مكانها الأصلي ، ولأن متابعة الكعبة إلى أين ذهب هذا أمر غير مستطاع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

والقول الثاني: قال يلزمهم أن يبحثوا أين ذهبت؟ إن كانت في أفريقيا فالصلاة إلى أفريقيا، وإن كانت في الهند فالصلاة إلى الهند ، وهكذا يتابعونها في كل فرض، قال قولان في المسألة، هذا مبني على خرافة هؤلاء وضلالهم في ما يعتقدونه في الأولياء.

فلاحظ أن ترك الطاعة والذل لله سبحانه وتعالى أُدخل تحت ماذا؟ نوع من الكرامة للولي ، وأيضاً ما يدّعونهُ للأولياء أنهم يصلون إلى مرحلة تسقط عنهم التكاليف، ويتلون في ذلك قول الله تعالى : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى

يَأْتِيكَ الْيَقِينُ ﴿[الحجر: ٩٩]﴾ يعني إذا وصل إلى درجة اليقين، واليقين يفسرونه بدرجة في مراتب السلوك عندهم إذا وصلوها توقف لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي لله طاعة لأنه من أولياء الله .

وفي باب ترك النواهي أيضًا يمارسون النواهي والمعاصي والحرمات باسم الولاية، ومن ذلكم الزنا والفواحش يمارسونها باسم الولاية، وقرأت عن هؤلاء في كتب الأخبار القديمة وسمعت من بعض الناس في زماننا هذا، هذا موجود في بعض المناطق يقولون أن المريد -التلميذ الذي عند الشيخ المدعى فيه الولاية- ليلة زواجه يأتي بزوجه إلى الولي ويطلب من الشيخ أن يخلو بها وأن يفتض بكارتها بنفسه من أجل البركة والنسل ، فتدخل عند الشيخ ويبرني بها الزنا الذي حرمه الله جل وعلا ويفتض بكارتها ثم تخرج من عنده ، ثم يرتقي هذا التلميذ على قدمي الشيخ يقبلها، يشكره على هذا الإحسان العظيم!، يقبل قدميه لأنه زنا بزوجه وافتض بكارتها، انتهاك للأعراض وأكل لأموال الناس بالباطل تحت اسم الكرامة والولاية ، وترك للطاعات والعبادات ، وفعل للفجور والمنكرات ؛ وكل ذلك يدخلونه تحت كرامة الأولياء، وأن هؤلاء أولياء الله.

فإذا جاء بهذه الآية سواء قصد بالأولياء هؤلاء المجرمين ، أو قصد بالأولياء الصالحين، سواء قصد هؤلاء أو هؤلاء وتلا الآية: ﴿الْإِنِّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ؛ تقول له : أولياء الله المقصودون بهذه الآية لا من يعينهم هؤلاء من المبطل لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما أخبر الله، وهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ كما نعتهم الله سبحانه وتعالى بذلك ووصفهم.

قل له: نعم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هذا حق نُقِرَ بذلك ؛ لكن لا يُعبدون، يعني مهما علت مكانة الشخص في الدين والعبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى هذا ليس مبررًا أن يُجعل ندًا لله ، وقد أنكر النبي عليه الصلاة والسلام ما هو دون ذلك، أنكر ألفاظًا لم تُقصد حقائقها، سمع رجلاً يقول: "ما شاء الله وشئت" فغضب وقال: ((أجعلني لله ندًا بل ما شاء الله وحده، أو قل ما شاء الله وحده)) ، في لفظٍ قاله هذا القائل، فأنكره النبي عليه الصلاة والسلام وغضب أشد الغضب!! .

قال: «ولكن لا يُعبدون» لأن العبادة حق لله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] ، ﴿وَأَنْتَ الْمَسَاجِدُ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨] ، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فالعبادة حق لله جل وعلا لا شريك له فيها لا ملكٌ مقرب ولا نبيٌ مرسل.

قال: «ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله» ؛ نحن لا ننكر مكانة الأولياء، ولا ننكر فضل الأولياء ، ولا ننكر أيضًا كرامات الأولياء ، لا ننكر ذلك لكن ننكر عبادتهم مع الله، أن يُجعل الولي ند لله ، يُذبح له كما يذبح لله، ويُندر له كما ينذر لله، ويدعى ويستغاث به كما يدعى الله ويستغاث به.

قال: «ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله وإشراكهم معه» أي جعلهم شركاء مع الله سبحانه وتعالى .

«وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم» وهنا يشير رحمه الله إلى الوسطية التي عليها أهل السنة في الأولياء بين الغلو والجفاء، الغلو طَرَفٌ سَلَكَه من رفع الأولياء فوق منازلهم فأعطاهم من الخصائص والحقوق ما ليس إلا لله تبارك وتعالى، والجفاء فيمن أنكر مقام الأولياء وقدر الأولياء وحق الأولياء وفضل الأولياء وجفا في حق الأولياء، والوسط قَوَامٌ بين ذلك، ولهذا قرر رحمه الله الوسطية بقوله : «نحن لا ننكر إلا عبادتهم» لأن عبادتهم غلو، اتخاذهم شركاء مع الله غلو في الأولياء. «وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم» حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم تركه جفاء، فعقيدة أهل السنة في هذا الباب وسط بين الغلو والجفاء، الغلو ممن رفع الأولياء فوق أقدارهم ومنازلهم وأعطاهم من الخصائص والحقوق ما ليس إلا لله، والجفاء من جحد فضائلهم ومكانتهم ومنزلتهم.

قال: «ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع».

قال: «ودين الله وسط بين طرفين وهدى بين ضاللتين وحق بين باطلين»؛ لاحظنا الوسطية عند أهل السنة في الأولياء، أيضاً الوسطية عند أهل السنة في كرامات الأولياء. كرامات الأولياء الناس فيها أقسامٌ ثلاثة:

❖ قسم غلوا في الكرامة غلواً شنيعاً؛ وأشرت إلى شيء من نماذج الغلو في كرامات الأولياء ، حيث عدّ بعضهم من كرامات الأولياء ترك طاعة الله وفعل ما حرم الله ؛ هذا غلو.

❖ وقسم جفا في باب الكرامة فجحدها وأنكرها ، مثل المعتزلة جحدوا كرامات الأولياء وأنكروها. وهذا جفاء .

❖ والحق قوام بين ذلك؛ أن ثبت للأولياء الكرامة بدون غلو ولا جفاء.

وقد ألفت محاضرة قبل قرابة خمسة عشرة سنة بعنوان: «كرامات الأولياء بين الغلو والجفاء»، وذكرت فيها نماذج كثيرة من إسفاف الطُرُقِية والمبطلّة في هذا الباب، وما يزعمون أنه من كرامات الأولياء؛ ركام من الأباطيل وأنواع الأضاليل كلها أدخلوها وزجّوا بها في باب كرامات الأولياء، حتى فعل الفواحش كما أشرت، وهذا يذكرونه في كتب الكرامات، أشياء من أسوء ما يكون وأشنع ما يكون وأقبح ما يكون، ونقلت نقول كثيرة من كتبهم موثقة.

قال: «ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلالات»

قال: «ودين الله وسط بين طرفين» طرف الغلو وطرف الجفاء ، وخير الأمور أوساطها لا تفريطها ولا إفراطها، خير الأمور أوساطها، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، لا تفريطها ولا إفراطها، لا تفريط ولا إفراط، «وهدى بين ضاللتين» ضلالة من غلا وضلالة من جفا، «وحق بين باطلين» باطل المُفْرِطِين والمُفْرِطِين، وبهذه يكون رحمه الله ذكر هذه الشبهة وأجاب عليها.

هذا الموضع الذي قرأناه اليوم، هذا ساقط من بعض النسخ، بدءاً من قوله: «فإن قال أنهم لم يكفروا بدعاء الملائكة» إلى قوله «وحق بين باطلين» هذا ساقط من بعض النسخ، بل من عدد من النسخ المطبوعة وموجود في

الطبعة السلفية، أو مطبوع في المطبعة السلفية وعنها أخذ في عدة طبعات، وأشار المحقق أنه وجد هذا في نسخة خطية معاصرة للشيخ رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عليه فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين ؛ أحدهما : أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء، وأما في الشدة فيخلصون الله الدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَدَّ عَنْهُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٠) بَلْ إِلَهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] ، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان : ٣٢]، فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعون الله تعالى ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون سادتهم؛ تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهما جيدا راسخا والله المستعان.

الأمر الثاني: أن الأولين يدعون مع الله أناسا مُقَرَّبِينَ عند الله، إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أحجارا أو أشجارا مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناسا من أفسق الناس ، والذين يدعونه هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقه وترك الصلاة وغير ذلك، والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويُشَهِد به .

ثم قال رحمه الله تعالى: «فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا، الاعتقاد هو الشرك، الذي نزل فيه القرآن، وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عليه، فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين» قوله رحمه الله «الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد» يعني الاعتقاد في الأولياء ، والاعتقاد في

من لهم جاه أو مكانة أو نحو ذلك، ويقولون إن المتقرب إلى الولي بالندى أو الذبح أو نحو ذلك كلما قوي اعتقاده فيه نفعا ودفعاً ونحو ذلك حصل له مطلوبه؛ ولهذا يبررون من لم يحصل مقصوده بدعاء الولي يقول هذا من ضعف اعتقادك في الولي! وإلا لو كان اعتقادك فيه كما ينبغي وكما يليق بمقام الولي لحصلت مقصودك، فيستؤمن هذا التعلق بالأولياء «الاعتقاد»، وحقيقته الشرك بالله عز وجل وصرف العبادة والذل والخضوع والرجاء والانكسار لغيره سبحانه وتعالى.

قال: «إذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عليه، فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين؛ شرك الأولين: أي المشركين الذين قاتلهم رسول الله عليه الصلاة والسلام شرك هؤلاء أخف من شرك هؤلاء بأمرين، ويعني ذلك أن شرك الآخرين أغلظ من شرك أولئك بأمرين.

قال: «أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء» يعني في السعة واليسر والراحة والأمن والطمأنينة والصحة والعافية، في مثل هذه الحال يشركون يتخذون مع الله الشركاء من الملائكة والأنبياء والأصنام والأحجار وغير ذلك، «وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء»، يعني حال الشدة والكربات والدواهي العظام التي تنزل بهم ينسون ما يشركون، ولا تأتي في أذهانهم أصلاً ينسونهم، بل لا يكون منهم إلا الإخلاص، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]؛ فشرك الأولين في الرخاء دون الشدة، لأن الشدة حالهم فيها هو حال الإخلاص كما قال الله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي لا يدعون معه آلهة أخرى ولا يتعلقون بغيره ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني دعاؤهم له خالصاً صافياً لا يدعون معه غيره، وإذا نجوا نجاهم إلى البر يعودون إلى الشرك ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

قال: وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ يعني الشدة وعابنتم الغرق والموت ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ يعني يذهب عنكم وعن أفكاركم وعن عقولكم من تدعون إلا إياه ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ هذا يفيد أنهم في حال الرخاء يدعون الله ويدعون غيره، لكنهم في حال الشدة والكربات يذهب عنهم كل من كانوا يدعونه من دون الله، ويخلصون الدعاء لله سبحانه وتعالى: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ هذا ذكره الله سبحانه وتعالى بعد ذكره لمنه على عباده بنعمة الفلك، قال: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ

كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴿ والمراد هنا المشركين ﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ ، يعني عدتم إلى الشرك والتعلق بغير الله واتخاذ الأنداد والشركاء ، ﴿أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا﴾ .

أنظر بيان الله سبحانه وتعالى لبطلان ما عليه هؤلاء وفساد عقائد هؤلاء بالتعلق بغير الله ، قال: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا﴾ (٦٧) ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ يعني الآن أنتم نجوتم من الشدة التي عاينتموها في البحر ولجأتم إلى الله سبحانه وتعالى مخلصين فنجاكم إلى البر ، ثم لما وصلتم إلى البر عدتم إلى الشرك تنادون غير الله وتستغيثون بغير الله وتصرفون العبادة لغير الله ، ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ هذه العودة منكم إلى الشرك هل أمنتم أن يخسف بكم جانب البر مثل ما عاينتم موتاً في البحر! ألا تخشون أن يأتيكم الموت وأنتم في البر؟ ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ هذا نوع من العقوبة التي يُتَوَقَّعُ أن تنزل ولا عاصم منها إلا الله سبحانه ، كما أنهم لا عاصم لهم من الغرق إلا الله سبحانه وتعالى ، قال: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ﴾ هذا أمر آخر في البر أيضاً ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ حاصباً : أي ريح شديدة تحمل الحصباء فتهلككم وأنتم في البر ، هذان نوعان من الهلاك ، وأنواع الهلاك التي تكون على الناس في البر كثيرة جداً ولكن هذان نوعان. ثم أمر آخر ثالث: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ هل تأمنون أن يعيدكم تارة أخرى في البحر لحاجة من الحاجات ومقصد من المقاصد في يوم من الأيام القادمة ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْكُمْ نَجِيًّا﴾ [الإسراء: ٦٩] ، فأنتم في حاجة إلى الله سبحانه وتعالى في الشدة والرخاء.

الشاهد أن المشركين الأول كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة ، أما المشركون في الأزمنة المتأخرة يشركون في الحالين في الرخاء والشدة ، ويتعلقون بالأولياء في الرخاء والشدة ، وإذا عاينوا الغرق في وسط البحر يهتف كل من هؤلاء بشيخه "الحقني يا فلان أدركني يا فلان" ، ولو كان معهم أبو جهل لخطأهم وقال لهم هذا وقت شدة ما فيه إلا إخلاص ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ، ففي الفلك أيضاً يستغيثون: "يا شيخ فلان، أدركني يا فلان، الحقني يا فلان" ، لماذا يا إخوان؟ لماذا هؤلاء الجهال الطغام المضللين لماذا؟ لأنه عُرس في نفوسهم من وقت مبكر التعلق بالأولياء حتى في مثل هذه الحالات ، وحكوا لهم مسبقاً قصصاً وحكايات أن الولي إذا هتفت به وأنت في البحر خلّصك من الشدة، ويروون في ذلك كرامات ، ولهذا في أحد

كتب هؤلاء المشهورة في الكرامات، كتابًا مطبوع باسم «كرامات الأولياء» وعدّد نماذج كثيرة من كرامات الأولياء، قال في إحدى الكرامات في ترجمة رجل يقول: سيدنا الشيخ علي - قال كان من كراماته أنه إذا جاءه رجل غريب عن البلدة، ومعه حمارة قال له امسك لي رأسها حتى أفعل بها؛ يقول له الولي! يقول امسك لي رأسها حتى أفعل بها، فإن مسك رأسها ليفعل بها أصبح الغريب في حرج أمام الناس يمسك الحمارة لهذا يفعل بها، وإن امتنع، الحمارة تتسمر في مكانها ما تمشي! هذا الآن مذكور في كرامات الأولياء، قالوا: إن الشيخ علي فعل ذلك - انظر الآن الكرامة التي تغرس في نفوس أولئك الشرك في الرخاء والشدة - قال إن الشيخ علي لما فعل بالحمارة، ما فعل بها من أجل الفاحشة! قالوا لا، في سفينة في البحر مخروقة فهو رتّق فتق السفينة، لما فعل بالحمارة رتق الفتق الذي في السفينة، ونجا الناس الذين في السفينة من الغرق! الله أكبر يكبرون، ثم إذا ركبوا في السفينة يهتفون به حتى يفعل بحمارة أخرى فترتق السفينة وينجون من الغرق! مهازل ومصائب وكوارث وجناية على العقول على العوام على الجهال، جناية من أعظم الجنايات، ثم يمشي العوام والجهال في شرك عظيم وفي ضلال مبين يمثل هذه الحكايات الملققة والقصص التي يروج به الباطل.

فمثل هذه القصة وأمثالها هي التي تجعل هؤلاء يشركون في الرخاء وفي الشدة، ولهذا مما قرأت أن شيخًا كان في سفينة وعابنت السفينة الغرق - قرأتها في إحدى حواشي الكتب - لشيخًا في سفينة وعابنت في السفينة الغرق، فأصبح كل يهتف بشيخه "أدركني يا فلان، الحقني يا فلان"، ما وجد منهم واحد يقول يا الله! فمدّ يديه ورفعها؛ قال: يا الله يا رب أغرق أغرق! ما على السفينة من يعبدك! يعني ليس على ظهر السفينة من يعبدك كلهم يعبدون غيرك ويلتجئون إلى غيرك. فإذا هذا شرك أغلظ من شرك المشركين. ومثل هؤلاء - كما قدّمت - لو كان معهم في السفينة أبو لهب أو أبو جهل أو غيرهم من أساطين الكفر لأنكروا عليهم، قالوا لا هذا وقت إخلاص! ما فيه إلا الإخلاص، خلّوا هؤلاء إذا خرجنا إلى البر أما الآن لا، أخلصوا، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

فإذا هذا يدل على أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك أولئك من هذه الناحية، والشيخ رحمه الله أورد جملة من الآيات تقرر ذلك بدأها بهذه الآية من سورة الإسراء، ثم قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٠) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ يعني أنكم أيها المشركون في مثل هذه الحالات لا تدعون إلا إياه ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي وحده دون شريك، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ فيكشف ما تدعون إليه ﴿إِنْ شَاءَ وَنَسْؤُنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يعني في الشدائد ينسى المشرك الأنداد والشركاء ويخلص لله تبارك وتعالى، أما المتأخرين ففي الشدائد لا ينسون ما يشركون بل بهم يتعلقون وإليهم يلتجئون وعليهم يتوكلون.

قال : «وقال تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ » أي هذا وصفٌ لحال المشرك، أي أنه في حال ضرائه لا يدعو ولا يلجأ إلا إلى الله سبحانه وتعالى .

قال : «إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَنَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] » .

وأورد أيضا قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَافُظٌ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ، وأيضا قول الله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت : ٦٥] ؛ هذه كلها تقرر أن المشركين الأول كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة ، بخلاف هؤلاء فإنهم يشركون في الرخاء وفي الشدة.

قال رحمه الله: «فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعون الله تعالى ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له، وينسون ساداتهم تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين»، ما الفرق بين شرك المتأخرين وشرك الأولين الذي يشير إليه الشيخ رحمه الله؟ أن أولئك كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة، وهؤلاء يشركون في الشدة والرخاء ، وما من شك أن من يشرك في الشدة والرخاء أغلظ ممن يشرك في الرخاء دون الشدة .

«ولكن» أنظر ألم الشيخ رحمه الله وأسفه: «ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهما جيدا راسخا!!»، أين هو؟ «والله المستعان» ؛ فالشيخ رحمه الله يأسف لحال يراها ويقرر ذلك نُصْحًا للناس ومعدرة إلى الله سبحانه وتعالى. و يمثل هذا النصح العظيم هدى الله خلقا، وأخرجهم الله سبحانه وتعالى من الظلمات إلى النور ببركات هذه الدعوة الناصحة الصالحة لكتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال الأمر الثاني: «أن الأولين -يعني المشركين الأولين- يدعون مع الله أناسًا مُقَرَّبِينَ عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة، أو يدعون أحجارًا أو أشجارًا مطيعة لله ليست عاصية» ؛ هذا شركهم .

«وأهل زماننا يدعون مع الله أناسًا من أفسق الناس، والذين يدعوهم هم الذين يحكون عنهم» يعني في كتب الأخبار وفي كتب التراجم، هم أنفسهم «هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة» مثل الذي يفعل بالحمارة هذا يعدونه من كراماته ومن موجبات التعلق به من دون الله، واتخاذ قبره وثنا يُعبد من دون الله، ولهذا يذكرون في تراجم من يتعلقون بهم أشياء عندما تقرأها أنت صاحب الحق الذي من الله عليك بالهداية تعرف أن هذا مُضِل، يعني يذكرون عن شخص قبره الآن من أكبر القبور التي تُعبد وتُقصد ويذبح لها وينذر، يذكرون عنه أنه ما كان يشهد الصلاة في الجماعة، وذكروا أيضًا في ترجمته أنه دخل مرة واحدة المسجد وبال فيه، ويذكرون أشياء في ترجمته وأخبار ولما مات عملوا له قبة وضريح! وبالآلاف المؤلفات يقصدون قبره متعلقين وداعين وذابحين وإلى آخر ذلك، وكانوا يلقبونه أبو اللثامين السطوحي ، أبو اللثامين قالوا أنه جلس تقريبًا اثنا عشر سنة فوق

سطح البيت ما نزل أبداً، فوق السطح وملتئم المدة هذه الطويلة كلها ملتئم، وقالوا إنه مُتَلْتَمَّ لحكمة، قالوا لأنه لو كشف وجهه لأحرق نور وجهه من يراه. ومثل الأمور هذه بدأ العوام يأتون قبره وضريحه زرافات ووحدانا، حتى إن أحد الكبار ألف كتاباً في مناقبه قال: "ولم أخرج هذا الكتاب حتى أتيت قبره واستأذنته وأذن لي أن أطبع الكتاب"! أشياء مؤلمة ومؤسفة، والمسلم يحمد الله على العافية، الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، ولولا منة الله علينا بهذه الهداية وهذا التوحيد وهذه الكتب التي نقرأها ونتعلمها، لكان الأمر آخر ، لكن هذا فضل الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله : «الأمر الثاني: أن الأولياء يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعة لله ليست عاصية ، وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم» انتبه لقوله «هم الذين يحكون عنهم» يعني ليس خصومهم الذين يحكون عنهم، ولكن هم الذين يحكون عنهم أموراً هي من الفجور والزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك يحكونها عنهم في كتبهم هُم ؛ كتب الكرامات كتب الأولياء يحكون عنهم الزنا ، يحكون عنهم فعل الفواحش، يحكون عنهم تتبع المردان، يحكون عنهم فعل المحرمات ترك الصلاة ترك الطواف ، كل هذه يذكرونها في كتب الكرامات وفي مناقب الأولياء، فانتبه لقوله رحمه الله تعالى «الذين يحكون عنهم» ما قال نحكي أو يُحكى، قال «يحكون» أي هؤلاء الذين يتعلقون بهم ويعتقدون فيهم . «يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك» وكل هذه الأشياء التي تسمعها الزنا السرقة ترك الصلاة وأعمال أخرى منكرة أكثر من ذلك، كلها تذكر في مناقب الأولياء! وتذكر في كرامات الأولياء عند القوم. قال: «وغير ذلك» .

قال: «والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل شجرة أو حجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويُشهد به» ؛ كل من الأمرين شرك، لكن هذا أهون من هذا، وإلا كله شرك، وكله موجب للنار وسخط الجبار ، لكن هذا أهون من ذلك، والنفوس لها شيء من المحبة للصالحين والمعرفة لأقدار الصالحين، فرمى أن الإنسان من هذا الباب مع سوء فهم وقلة علم وبصيرة ربما عظم الصالحين تعظيماً لا يليق إلا بالله، لكن أن يعظم هؤلاء الفسقة الفجرة أهل الفواحش أهل المنكرات، ويُصرف لهم من الحقوق والخصائص ما ليس إلا لله تبارك وتعالى!! فهذا لا شك أن مثل هذا العمل أغلظ من شرك المشركين الأول، كل من الشِّرْكَيْنِ غليظ، لكن هذا أغلظ من هذا.

فإذا هذان أمران يتبين من خلالهما : أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك المتقدمين.

أمراً ثالث: وهو أن المتقدمين شركهم في الألوهية، أما الربوبية وخصائص الربوبية لا يعطونها للأصنام ومن يعبدونهم ، لا يقولون عنها إنها تخلق، ولا يقولون ترزق، ولا يقولون تحيي ولا تميت ولا تدبر الأمر، لا يقولون ذلك، ولا يعطونها خصائص الله في أسمائه تبارك وتعالى وصفاته. والمشركون المتأخرون كما أنهم يشركون في الألوهية أيضاً

يشركون في الربوبية، ويعتقدون في الولي من التصرف والتدبير ما ليس إلا لله تبارك وتعالى ، ولهذا أحد كبار المخرفين المضلين في عصرنا سمعته في شريط له يقول : الولي يخلق، من قال لكم أن الذي لا يخلق إلا الله، قال: الولي يخلق، قال : والقرآن دلّ على ذلك! قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، قال : هذا دليل على أنه فيه خالقين مع الله، وقال : أن الولي يستطيع أن يخلق الجنين في رحم الأم، ولكنهم لا يفعلون ذلك من أجل أن لا تختلط الأنساب، فقط لهذا وإلا يستطيعون. ويذكرون في أحد كتب هؤلاء أن أحد الأولياء المزعمين كان متزوجاً من امرأة وصفوها بأنها شريفة، وتزوج عليها امرأة فلاحه فقيرة، فغضبت الشريفة لماذا يأخذ عليها فلاحه وهي لها مكانة وشريفة!! فغضبت وطلبت الانفصال منه، وكانت حاملاً منه في الشهر السادس، قال لها إذا ما تتركين هذه المطالبة سوف أنقل الجنين من رحمك إلى رحم الزوجة الجديدة! فأبت ، قالوا فنقل الجنين يعني أمر الجنين أن ينتقل من رحمها إلى رحم الزوجة الجديدة وولدت الزوجة الجديدة الفلاحه بعد ثلاث شهور ، هذه كلها أبو جهل لو سمعها ينكرها ، أبو جهل لو سمع هذا الكلام قال هذا منكر، ربما يقول لهم: { كبرت كلمة تخرج من أفواهكم }، هذا كلام منكر ما يقال ، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزحرف: ٨٧] ؛ فهذا من الأمور التي تدل على أن شرك المتأخرين أغلظ، وهذا الجاهل ما فهم الآية ولا فهم معنى دلالة هذا الاسم «الخالقين» ، وإلا لو كان يعرف معناه ويفهم دلالاته لما قال هذا القول المنكر، القول الذي لم يصل إليه المشركون الأول، المشركون الأول ما كانوا يعتقدون مثل هذه العقائد في الأصنام والأوثان والأولياء ومن يدعوهم من دون الله.

وأمر رابع وهو: أن المشركين الأول كانوا يفهمون معنى «لا إله إلا الله» وأنها تعني إخلاص العبادة لله، ولما قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام ((قولوا لا إله الا الله تفلحوا)) قالوا ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ﴾ [ص: ٥٠] . والمشركون المتأخرون لم يفهموا «لا إله إلا الله»، وإذا قيل لهم ما معنى لا إله إلا الله ؟ فسروها في الربوبية فقط، قالوا معناها لا خالق إلا الله، أو لا رازق إلا الله ، أو لا مانع ولا معطي إلا الله .

فهذه وجوه أربعة تدل على أن شرك المتأخرين أغلظ.

ونكتفي بهذا .

وصلّى الله وسلّم على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَغَفَرَ لَهُ وَلِلشَّارِحِ وَلِلسَّامِعِينَ:

إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصَحُّ عُقُولاً وَأَخَفُّ شِرْكَاً مِنْ هَؤُلَاءِ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ شُبْهَةٌ يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبْهَاتِهِمْ، فَأَضْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَيُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَيُكَذِّبُونَ الْقُرْآنَ وَيَجْعَلُونَهُ سِحْراً، وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَنُصَدِّقُ الْقُرْآنَ، وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَنُصَلِّي وَنُصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَا مِثْلَ أَوْلَئِكَ؟ فَالْجَوَابُ: أَنْ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَيْءٍ وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ. وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ، كَمَنْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَجَحَدَ جُوبَ الصَّلَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ وَجَحَدَ جُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ جُوبَ الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ الْحَجَّ. وَلَمَّا لَمْ يَنْقُذْ أَنَا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْحَجِّ أَنْزَلَ اللهُ فِي حَقِّهِمْ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] ، وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ بِالْإِجْمَاعِ وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]. فَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ الْكَافِرُ حَقًّا زَالَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ. وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْنَا.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : «إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصَحُّ عُقُولاً وَأَخَفُّ شِرْكَاً مِنْ هَؤُلَاءِ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ شُبْهَةٌ يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَهِيَ مِنْ

أَعْظَمَ شُبْهِهِمْ، فَأَصْنَعِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا»؛ لما ذكر رَحْمَةُ اللَّهِ ما سبق مما يتبين به أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك الأولين، وأن الأولين كانوا أصح عقولاً من هؤلاء؛ لسلامة لغتهم ومعرفتهم بدلالات الخطاب ومعاني الكلام، لما قرّر ذلك وذكره رَحْمَةُ اللَّهِ وتبّه أيضاً على أن شرك الأولين أخفّ من شرك المتأخرين من وجوه سبق بيانها عنده رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، لما ذكر ذلك قال: «اعْلَمْ أَنَّ لَهُوْلَاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا» أي يثيرونها، على ما ذَكَرْنَا أَنَّ ما عندهم شرك بالله عز وجل، وأن عملهم أغلظ من شرك الأولين، وكما قدّمت مرّ معنا عنده رَحْمَةُ اللَّهِ وجهان في تقرير ذلك.

يقول: «لَهُوْلَاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبْهِهِمْ، فَأَصْنَعِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا» انظر إلى دقة العبارة، لم يقل رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى "فأصنع سمعك لها" أي للشبهة؛ لأن الشبهة لا يُحْفَلُ بها ولا يُهْتَمُّ بها، وإنما يُحْفَلُ ويُهْتَمُّ بالأجوبة السديدة والنقد المفيد المستمد من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، هذا الذي ينبغي أن يُرعى المسلم اهتمامه، أما الذي يفتح قلبه للشبهات ويُصْغِي لها ويُقْبِلُ عليها ويُحَاوِلُ استيعابها فهذا ربما استقرت الشبهة في قلبه ولم تخرج، وربما تجلجلت في صدره إلى أن يموت. ولهذا لا ينبغي لمسلم أن يحْفَلُ بشبهة أو أن يُعْنِي بها أو أن يُصْغِي لها، ولهذا تكلم السلف رحمهم الله قديماً في بيان خطورة من أصغى لصاحب شبهة؛ فصاحب الشبهة لا يُصْغِي له، والشبهة لا يصغ لها؛ ولهذا قال «فَأَصْنَعِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا» اقرأ الشبهة وليكن اهتمامك وعنايتك وضبطك بالجواب، قال «فَأَصْنَعِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا»، ثم ذكر الشبهة.

قال: «وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ» يعني المشركين الأول الذين نزل القرآن في ذمّهم والتشنيع عليهم وبيان كفرهم وشركهم بالله «لَا يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، لم يقبلوا الشهادة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَتُنَا لَآرَكُوا آلَهُنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿[الصافات ٣٥: ٣٦]﴾ «لَا يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَكْذِبُونَ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ يكذبونه ويكذبون بما جاء به ويدّعون بأنه كاهن أو ساحر أو مجنون أو غير ذلك.

«وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ»، ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧] ينكرون أنهم مبعوثون ليوم عظيم. «وَيَكْذِبُونَ الْقُرْآنَ وَيَجْعَلُونَهُ سِحْرًا»، ﴿فَقَالَ إِنِ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (٢٤) ﴿إِنِ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [الدثر: ٢٤: ٢٥]. «يقولون: وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أي نطق بالشهادة وتلفظ بها، نقول لا إله إلا الله.

«وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» أيضاً نشهد بأن محمداً رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وَنُصَدِّقُ الْقُرْآنَ» نؤمن بأن القرآن من الله عز وجل، وأنه وحي، وأنه منزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا نقول إنه كتاب سحر كما قال الكفار الأول. «وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ» نؤمن ونعتقد أننا مبعوثون.

«وَنُصَلِّي وَنُصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَا مِثْلَ أَوْلَئِكَ؟» كيف تجعلوننا مثل أولئك ونحن عندنا هذه الأعمال وبيننا وبينهم هذه الفروق!! وكأنهم يريدون أن يقولوا إن وجود الشرك الذي كان عليه الأولين عندنا ونفعله ونمارسه هذا لا يؤثر في انتفاض الدين وانهدامه مادام أن عندنا هذه الأشياء وهي ليست عندهم؛ هذا حاصل تقريرهم لهذه الشبهة: مادام أن هذه الأشياء موجودة، فكوننا نلجأ إلى غير الله، نذبح لغير الله، نستغيث بغير الله نصرف العبادة لغير الله هذا لا يؤثر طالما أننا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونؤمن بالقرآن ونؤمن بالبعث ونصلي ونصوم، هذه لا تؤثر! وهذه فروقات بيننا وبين أولئك تمنع من أن نُلحق بهم أو نُعدّ أمثالا ونظراء لهم!

هذا حاصل الشبهة ، والشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى طلب الإصغاء لجوابها ولم يذكر عليها جواباً واحداً؛ بل ذكر رَحِمَهُ اللهُ تسعة أجوبة ، كل واحد منها كاف لكشفها وتعريضها.

فذكر أولاً الجواب الأول قال : «فَالْجَوَابُ: أَنَّ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ، أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَيْءٍ وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ» يقول هذه محل اتفاق بين أهل العلم، أنه إذا صدّقه في شيء وكذّبه في شيء كافر باتفاق أهل العلم، حتى وإن صَلَّى وإن صام وإن حجّ وإن صدّق بالبعث، إذا كذّب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في شيء فهو كافر باتفاق أهل العلم.

قال : «وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ» هذا كافر باتفاق أهل العلم، من يؤمن ببعض القرآن ويكفر ببعض ، أو يؤمن ببعض ما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويكفر ببعض هذا باتفاق أهل العلم يكون كافراً ، فكيف بمن جحد التوحيد وردّ التوحيد الذي هو أعظم شيء جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟! قال ممثلاً: «كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة» هذا ما حكمه؟ من أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أيضاً اعكس الأمر: من أقرّ بوجوب الصلاة وصلى وجحد التوحيد؟ هذا كافر باتفاق أهل العلم وذلك أيضاً كافر باتفاقهم.

«أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ وَجَحَدَ وَجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ -أي بالتوحيد والصلاة والزكاة- وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وَجُوبَ الْحَجِّ» وذكر هنا رَحِمَهُ اللهُ مباني الإسلام الخمسة: ((بُني الإسلام على خمسة شهادة أن لا إله إلا الله)) وهذا التوحيد، ((وأن محمداً رسول الله)) وهذا الإيمان بالرسالة ((وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام)) ، فمن أقر ببعض هذه المباني وكفر ببعض ولو بواحد منها فإنه باتفاق أهل العلم يكون كافراً بالله عز وجل . فتكذيبه بواحد من هذه الأشياء نقضٌ لتصديقه لألوف من الأشياء الباقية، تكذيبه لواحد من هذه الأشياء يُعد نقضاً لألوف من الأمور التي يأتي بها من أمور الإسلام ، لأنّ التكذيب بشيء مما جاء به الله في كتابه سبحانه وما جاء في سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا يُعدّ ناقضاً للإيمان. يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ : «يعني أنه ليس بمسلم ولا عنده من الإسلام شعرة ، فإذا كذّبه في

واحد وصدقه في الألف من الصلاة والصدقة ونحو ذلك فهو قاضٍ على تلك الألف ، فإذا كان من صدقه في شيء وكذبه في شيء فهو كافر؛ فكيف بالتوحيد الذي هو أعظم فريضة جاء بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». قال الشيخ رحمه الله : «وَلَمَّا لَمْ يَنْقُذْ أَنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْحَجِّ» يعني أتوا بأمور الإسلام ولم ينقادوا للحج «أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ ﴿وَلَهُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾» .

«وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ» أي أقر بمباني الإسلام كلها «وَجَحَدَ الْبَعْثَ» أي جحد بعث الناس وقيامهم لرب العالمين «كَفَرَ بِالْإِجْمَاعِ وَحَلَّ دَمَهُ وَمَالَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا» ؛ فسمّاهم الله تبارك وتعالى كفارًا مع إيمانهم ببعض ما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومثله قول الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] لكونهم اتخذوا الأنداد مع الله سبحانه وتعالى . فإذا وُجد الأمر الناقل من الملة والناقض للإسلام فمع وجوده لا يُنتفع بالأعمال وإن كثرت والطاعات وإن تعددت.

قال رحمه الله: «فَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ حَقًّا؛ زَالَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ» لأن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقًا فكيف بمن لم يؤمن بالتوحيد ولم يرضه؟! قال : «وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا»؛ كان بعض خصومه يرسلونه معترضين على ما يدعو إليه من التوحيد وما يُحذّر منه من الشرك والتنديد، وما يبينه من الحال السيئة التي عليها الناس بالتعلق بغير الله سبحانه وتعالى وصرف العبادة له؛ فكان بعضهم يرسله معاندين مخاصمين للحق الذي يدعو إليه فيقول : «وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا».

قال رحمه الله تعالى :

وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّلَاةِ فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدِّمِّ وَالْمَالِ بِالْإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْبَعْثَ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وَجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، لَا يُجْحَدُ هَذَا وَلَا تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا. فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ، فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ

الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الجواب الثاني على الشبهة ، وبين من خلاله مكانة التوحيد وأنه أعظم شيء أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به، وقرّر رَحِمَهُ اللَّهُ إذا كان باتفاق أهل العلم من يجحد الصلاة ويجحد الصيام ويجحد غير ذلك من فرائض الإسلام يكفر اتفاقاً؛ فكيف بمن يجحد أعظم شيء في الدين وهو توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: «إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّلَاةِ فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدِّمِّ وَالْمَالِ بِالْإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْبَعْثَ» أي أنه يكون بذلك كافراً، «وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وَجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلَّهُ» أي أيضاً يكون كافراً باتفاق أهل العلم، «لَا يُجَحَدُ هَذَا» أي لا يجحده أحد ولا ينكره أحد ، «وَلَا تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ».

«وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا» أي في الآيات التي ساقها مقررّة كفر من جحد شيئاً من ذلك ، أو من فرّق بين أمور الإيمان فأمن ببعضها وكفر ببعضها.

قال: «فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ» ؛ ولهذا يأتي مقدّماً في النصوص ومنها النص الذي ذكرته قريباً (مباني الإسلام) بُدئ بأعظم المباني وهو التوحيد ، وفي الأوامر في كتاب الله يُبدأ به ، وفي النواهي يُبدأ بالنهي عن ضده، فهو أعظم شيء أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عباده به، فكيف يكون من جحد الصلاة مع إيمانه بباقي أمور الإسلام كافراً ! ومن جحد الصيام مع إيمانه بباقي أمور الإسلام يكون كافراً! ومن يجحد التوحيد مع إقراره بتلك الأمور لا يكون كافراً؟! كافرًا! كافرًا! كافرًا!

قال: «فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ»، يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ (سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ). ولإلزام الخصم بمثل هذا لك أن تسأله عندما يطرح مثل هذا، ولو تريثت قليلاً ثم فاجأته بسؤال وقلت له: ما رأيك برجل يعرف الصلاة ويعرف ما جاء في مكانتها وفضلها؛ ولكن يجحد أنها واجبة ويُنكر ذلك، ماذا تقول فيه؟ تجد أنه سيقدر أنه كافر؛ تقول له وإن صام؟ وإن حج؟ وإن وإن وإن ؟ سيقول: كافر لأنه جحد هذه الفريضة المعلومة من الدين بالضرورة، والتي لها من الدلائل الشيء الكثير؛ فقل له: التوحيد أعظم من الصلاة ودلائله أكثر ومكانته أعلى وشأنه أرفع؛ فكيف يكون كافراً يجحد الصلاة، ولا يكون كافراً يجحد التوحيد!! بل كما قال أهل العلم: التوحيد وحده قد يكفي الإنسان في إسلام العبد ودخوله الجنة، مثل لو أن شخصاً تكلم بكلمة التوحيد وشهد بها وأقر ثم قبضت روحه قبل أن يقوم

بشيء من أعمال الإسلام تكفيه وتنجيه من عذاب الله ويكون من أهل الجنة، فالتوحيد وحده يكفي ، وهذه الأمور وحدها لا تكفي إلا إذا وُجد التوحيد معها؛ فكيف يُعدّ جحد التوحيد ليس بناقض ؟ وجحد هذه الفرائض ناقضا للإسلام؟!

قال رحمه الله تعالى :

وَيُقَالُ أَيْضاً هَؤُلَاءِ : أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُؤَدِّثُونَ وَصَلُّونَ . فَإِنْ قَالَ : إِنَّهُمْ يَقُولُونَ : أَنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ . قُلْنَا : هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ ؛ إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا فِي رُتْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَرَ وَحَلَّ مَالَهُ وَدَمَهُ وَلَمْ تَنْفَعُهُ الشَّهَادَتَانِ وَلَا الصَّلَاةُ ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ أَوْ صَحَابِيًّا أَوْ نَبِيًّا فِي رُتْبَةِ جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ ، مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ ﴿كَذَلِكَ يَطْعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

ثم ذكر رحمه الله هذا الجواب الثالث على هذه الشبهة. قال: «وَيُقَالُ أَيْضاً هَؤُلَاءِ : أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» أي بنو حنيفة أسلموا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكن الصحابة قاتلوهم واستباحوا دماءهم وأموالهم.

«وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُؤَدِّثُونَ وَيُصَلُّونَ» وهذه أشياء كانوا هؤلاء قد ذكروها سابقاً في الشبهة؛ قالوا "كيف تسوون بين من يجحد القرآن ويكذب بالنبي عليه الصلاة والسلام ويشهد أن لا إله إلا الله ويصلي ويصوم وبين أولئك المشركين!!" فيقول رحمه الله : «وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُؤَدِّثُونَ وَيُصَلُّونَ» ؛ لكن ما هي المشكلة عندهم؟

«فَإِنْ قَالَ» يعني يقول لك الخصم «إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ» يعني مع فعلهم لهذه الأشياء يدعون أن مسيلمته نبياً، مع أنهم يشهدون للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة، ويشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون ويصومون؛ لكنهم يشهدون أن مسيلمته نبى ؛ فيقول هؤلاء كفروا لأنهم يشهدون أن مسيلمته نبى.

يقول الشيخ رحمه الله «قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ» يعني في الجواب على هذه الشبهة.

«إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا إِلَى رُتْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَرَ وَحَلَّ مَالَهُ وَدَمَهُ وَلَمْ تَنْفَعُهُ الشَّهَادَتَانِ وَلَا الصَّلَاةُ ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ أَوْ صَحَابِيًّا أَوْ نَبِيًّا لِرُتْبَةِ جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟»، إذا كان من رفع شخصاً إلى رتبة النبوة يكفر بإقرار هؤلاء الخصوم ، فكيف بمن يرفع شخصاً إلى رتبة الألوهية؟! أليس الأمر أعظم؟ ولهذا أيضاً لتقرير هذا الرد يمكن أن تقول للخصم: عندما قال هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلي ويصوم؛ فيمكن أن تقول للخصم: ما رأيك في شخص يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول

الله ويُصلي ويصوم ويدّعي لشخص من الأشخاص أنه نبي؟ ما رأيك فيه؟ ماذا سيقول لك؟ قطعاً سيقول لك هذا يكفر، حتى وإن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وصلى وصام ، إذا يشهد لشخص أنه نبي هذا يكفر؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ولا نبي بعده ؛ فقل له : إذا كان يكفر لرفعه لرجل إلى رتبة النبوة مع أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلي ويصوم ، فكيف لا يكفر من يرفع رجلاً -أياً كان مقامه - إلى رتبة الجبار سُبحانَهُ وتعالى!! فيعطيه من الخصائص أو الحقوق ما ليس إلا لله جلّ وعلا .

قال: «فكيف بمن رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ» شمسان وكذلك يوسف وسيأتي قريباً أيضاً تاج، هذه أسماء أشخاص كانوا في زمان الشيخ يُعَظَّمُونَ ويُتَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ وتُصَرَّفُ لَهُمُ النذور، ولهذا ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ محمد بن إبراهيم في سؤال له عن هؤلاء، قال: «أما تاج فهو من أهل الخرج تُصَرَّفُ إِلَيْهِ النذور ويُدعى ويُعتقد فيه النفع والضرر، وأما شمسان فالذي يظهر من رسائل إمام الدعوة رَحِمَهُ اللهُ أنه لا يبعد عن العارض -وهي منطقة- وله أولاد يُعتقد فيهم، وأما يوسف فقد كان على قبره وثنٌ يُعتقد فيه»؛ فهؤلاء شمسان ويوسف وتاج أشخاص كانوا يُعتقد فيهم، تقدم لهم القرابين والنذور ، ويُلتجأ إِلَيْهِمْ؛ فكيف من رفع هؤلاء الأشخاص إلى رتبة الألوهية وأعطاهم من الحقوق ما ليس إلا لله تَبَارَكَ وتعالى لا يكون كافراً لكونه يُصلي ويصوم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟! ومن ادّعى في شخص أنه نبي يكون كافراً وإن شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإن صلى وصام!! .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : «سُبْحَانَ اللهِ، مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾» وهذا عمى في القلوب وضلال من أشد ما يكون ، لأنهم يدركون أن من يرفع شخصاً إلى درجة النبوة يكفر وإن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإن صلى وصام ، ولا يقرون بأن من رُفِعَ إلى درجة الألوهية يكفر لكونه يشهد بهذه الأمور.

قال رحمه الله تعالى :

وَيُقَالُ أَيْضاً: الَّذِينَ حَرَّفَهُمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ مِثْلَ الْإِعْتِقَادِ فِي يُوسُفَ وَشَمْسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا، فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكْفِرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ الْإِعْتِقَادَ فِي تَاجٍ وَأَمْثَالِهِ لَا يَضُرُّ، وَالْإِعْتِقَادَ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يُكْفِرُ؟

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ هذا الجواب الرابع على تلك الشبهة، قال: «وَيُقَالُ أَيْضاً: الَّذِينَ حَرَّفَهُمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» كانوا حوله ويعظمونه ويظهرون محبته وتولييه، «وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ» كانوا يعيشون بين الصحابة ، وما عرفوه من أمور الإسلام

عرفوه من طريق الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم ، لكنهم وقعوا في غلوٍ شنيع ؛ فاعتقدوا في علي رضي الله عنه ورفعوه إلى مقام الألوهية. قال: «وَلَكِنْ اَعْتَقِدُوا فِي عَلِيٍّ مِثْلَ اَلْاَعْتِقَادِ فِي يُوسُفَ وَثَمَسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا» يعني اعتقدوا في علي اعتقادات مثل اعتقادات من اعتقد في ثمانان أو في تاج أو يوسف أو غيرهم من الذين كان من يتعلق بغير الله يعتقد بهم ويصرف لهم ما لا يُصرف إلا لله تبارك وتعالى.

قال: «فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكْفِرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟» وهذه كلمة كثيرا ما قالها أهل الضلال في حق الشيخ رحمه الله ومن كانوا على نهجه في الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، يقولون أنه يكفر المسلمين، وتبرأ من ذلك في كتاباتٍ ورسائل عديدة، ويبنّ كذب هذه الدعوة وأنه لا يكفر مسلماً وإنما يكفر من كفره الله ورسوله ، وهو من كان كافراً بدلالة كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وحاشاه وغيره من أئمة العلم والفضل أن يكفروا مسلماً ؛ بل هو رحمه الله وغيره من أئمة العلم من أشد الناس نخياً عن التكفير.

قال : «فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكْفِرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ اَلْاَعْتِقَادَ فِي تَاجٍ وَأَمْثَالِهِ لَا يَضُرُّ، وَالاَعْتِقَادَ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يُكْفِرُ؟» فهذه أمثلة يسوقها رحمه الله وشواهد من الكتاب ومن السنة ومن أفعال الصحابة رضي الله عنهم يبين من خلالها فساد هذه الشبهة ووهائها.

قال رحمه الله تعالى :

وَيُقَالُ أَيْضاً: بَنُو عُبَيْدٍ الْقَدَّاحِ الَّذِينَ مَلَكَوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَنِ بَنِي الْعَبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَدْعُونَ الْإِسْلَامَ وَيُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ بِلَادُ حَرْبٍ، وَغَزَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَدُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ.

وهذا الجواب الخامس لهذه الشبهة، قال: «وَيُقَالُ أَيْضاً: بَنُو عُبَيْدٍ الْقَدَّاحِ الَّذِينَ مَلَكَوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَنِ بَنِي الْعَبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَيُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ بِلَادُ حَرْبٍ»، بنو عبيد القداح هؤلاء تسلطوا على المغرب ومصر مدة من الزمن وكانت المساجد قائمة والأذان يُرفع وتقام الصلاة وتقام الجمعة؛ ولكنهم عظموا هؤلاء الحكام من بني عبيد ، يدعون أنهم من الفاطميين، وهذه دعوة كاذبة بينها أهل العلم وأنها نسبة كاذبة لا صحة لها، فأتباع هؤلاء عظموهم واعتقدوا فيهم اعتقادات

لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى ، فاتفق أهل العلم على كفرهم وقتلهم، وأنّ بلادهم بلاد حرب ، مع أن بلادهم فيها إقام الجمعة والجماعة والصلاة.

قال: «وَعَزَّاهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَدُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ» أي ولم يجعلوا الشهادتين والصلاة والزكاة والجمعة والجماعة فرقاً مؤثراً عندهم أو مانعاً من الحكم عليهم بالكفر وقتلهم واعتبار بلادهم بلاد حرب، لم يعتبروا ذلك مانعاً من ذلك.

قال رحمه الله تعالى :

وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: «بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ» وَهُوَ الْمُسْلِمُ يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ ، ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعَ كَثِيرَةٍ، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يُكْفَرُ وَيُجْلُ دَمُ الرَّجُلِ وَمَالُهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا مِثْلَ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ وَاللَّعِبِ.

ثم ذكر رحمه الله هذا الجواب السادس على هذه الشبهة، قال: «وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ» يعني كما يدعيه صاحب هذه الشبهة والمثير لها؛ إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ من الأمور التي ذكروها في الشبهة .

يقول الشيخ في الجواب : «فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ» ما معنى هذا الباب؟ وفي كل المذاهب يوجد هذا الباب (باب حكم المرتد)، وتحت هذا الباب تُذكر الأمور التي تحصل بها الردة عن الإسلام ويحصل بها انتقاض الإسلام، وتجد من يذكر هذه الأمور التي يحصل بها الردة بين مطول ومختصر، منهم من يذكر أشياء كثيرة وتفصيل دقيقة ، ومنهم من يذكر ما هو دون ذلك ، لكنهم جميعاً متفقين على أن المرء يرتد عن دينه بفعل هذه الأمور التي تكون بها الردة عن الإسلام ، سواء حصل منه أمراً واحداً ينقض الإسلام أو أكثر من واحد، ولهذا يقول الشيخ : «فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ»، إذا كنتم تقولون أن الكفار الأول لم يُكفروا إلا لأنهم جمعوا بين هذه الأشياء ؛ يشركون ويكذبون وينكرون القرآن وينكرون البعث ويكذبون بالنبي عليه الصلاة والسلام ولهذا كُفِّروا، إذاً ما معنى «باب حكم المرتد» الموجود في كتب الفقه عموماً؟

قال: «وَهُوَ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ» هذا تعريف للمرتد ؛ قال وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه. «ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعاً كَثِيرَةً» أي تحصل بها الردة.

«ثُمَّ ذَكِّرُوا» أي أئمة الفقه وعلماء الفقه من كل المذاهب «ذَكِّرُوا أَنْوَاعاً كَثِيرَةً كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يُكْفِّرُ وَيُجِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ ذَكَّرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا ، مِثْلَ كَلِمَةِ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ وَاللَّعِبِ» عُذَّتْ نَاقِضًا لِلإِسْلَامِ وَمَوْجِبًا لِلرَّدَةِ عَنِ الإِسْلَامِ . فإذا ما معنى ذلك؟ وما معنى هذا الكتاب الذي في جميع كتب الفقه باختلاف المذاهب؟ هذا أيضا جواب آخر على هذه الشبهة.

قال رحمه الله تعالى :

وَيُقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿يُحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهُ كَفَرَهُمْ بِكَلِمَةٍ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ وَيُصَلُّونَ مَعَهُ وَيَزُكُّونَ وَيَحْجُونَ وَيُوحِدُونَ . وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لَا تَعْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَرَّحَ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ تَبُوكٍ قَالُوا كَلِمَةً ذَكَّرُوا أَنََّّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ . فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الشُّبْهَةَ وَهِيَ قَوْلُهُمْ: تُكْفِّرُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْسَاءً يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُصَلُّونَ وَيُصُومُونَ وَيَحْجُونَ؛ ثُمَّ تَأَمَّلْ جَوَابَهَا فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الْأُورَاقِ.

قال: «وَيُقَالُ أَيْضًا» أي في الجواب على هذه الشبهة وهو الجواب السابع

«الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿يُحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾» تأمل الآية ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ إسلامهم أي شهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ؛ هذا هو الإسلام الذي كانوا عليه، فأثبت الله جل وعلا لهم إسلاما وكفرا بعده سببه أنه قالوا كلمة الكفر ﴿يُحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ؛ فإذا من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويصلي ويصوم ثم يحصل منه أمرا ينقض الإسلام أيقى على إسلامه مع وجود الناقض؟! أنفيده الشهادة وتنفيده الصلاة ويفيده الصيام مع وجود الناقض؟! حاشا. قال ﴿يُحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾

قال: «أَمَا سَمِعْتَ اللَّهُ كَفَرَهُمْ بِكَلِمَةٍ؛ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ، وَيُصَلُّونَ مَعَهُ، وَيَزُكُّونَ، وَيَحْجُونَ، وَيُوحِدُونَ» من أين للشيخ رحمه الله أنهم يصلون معه ويحجون معه ويحجون

معه ويوحّدون معه؟ لأن الله أثبت لهم إسلامًا، قال: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أثبت الله لهم إسلامهم ، وأثبت لهم كفرهم بعد هذا الإسلام، أسلموا ، ما معنى أسلموا؟ أي شهدوا أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، أتوا بأمور الإسلام؛ لكن لما قالوا كلمة الكفر انتقض هذا الإسلام ، فكيف يقول هؤلاء تجعلوننا مثل أولئك؟ يعني مثل المشركين مع أننا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة. فهذه الآية فيها كشف لهذه الشبهة.

قال: «وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾» كفروا بعد إيمانهم بكلمة الكفر التي قالوها: "ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء؛ أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء"، ولما قال لهم في ذلك ، قالوا "إنما كنا نخوض ونلعب" يعني ما قصدنا حقيقة الأمر وإنما كنا نذهب عن أنفسنا عناء الطريق ومشقة السفر ، فمن باب المداعبة والمزاح قلنا هذه الكلمة؛ فنزل قول الله ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، وكان بعضهم يمسك بخطام الناقة ويعتذر للنبي عليه الصلاة والسلام من هذه الكلمة ولا يلتفت عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يزيد على هذه الآية ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. فكان هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله ويصومون ويصلون وجاهدوا مع النبي عليه الصلاة والسلام ونزلت فيهم هذه الآية ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

قال: «فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَرَّحَ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ» ؛ قالوا في حق فضلاء الصحابة: "ما رأينا أجبن من قرائنا هؤلاء ولا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء"، فنزلت هذه الآية ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ والشيخ يقول: «قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ» فكفروا مع أنهم يصلون ويصومون ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويجاهدون مع النبي عليه الصلاة والسلام وكفروا بذلك!! فمن كان يصلي ويصوم ويشهد أن لا إله إلا الله ويجعل مع الله شريكًا ندا يصرف له من الحقوق ما ليس إلا لله ألا ينتقض إسلامه؟ قد قال الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

قال: «فَتَأْمَلْ هَذِهِ الشُّبْهَةَ وَهِيَ قَوْلُهُمْ: تُكْفِرُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ أَنَسَاءً يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُصَلُّونَ وَيُصُومُونَ، ثُمَّ تَأْمَلْ جَوَابَهَا فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ» أي أنّ هذه الأجوبة السبعة التي ذكرها رحمه الله عظيمة الشأن عليّة القدر كبيرة الفائدة وصفها رحمه الله أنها أنفع ما في هذا الكتاب.

قال رحمه الله تعالى :

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضاً: مَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، وَقَوْلُ أَنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ : "اجْعَلْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ ؛ فَحَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ هَذَا مِثْلَ قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾

ثم ذكر رحمه الله أيضاً جوابين إتماماً لما سبق وإضافة إلى سبق، مع أن ما سبق كل جواب من الأجوبة التي ذكرها رحمه الله كافٍ في كشف هذه الشبهة ؛ لكن لما كانت تُذكر وتكرر وتعاد وتُبدى وأثرت في أناس كثيرين، حرص رحمه الله على أن يجيب عليها بأجوبة عديدة، ولهذا نلاحظ أن هذه الشبهة هي الشبهة التي أجاب عنها بأجوبة كثيرة، يعني بقية الشبهة إما يجيب عنها بجواب واحد أو جوابين أو ثلاثة، أما هذه الشبهة فأجاب عنها بقرابة التسعة أجوبة، هذه السبعة التي مضت وهذين الجوابين هنا ، وهذه كلها أجوبة منه رحمه الله تعالى على تلك الشبهة.

قال: «وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضاً: مَا حَكَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾» ؛ هؤلاء أناس كانوا على علم وعلى شيء من الصلاح وإلى جنب النبي موسى عليه السلام أحد أولي العزم من الرسل ثم طالبوه هذه المطالبة قالوا : ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. «وَقَوْلُ أَنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ :اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ ؛ فَحَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ هَذَا مِثْلَ قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾».

قال رحمه الله تعالى :

وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ لَمْ يَكْفُرُوا. فَالْجَوَابُ أَنَّ تَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَفْعَلُوا، وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَكَذَلِكَ لَا خِلَافَ أَنَّ الَّذِينَ نَهَاَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لَكَفَرُوا، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

قال رَحِمَهُ اللهُ : «وَلَكِنَّ لِلْمُشْرِكِينَ شُبُهَةً يُدْلُونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ» أي عندما نحتج عليهم بهذه القصة يشيرون شبهة «وهي أنهم يقولون : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ» ؛ وحاصل هذه الشبهة: إذاً لماذا تكفرونا وتستدلون على تكفيرنا بهذه الآية وبهذا الحديث؟ مع أن هؤلاء لم يكفروا بذلك! أي كيف تحتجون بهاتين القصتين على الحكم علينا بالكفر؟ قال : «فَالْجَوَابُ : أَنْ تَقُولَ : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا» طلبوا، قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فهم طلبوا ولم يفعلوا، «وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَفْعَلُوا» قالوا اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام ذلك ، لما رأوا للمشركين سُدرة يعكفون عندها ويعلقون عليها أسلحتهم تبركا قالوا: "يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط" وكانوا حدثاء عهد بإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام ((والذي نفسي بيده قلتكم كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة)).

فيقول الشيخ رحمه الله: أن الذين مع موسى لم يفعلوا والذين مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفعلوا «وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَكَذَلِكَ لَا خِلَافَ أَنَّ الَّذِينَ نَهَاَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لَكَفَرُوا، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ»؛ والشيخ رحمه الله طالما نهاهم عن الشرك وحذرهم منه وذكر لهم الدلائل على بطلان ما هم عليهم وبين لهم حق الله وذكر لهم الآيات والحجج والبراهين من كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع ذلك يعاندون ويخاصمون.

قال رحمه الله تعالى :

وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُفِيدُ : أَنَّ الْمُسْلِمَ بَلِ الْعَالَمِ قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشَّرِكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا، فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ وَالتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الْجَاهِلِ "التَّوْحِيدُ فَهْمُنَا" أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَهْلِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ. وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّ الْمُسْلِمَ الْمُجْتَهِدَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ كُفْرٍ وَهُوَ لَا يَدْرِي فَنَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ وَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ أَنَّهُ لَا يُكْفَرُ؛ كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالَّذِينَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُكْفَرْ فَإِنَّهُ يُغَلِّظُ عَلَيْهِ الْكَلَامَ تَغْلِيظًا شَدِيدًا كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم ذكر رحمه الله فوائد تستفاد من هذه القصة ، يستفيدها المسلم وينتفع بها.

قال : «وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُفِيدُ : أَنَّ الْمُسْلِمَ -بَلِ الْعَالَمِ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشَّرِكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا» وهذا يدخل في باب الخوف من الشرك؛ قد عقد رحمه الله في كتابه التوحيد باب نافعاً عنوانه «الخوف من الشرك»

وبدأه بقول الله تعالى ﴿وَاجْتَنِبْ بَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ونقل عن إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم!!» .

قال : «وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُفِيدُ : أَنَّ الْمُسْلِمَ -بِلِ الْعَالَمِ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشَّرِكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا» ولهذا أيضا جاء في الاستعاذة قد ثبتت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم))، فرق بين من يخاف من الشرك على نفسه وعلى ولده ويدعو الله جل وعلا أن ينجيّه منه ، وبين من هو متلبس بالشرك متلطف به ويدّعي أنه بريء منه.

قال : «فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ وَالتَّحَرُّزَ» هذه القصة تفيد التعلم والتحرز من جهة ماذا؟ إذا كان هؤلاء أصحابا لموسى من أولي العزم من الرسل يمشون معه ويتعلمون ويرونه ويتفقهون على يديه ثم فجأة يقولون: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾!! وأيضا هؤلاء الصحابة مع النبي عليه الصلاة والسلام ومتجهين إلى القتال في سبيل الله ونصرة لدينه ومعهم السلاح ويمرون بسدرة ويقولون: "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" ، فيقول عليه الصلاة والسلام : ((إنها السنن ، قلتُم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة))، فإذا هذا يفيد التحرز، إذا كان هؤلاء قالوا هذه الكلمة وهم كانوا يمشون جنبًا إلى جنب مع النبي عليه الصلاة والسلام في قتال وفي جهاد في سبيل الله، فهذا يفيد التعلم والتحرز؛ التعلم أي للتوحيد وأيضا معرفة ضده وهو الشرك، والتحرز من الوقوع في الشرك بالله ، التحرز أي الاحتياط والبعد والمجانبة للشرك ووسائله وأسبابه.

«فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ وَالتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الْجَاهِلِ "التَّوْحِيدُ فَهْمُنَاهُ" أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَهْلِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ» يعني بعض الناس لا يفهم التوحيد وإذا أُريد تعليمه التوحيد قال : التوحيد نعرفه، لا يخفى علينا التوحيد، من يجهل التوحيد؟ التوحيد فهمناه ، ولا يقبل أن يسمع درسًا أو كلمة في التوحيد، يقول: التوحيد فهمناه ما نحتاج إلى أن نبينه، أو بعضهم يقول التوحيد لا يحتاج أن يُدرس مرات وكرات وأن تُصرف في دراسته أوقات، يمكن في دقائق تنتهي منه، ما يحتاج الأمر إلى ذلك، التوحيد فهمناه .

فهذه القصة تفيد التعلم أي للتوحيد ومدارسته ، والاحتراز ، وتفيد أن كلمة "التوحيد فهمناه" التي قد يقولها البعض هذه كما قال الشيخ لا تصدر إلا من جاهل وهي من مكائد الشيطان. يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ : هذه الكلمة قد صدرت من بعض الطلبة لما كثر التدريس في التوحيد متنا أو كتب تقرر التوحيد وكثر ذلك سئموا وأرادوا القراءة في كتب أخرى -سئموا أي ملّوا من القراءة أصابهم السآمة والملل من القراءة في التوحيد وأرادوا أن يقرؤوا في كتب أخرى- فقالوا هذه الكلمة: خلاص التوحيد فهمناه لا نحتاج إلى دراسة توحيد، فقال: هذه الكلمة صدرت من بعض الطلبة . قال : وقيل إنها من المراسلين -يعني الذين يرسلون الشيخ- فنقم عليه المصنف في هذا القول. يعني كان يرسلهم بالتوحيد ويذكر لهم شواهد وأدلة فكتب إليه بعضهم لا ترسل لنا ، التوحيد فهمناه، التوحيد مفهوم عرفناه ما نحتاج أن تكتب لنا شيئًا في التوحيد. فيقول أن هذه القصة تفيد أهمية

التعلم للتوحيد ودراسته ، وأهمية الاحتراز من الشرك مهما كان الإنسان في المكانة ، وأن الاستهانة بدراسة التوحيد هذه من أسباب الجهل وهي مكائد الشيطان.

قال: «وَتُفِيدُ أَيْضاً: أَنَّ الْمُسْلِمَ الْمُجْتَهِدَ» المجتهد في إسلامه وعبادته «إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ كُفِّرَ وَهُوَ لَا يَدْرِي» خرجت منه كلمة الكفر وهو لا يدري «فَنَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ وَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ؛ كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ» ((أي أن موسى لم يكفرهم بذلك وأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكفرهم بذلك ، لأنه قالها وهو لا يدري ثم نُبِهَ من ساعته وانتبه وتاب إلى الله ورجع عن كلامه؛ هذا لا يكفر . لكن شخص تنبهه وتأتي له بالآية والحديث والنصوص والأدلة والحجج والبراهين ويُصر على أعمال الشرك والكفر بالله سبحانه وتعالى .

قال : «وَتُفِيدُ أَيْضاً» هذه كلها فوائد مستنبطة من القصة.

قال : «وَتُفِيدُ أَيْضاً: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغَلِّظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ» يعني لو لم يكفر لقوله هذه الكلمة الكفرية كونها صدرت عنه وهو لا يدري لا يعني ذلك أنه يُترك؛ بل يغلظ عليه في الكلام ويشدد عليه في القول ، مثل ما غلظ موسى وشدد القول على أولئك ، وكما أيضا غلظ نبينا عليه الصلاة والسلام القول على الذين قالوا "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" .

قال: «وَتُفِيدُ أَيْضاً: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغَلِّظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَغْلِيظاً شَدِيداً، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» أي مع هؤلاء الصحابة الذين قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام: "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط".

ويكون بهذا الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أجاب عن الشبهة من وجوه كثيرة مسددة موفقة نافعة جداً لطالب العلم ، وأيضا ذكر جواب هذا الاعتراض الذي قد يورده البعض على جواب الشيخ الأخير رَحِمَهُ اللهُ وغفر له وجزاه خير الجزاء . والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



شرح كشف الشبهات

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ١٠ إلى الدرس ١١

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٧/٠٦/١٤٤٠ هـ

الدرس العاشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه كشف الشبهات: ولهم شبهة أخرى؛ يقولون: إن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة قتل من قال لا إله إلا الله، وقال: ((أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟)) ، وكذلك قوله: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله))، وأحاديث أخر في الكف عمن قالها. ومراد هؤلاء الجهلة: أن من قال لا إله إلا الله لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل. فيقال لهؤلاء المشركين الجاهل: معلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون لا إله إلا الله، وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون، ويدعون الإسلام. وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وهؤلاء الجهلة مقرّون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها ، فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئاً من الفروع؟ وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟ ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث؛ فأما حديث أسامة فإنه قتل رجلاً ادّعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادّعاه إلا خوفاً على دمه وماله. والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك. وأنزل الله في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] أي: فتشوا. فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإن تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ، ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى. وكذلك الحديث الآخر وأمثاله معناه ما ذكرناه: أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك. والدليل على هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: ((أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟))، وقال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)) هو الذي قال في الخوارج: ((أينما لقيتموهم فاقتلوهم، لمن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد))، مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً، حتى إن الصحابة يحقرون صلاحهم عندهم، وهم تعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم لا إله إلا الله ولا كثرة العبادة ولا ادّعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة. وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة. وكذلك أراد صلى الله عليه وسلم أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل

الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾
[الحجرات: ٦] وكان الرجل كاذباً عليهم. فكلُّ هذه يدل على أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه.

ذكر المصنّف رحمه الله تعالى هنا شبهةً أخرى لمن يتعلقون بغير الله تبارك وتعالى دعاءً ورجاءً وذللاً ورجباً ورهباً ، وسبق أن ذكر لهم رحمه الله شبهةً وجهه إلى الإصغاء إلى جوابها ، وأجاب عنها من تسعة أوجه، وهي : «أن هؤلاء يقولون: إنّ الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ويُنكِرُونَ البعث ويُكذِّبُونَ بالقرآن، أمّا نحن فنشهد أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله...» إلى آخره. وأجاب رحمه الله عن هذه الشبهة من وجوه تسعة ، كل واحدٍ منها كافٍ في نقض هذه الشبهة.

وهنا قال: «ولهم شبهة أخرى، يقولون: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم أنكرَ على أسامة قتل من قال لا إله إلا الله، وقال: ((أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟))». وهنا يأتي تساؤل: ما الفرق بين هذه الشبهة والتي قبلها؟ والفرق بين هاتين الشبهتين من جهتين:

- الجهة الأولى: هي استدلالهم على ما سبق بكلام النبي عليه الصلاة والسلام تشبيهاً على الناس وتلبيساً ؛ استدلالهم على ذلك بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وأنّ ثمة أحاديث ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها الأمر بالكف عمن قال لا إله إلا الله ، أو شهد أنّ لا إله إلا الله. ووظفوا هذه الأحاديث على مذهبهم الفاسد واعتقادهم الباطل.
- والجهة الثانية: أنّهم قالوا إنّ النصوص دلت على أنّ مَنْ شهد أنّ لا إله إلا الله فهو حرام الدم والمال؛ فأشاروا إلى هذه الأحاديث تقريراً لهذا المعنى، وأنّ مَنْ ينطق بالشهادتين حرّم دمه وماله، فكيف يقال بأنّه يكفر وأنّه يُقتل إذا تعلّق بغير الله، ولجأ إلى غير الله، ودعا غير الله؟ فهذا محصل مراد هؤلاء بهذه الشبهة، وهذا هو الفرق بينها وبين الشبهة التي قبلها.

وجواب الشيخ رحمه الله عن هذه الشبهة أيضاً كان من جهتين؛ الجهة الأولى: ذكره رحمه الله للنصوص الدالة على أنّ مَنْ قال «لا إله إلا الله» وشهد بها وأتى بما يناقضها يكفر. وأعاد ذكر بعض الأدلة التي سبق أن ذكرها في الجواب على الشبهة السابقة أعادها ملخصة هنا. والوجه الثاني: في نقضه رحمه الله لهذه الشبهة، بيانه لخطأ هؤلاء في فهمهم لهذا الحديث ونظائره من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الواردة في هذا الباب.

قال رحمه الله: «ولهم شبهة أخرى يقولون إنّ النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة -أي: ابن زيد- قتل من قال لا إله إلا الله، وقال: ((أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟))، وكذلك قوله: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)) ، وأحاديث أخر في الكف عمن قال لا إله إلا الله»، ومراد هؤلاء بالشبهة واضح،

وهو أنَّ هذه الأحاديث ونظائرها دلَّت على أنَّ مَنْ قال لا إله إلا الله حُرِّمَ دمه وماله، فكيف تستجيزون أن يُكفَّر وأن يُقاتل مع أنه يقول هذه الكلمة وينطق بها؟.

قال: «ومراد هؤلاء الجُهلة» أي مِنْ استدلالهم بهذه الأحاديث «أنَّ مَنْ قال لا إله إلا الله لا يُكفَّر ولا يُقتل ولو فعل ما فعل» مراده بقوله ولو فعل ما فعل: أي من الأمور الناقضة لـ«لا إله إلا الله» ، فاستدلّاهم بهذا الحديث يفيد أنَّهم يرون أنَّ قائل «لا إله إلا الله» يَحْرُمُ دمه وماله ولا يُكفَّر وإنَّ قال ما قال مِنْ المكفَّرات الناقلة مِنَ الملة، أو فعل ما فعل مِنْ نواقض الإسلام فإنَّه لا يُكفَّر ولا يُقتل ، هذا فهمهم لهذه الأحاديث. وحاشا أن يكون مراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأحاديث هذا المعنى الذي فهمه هؤلاء، وسيأتي بيان الشيخ رحمه الله في ختام جوابه على هذه الشبهة ذَكَّرْ معنى هذا الحديث ونظائره من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الواردة في الباب.

قال رحمه الله في الجواب عن هذه الشبهة: «فيقال لهؤلاء المشركين الجهال» ؛ «المشركين»؛ لكونهم صرفوا حق الله لغيره، وأخذوا يدافعون عن صرف هذا الحق الذي هو الله تبارك وتعالى ، يدافعون عن صرفهم لغيره سبحانه وتعالى ممن لا يملك لهم نفعا ولا دفعا ولا يملك لهم موتا ولا حياة ولا نشورا. و«جهال»؛ لأنَّ هذا هو أعظم الجهل، الجهل بالتوحيد أعظم المقاصد وأجلُّ الغايات وأرفعها.

قال: «فيقال لهؤلاء المشركين الجهال، معلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون لا إله إلا الله»؛ اليهود كانوا في المدينة مع النبي صلى الله عليه وسلم، ويُسمع منهم الشهاداتتان، ويشهدون الصلاة في المساجد، ويعملون أعمال أهل الإسلام، ومن المعلوم أنَّ المنافق هو من يُظهر الإسلام ويبطن النفاق، ومعنى يُظهر الإسلام: يشهد أنَّ لا إله إلا الله، ويشهد أنَّ محمداً رسول الله، ويطبق الصلاة، ويؤدي العبادات الظاهرة. فماذا يقول هؤلاء في هذه الحال؟ حال المنافق الذي يشهد أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ومن المعلوم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قاتل اليهود وسباهم، ليس مرة واحدة ولا في موطن واحد بل مراتٍ وفي مواطن. ومتى قاتلهم؟ عندما ظهر منهم ما يكشف عن نفاقهم ، ويدل على سوء طويّاتهم، وأنَّهم ليسوا مع أهل الإيمان قلباً وقالباً، فعندما يظهر منهم ما يدل على ذلك ويُبَيِّنُ حالهم قاتلهم عليه الصلاة والسلام، وكان قتالُهُ للمنافقين وسببُهُ لأموالهم ونسائهم تكرر في عدة مواطن، كما دلَّ على ذلك القرآن، وكما دلَّ على ذلك السنة وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن ذلك ما جاء في سورة الحشر في قتال النبي عليه الصلاة والسلام لهؤلاء.

فالشاهد أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام صحَّ عنه قتال المنافقين مع أنَّهم يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ويشهدون الصلاة، ومع ذلك قاتلهم. وهؤلاء يقولون: "نحن نشهد أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ونصلي، ونصوم، فلا يحلُّ قتالنا"؛ يعني: طالما أنَّ هذه الأمور نفعلها أو تُفعل، فمَنْ يفعلها لا يحلُّ قتاله - معنى كلامهم- بأي وجه من الوجوه، أليس كذلك؟ معنى كلامهم أنَّه لا يحلُّ تكفير وقتال مَنْ جاء بهذه الأمور

بأي وجه من الوجوه، هذا هو المراد باستدلالهم. ولهذا قال الشيخ رحمه الله في تقرير مراد هؤلاء : «وإن فعل ما فعل»، أي: من أنواع التناقض للإسلام.

قال: «وأن أصحاب الرسول» أي: ومعلوم أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم «قاتلوا بني حنيفة، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلّون، ويدعون الإسلام»، قاتلهم عليه الصلاة والسلام، وسبق أن ذكر رحمه الله هذا الدليل، وذكر أيضاً اعتراض هؤلاء على هذا الدليل.

قال: «فإن قال : هؤلاء كفّروا وقوتلوا لأنهم قالوا مسيلمة نبي»، قال رحمه الله: «هذا هو المطلوب» هذا هو المطلوب، هم جاؤوا به على أنه شاهداً لهم، وهو في الحقيقة شاهدٌ عليهم، إذا كان من رفع مخلوقاً إلى رتبة مخلوق كُفّر وقُتِل، مع أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلّي ويصوم، ويظهر الإسلام، يُكفّر ويُقاتل، فكيف بمن يرفع مخلوقاً إلى رتبة جبار الأرض والسموات؟ فيعطي المخلوق من الخصائص والحقوق ما ليس إلا لله جل وعلا، أهذا لا يُكفّر وذاك يُكفّر؟!.

قال: «وكذلك الذين حرّقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه» مع أنهم كانوا من أصحابه، وكانوا يصلون معه، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لكن لما وُجد فيهم ما ينقض الشهادتين ويبطل الأعمال قتلهم علي رضي الله عنه شرّ قتله، قتلهم علي رضي الله عنه شرّ قتله، وذلك عندما غلو في علي رضي الله عنه وعظموه تعظيماً لا يليق بالمخلوق، ورفعوه بهذا التعظيم إلى رتبة الإلهية، فأجج عليّ ناره وألقاهم في النار وقاتلهم هذه القتلة، ولم ينكر عليه الصحابة قتلهم، وإنما أنكر عليه بعض الصحابة تحريقهم بالنار، أي؛ أنكروا عليه طريقة القتل، لكن لم ينكروا عليه قتله لهم. فهؤلاء كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهم كانوا مع عليّ رضي الله عنه ومن أصحابه، ويدعون أنهم من شيعته ومن أعوانه، ولكن لما غلوا فيه هذا الغلو ورفعوه إلى مقام الإلهية قتلهم رضي الله عنه هذه القتلة.

قال: «وهؤلاء الجاهل مَقْرُونٌ أَنْ من أنكر البعث كفر وقُتِل ولو قال لا إله إلا الله»؛ وهذا وجهٌ في نقض شبهة هؤلاء، يُؤتى لهم من التناقض ما يقرّون به ويسلمون ويحتجّ عليهم بذلك. فيقال لهم مثلاً: ماذا تقولون فيمن ينكر البعث؟ يقول: ليس هناك بعث ولا جنة ولا نار ما رأيكم فيه؟ ما قولكم فيه؟ ما رأيكم بمن ينكر اليوم الآخر؟ يقول ليس هناك يوم آخر، ينكر هذا الركن من أركان الإيمان، ما رأيكم فيمن ينكر النبوات؟ ويزعم أنه لا نبي وليس هناك نبوات، يجحد ذلك، ما رأيكم فيمن ينكر وجود الملائكة؟ يقول ليس هناك ملائكة، مع أنهم ذكروا في القرآن وذكروا في السنة، ما رأيكم فيمن ينكر ذلك؟ ماذا سيقولون؟ يكفر، وإن شهد أن لا إله إلا الله؟ وإن شهد أن لا إله إلا الله يكفر. وهذه أركان الإيمان؛ البعث والملائكة والأنبياء أركان للإيمان، لكنها ليست أعظم من الإيمان بالله، الذي هو أصل أصول الإيمان وإليه ترجع هذه الأصول، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ

أَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ» [البقرة: ٢٨٥]. فهذه الأصول ترجع إلى هذا الأصل الذي هو أصل أصول الإيمان ، وفي باب الكفر قال: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ» [النساء: ١٣٦] فهي ترجع إليها، فكيف يقال في حق مَنْ أنكر هذه الأصول أو شيء منها أنه يكفر وإن قال لا إله إلا الله!! ولا يكفر مَنْ جحد أصل الأصول وهو توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له؟.

قال: «وهؤلاء الجهلة مقرون أن منكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها»؛ أيضاً هؤلاء يُقَرُّونَ أَنَّ من يجحد شيئاً من أركان الإسلام ومبانيه، مثل: لا يقر بوجوب الصلاة، لا يقر بوجوب الصيام. فيما لو قال قائل: الصيام ليس واجبا، أو الحج ليس واجبا، وجحد ذلك ماذا يقولون هؤلاء فيه؟ يقولون: هو كافر وإن قال لا إله إلا الله.

قال: «فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئاً من الفروع؟» أي كيف لا تنفعه لا إله إلا الله ونُطْقُهُ بها إذا جحد شيئاً من الفروع «وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟»، كيف لا تنفعه عندما يجحد تلك الأصول: البعث واليوم الآخر والأنبياء ، أو يجحد شيئاً من أركان الإسلام! وتكون نافعة له عندما يجحد أصل الدين وهو توحيد الله سبحانه وتعالى وإخلاص الدين له؟، فهذا واضح تمام الوضوح في كشف هذه الشبهة وإظهار بطلانها.

قال: «ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث»؛ هنا انتقل رحمه الله تعالى إلى الوجه الثاني في رد هذه الشبهة، وهو بيان المعاني الصحيحة لهذه الأحاديث التي استدلو بها، وردّ المعنى الباطل الذي فهمه هؤلاء من هذه الأحاديث، وأنّ استدلالهم بهذه الأحاديث استدلالاً بها فيما لا تدل عليه وفيما ليس مراداً منها.

قال: «فأما حديث أسامة، فإنه قتل رجل ادعى الإسلام؛ بسبب أنه ظنّ أنه ما ادّعاه إلا خوفاً على دمه وماله» الذي حصل من أسامة رضي الله عنه أنه لما لقي هذا الرجل وتمكن منه وأراد أن يُجهز عليه بسيفه، قال الرجل: "أشهد أن لا إله إلا الله" نطق بالشهادتين في هذه الحال ، فظنّ أسامة رضي الله عنه أنه إنما قالها تَعَوّذاً، ظنّ أنه إنما قالها أي في هذه اللحظات تعوداً ؛ أي ليحامي نفسه من القتل وليقي نفسه من القتل، لا عن اعتقاد ولا عن رغبة ، فظنّ ذلك فقتله، قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظنّ أنه ما ادّعاه إلا خوفاً على دمه وماله، أي: لا عن رغبة ولا عن صدق في هذه الشهادة مع الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((هلاً شققت عن قلبه؟)) يعني هذا المراد لا يظهر لأحد إلا إذا اطلع على ما في قلب الإنسان، الإرادة مكانها القلب والنية مكانها القلب، ونحن لنا الظاهر ، والله تبارك وتعالى يتولى السرائر. فالرجل أعلن الإسلام، ادّعى الإسلام، نطق بالشهادتين أصبحت عاصمةً له، فيبقى على أصل العصمة لنطقه بالشهادتين إلا إذا ظهر لنا منه ما ينقضها، أمّا إذا قالها عصمته حتى يقول لا إله إلا الله، إذا قالها عصمته وحرّم دمه وماله، إذا شهد وادّعى

الإسلام أصبح بذلك معصوم الدم والمال، إلا إذا ظهر بعد ما ينقض ذلك، لكن بمجرد إعلان الإسلام والنطق بالشهادتين ليس لنا إلا الظاهر، والله تبارك وتعالى يتولى السرائر. وأسامه رضي الله عنه قتله لما ادعى الإسلام بناءً على ظن منه رضي الله عنه وأرضاه أنه إنما قالها تهوداً، فبناءً على هذا الظن قتله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ((أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟)).

قال رحمه الله: «والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه» ومن إظهار الإسلام النطق بالشهادتين. «والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك» معنى قوله «ما يخالف ذلك»: أي أن يأتي بناقض، بجحد شيء من أركان الإيمان، أو جحد شيء من مباني الإسلام، أو الوقوع في أعظم المكفرات، وهو جحد ما يتعلق بحق الله عز وجل على عباده الذي هو أصل الدين ورأسه وأساسه.

قال: «وأنزل الله في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]» أي: أنزل الله تبارك وتعالى في ذلك أي في هذه الواقعة وفي هذا الأمر هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ ومعنى تبينوا: أي تثبتوا، والمراد تثبتوا فيمن أردتم قتله وقتاله، حتى لا يكون قتل ولا قتال لمن هو من أهل الإسلام، ومن هو مظهر للإسلام ولم يتبين منه خلاف ذلك.

قال: «فلاية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإن تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتِلَ»، ما الدليل؟ قال: «لقوله ﴿فتبينوا﴾» هذا هو الدليل؛ أنه إن تبين منه ما يخالف الإسلام وينقض الإسلام قُتِلَ، والدليل على ذلك قوله ﴿فتبينوا﴾، وجه الاستدلال: قال: «ولو كان لا يُقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى» ما معنى «فتثبتوا» إن كان لا يُقتل أو لا يُقاتل من قال لا إله إلا الله؟

قال رحمه الله: «وكذلك الحديث الآخر وأمثاله معناه ما ذكرناه، أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك» أي: فإن تبين منه ما يناقض ذلك كإنكار البعث، وإنكار الملائكة، وإنكار النبوات، وجحد أصل الأصول وأعظمها على الإطلاق وهو توحيد الله، وإنكار شيء من مباني الإسلام أو نحو ذلك من المكفرات فهذا لا يُكف عنه ولا يكون داخلاً في هذه الأحاديث. ولهذا جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث قال: ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)).

قال: «والدليل على هذا» أي: الدليل على أن هذا الذي قرره رحمه الله تعالى هو مراد النبي عليه صلاة والسلام من هذه الأحاديث خلافاً للمعنى الخاطيء والاستدلال الباطل الذي قرره هؤلاء الجهال.

قال: «والدليل على هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: ((أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟))، وقال: ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)) هو الذي قال في الخوارج: ((أينما

لقيمومهم فاقتلوههم، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد))» ؛ والخوارج أليسوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؟ أليسوا يصلون؟ أليسوا يصومون؟ أليسوا يقرؤون القرآن ويجتهدون في العبادة؟ بل قال النبي عليه الصلاة والسلام للصحابة: ((تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وعبادتكم مع عبادتهم، وتلاوتكم مع تلاوتهم)). فهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويصلون ويجتهدون في العبادة، ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام: ((أينما لقيمومهم فاقتلوههم))، وقال: ((لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد))؛ لأقتلنهم شر قتلة، مع أنهم يأتون بهذه الأشياء، يأتون بالشهادتين، ويصلون ؛ فماذا يقول هؤلاء في مثل هذا الحديث؟ وسبق أن قالوا: أن الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويصلي ويصوم لا يُقتل؟ فماذا يقولون في هذا الحديث؟ قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((أينما لقيمومهم فاقتلوههم لئن أدركتُهم لأقتلنهم قتل عاد)) ؟

قال رحمه الله: «مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتحميلاً» ؛ تحليلاً: أي تكراراً لكلمة التوحيد لا إله إلا الله «حتى إن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم» أي: عند الخوارج؛ لأنَّ عندهم اجتهاد في الصلاة، اجتهاد في العبادة، «وهم تعلموا العلم من الصحابة»؛ الخوارج من أين حفظوا القرآن؟ ومن أين عرفوا الصلاة؟ من أين عرفوا الصيام؟ الذين من أين عرفوه؟ ما عرفوه إلا من طريق الصحابة، أخذوا الذين وتلقوه عن الصحابة، لازموا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وجالسوهم وتلقوا عنهم العلم والدين، ثم انحرفوا والعياذ بالله هذا الانحراف الشنيع.

لا إله إلا الله!! يعني: انظر إلى حال هؤلاء، وأعدادهم ليست بالقليلة، يسر الله لهم لقيا الصحابة، وشاهدوا ذلك الجيل العظيم المبارك خير القرون، ورأوا ما هم عليه من الحال العظيمة من العبادة والجد والاجتهاد والنصح لدين الله، وأخذوا عنهم الدين، حفظوا القرآن من طريقهم، وحفظوا السنن من طريقهم، وتعلموا العبادة من طريقهم، ثم انحرفوا بعد ذلك هذا الانحراف، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام قال للصحابة: ((أينما لقيمومهم فاقتلوههم)) ، وقال: ((لئن لقيتهم لأقتلنهم قتل عاد)). وهم يحفظون القرآن ويقرؤونه، ويصلون، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله!!

قال: «وهم تعلموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم لا إله إلا الله، ولا كثرة العبادة، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة» أي: عندما يظهروا منهم ذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتلوا قتل عاد، أي: أن يقتلوا أينما وجدوا شر قتلة. فماذا يقول هؤلاء في مثل هذا الحديث؟ وشبهتهم نذكرها وهي قولهم: "الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلي ويصوم لا يحل أن يُقتل" ماذا يقولون في هذا الحديث؟. قال: «وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة» ؛ ماذا يقول أيضاً هؤلاء في هذه النصوص؟ والذين قُتلوا هنا وقوتلوا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويصلون، ويدعون الإسلام!!.

قال: «وكذلك أراد صلى الله عليه وسلم أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة» ؛ فإذا كان عليه صلاة والسلام أراد أن يغزو هؤلاء لكونهم منعوا الزكاة، فكيف بمن جحد التوحيد!! وامتنع من قبول التوحيد!! وأتى بما يَنْقُضُ التوحيد!! الذي لا تنفع الزكاة ولا الصلاة ولا أي طاعة إلا مع وجوده ، فإذا انتفى التوحيد لم يُنتَفَعْ بمثل هذه الأعمال؛ لأنَّه لها كالأساس للبنیان، وكالأصول للأشجار.

«حتى أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلٰى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] وكان الرجل كاذبًا عليهم» أي: في زعمه أنهم منعوا الزكاة، فهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يغزوهم، لكن أنزل الله عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: تثبتوا.

قال: «فكل هذا يدل على أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه» .

قال رحمه الله تعالى :

ولهم شبهة أخرى، وهي ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم؛ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْتَغِيثُونَ بِآدَمَ، ثُمَّ بَنُوْحَ، ثُمَّ بِإِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِعِيسَى، فَكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُونَ حَتَّى يَنْتَهَوْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاسْتِغَاثَةَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَيْسَتْ شَرْكَاً. فاجواب أن نقول: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فَإِنَّ الِاسْتِغَاثَةَ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا نَنْكِرُهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب، وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق. ونحن أنكرنا استغاثة العباد التي يفعلونها عند قُبُورِ الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله. إذا ثَبَتَ ذلك: فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ أَنْ يَحَاسِبَ النَّاسَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ كَرْبِ الْمَوْقِفِ؛ وَهَذَا جَائِزٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ أَنَّ تَأْتِي عِنْدَ رَجُلٍ صَالِحٍ حَيٍّ يَجَالِسُكَ وَيَسْمَعُ كَلَامَكَ وَتَقُولُ لَهُ: ادْعُ اللَّهَ لِي، كَمَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَأَمَّا بَعْدَ مَمَاتِهِ فَحَاشَا وَكَلَّا أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ ذَلِكَ عِنْدَ قَبْرِهِ ، بَلْ أَنْكَرَ السَّلَفُ عَلَى مَنْ قَصَدَ دَعَاءَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِهِ، فَكَيْفَ دَعَاؤُهُ نَفْسَهُ؟.

ثم ذكر رحمه الله هذه الشبهة لهؤلاء، قال: «ولهم شبهة أخرى، وهي ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْتَغِيثُونَ بِآدَمَ، ثُمَّ بَنُوْحَ، ثُمَّ بِإِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِعِيسَى، فَكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُونَ حَتَّى يَنْتَهَوْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاسْتِغَاثَةَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَيْسَتْ شَرْكَاً» ؛ وحديث الشفاعة

المشار إليه هنا هذا ثابتٌ في الصحيحين وغيرهما عن غير واحد من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، والشفاعة حقٌّ. ومضى قول الشيخ رحمه الله: «الشفاعة لا تُنكرها»، وهو هنا رحمه الله يذكُر استدلالهم على هذا الأمر بحديث النبي صلى الله عليه وسلم وحملُهُم له على الباطل، ونقول: حاشا أن يكون في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في شيء من كلامه صلوات الله وسلامه عليه ما يدل على جواز الشرك والاستغاثة بغير الله والتعلق بالخلق رجاءً ورغباً وطمعاً. حاشا أن يكون في كلامه شيء من ذلك، بل حياته كلها عليه الصلاة والسلام أمضاها في نقض ذلك وإبطاله. فحاشا أن يكون في شيء من كلامه عليه الصلاة والسلام شيء من ذلك، ومن استدلل بشيء من حديثه صلوات الله وسلامه عليه على تقرير مثل هذا الأمر فقد جمع بين حشَفٍ وسوءِ كِلَى، فجمع بين تقرير باطل، واستدلالٍ على هذا الباطل بكلام الرسول عليه الصلاة والسلام وحاشاه.

قال: «فقالوا: هذا يدل على أنَّ الاستغاثة بغير الله ليست شركاً»، ونقول: هي عين الشرك، الاستغاثة بغير الله هي عين الشرك، والدليل قول الله تعالى: ﴿وَأَنِّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨] أي: أيّاً أحد كائناً من كان، قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ﴾ [الأفقال: ٩] فالاستغاثة عبادة، وصرف هذه العبادة لغير الله تبارك وتعالى شركٌ بالله. وهذا المعنى الذي ذكره؛ وهو طلب الناس من الأنبياء يوم القيامة أن يشفعوا لهم عند الله هذا ليس عبادة، كما أنَّ طلب الناس في حياتهم من الأنبياء ومن الصالحين الأحياء أن يدعوا لهم الله جلَّ وعلا في حاجاتهم الدينية والدنيوية ليس عبادةً، لكن القوم أرادوا أن يُسوِّوا بين مفترقين.

قال: «فهذا يدل على أنَّ الاستغاثة بغير الله ليست شركاً» ولا حظَّ الخلط الواضح عند هؤلاء في تقريرهم للباطل من جهة، واستشهادهم عليه واستدلالهم عليه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى. وهنا يُتَبَّه للفرق بين أمرين: بين الاستغاثة الشركية؛ وهي: الاستغاثة بالغائب، أو الميت، أو الحي الحاضر الذي لا يقدر، هذه استغاثة شَرَكِيَّة.

استغاثة بالغائب؛ مثل: أن يكون رجل في سفينة ويعاين الموت ويعاين العَرَق، ثم يهتف بشيخ أو نحوه، يهتف باسمه: "أنقذني يا فلان!"، "الحقني يا فلان!" وهو حي حاضر، وهذا في البحر، وهذا بعيد عنه في البر، "أنقذني" أو "أعطني"، فهذا شرك. هذه استغاثة شَرَكِيَّة لأنه التجاء واعتصامٌ وعودٌ بغير الله.

ومثله كذلك الاستغاثة بالميت؛ مثل: أن يكون الإنسان أصابه ضرٌّ أو نزلت به نازلة، فيهتف بأحد الأموات "أدركني يا فلان!"، "الحقني يا فلان!" أو "أنا عائد بك يا فلان!"، أو "ملتجئ إليك يا فلان!"، فهذه أيضاً استغاثة شَرَكِيَّة.

أو كذلك أن يستغيث بحَيِّ حاضرٍ أمامه في أمر لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ؛ مثل: أن يطلب منه شفاءً مريضٍ نزلَ به، لا من طريق الأسباب المعروفة وأن يَذْكُرَ له دواء، وإنما يطلب منه أن يشفي مرضه، يقول: "أنا مريض فاشفني"، يطلب منه أن يشفي مرضه، لا أن يطلب منه دواء لذلك المرض وأسباب وعلاجات، وإنما يقول: "أرجوك أن تشفيني" أو "أنا لائد بك أن تشفيني"، وهو أمامه حي! هذا شرك، أو كذلك أن يطلب منه أن يُدْخِلَهُ الجنة، أو يُنْجِيَهُ من النار، أو أن يهدي قلبه، أو أن يُثَبِّتَهُ على الدين، يقول: "أرجوك أن تثبتني على الدين"، وهو أمامه حي حاضر، فهذا شرك بالله عز وجل، ناقض للملة.

فإذاً الاستغاثة الشركية هي: الاستغاثة بالغائب، وبالْميت، وبالحَي الحاضر فيما لا يقدر عليه، وبالحَي الحاضر فيما لا يقدر عليه، هذه استغاثة شركية. أمّا طلب المخلوق من المخلوق في شيء يقدر عليه، مثل: أن يعاونه على عدوّ هاجمه أو أراد إيذاؤه ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى﴾ [الفصل: ١٥]، هنا هذا الصنيع ﴿اسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ﴾ لم يفعل شرّاً، لماذا؟ لأن الاستغاثة هنا ليست استغاثةً بغائب، ولا بميت، ولا أيضاً بحَي فيما لا يقدر عليه، بل هي استغاثةٌ وطلبٌ من حي حاضر يسمع كلامه ويرى حاله في أمر يقدر عليه المخلوق.

قال رحمه الله تعالى: «فالجواب أن نقول: سبحان مَنْ طبع على قلوب أعدائه» ؛ «سبحان» تأتي للتنزيه، تنزيه الله جل وعلا، والمقام هنا مقام تنزيه، يُنَزَّه الله سبحانه وتعالى عما يشركون، يُنَزَّه عن تسويتهم للمخلوقين به سبحانه في حقوقه من الدعاء، والرجاء، والذل، والطمع، والرَّغْب، والرَّهْب.

قال: «فإنَّ الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾» يقول: هذا لا ننكره ، وهذا الذي لا يُنْكَرُ ما ضابطه؟ استغاثة بالحَي الحاضر فيما يقدر عليه؛ ثلاثة أمور: استغاثة بالحَي، الحاضر، فيما يقدر عليه. إن كان ميتاً، أو كان غائباً، أو كان حاضراً لا يقدر، هذا كُلُّه باب آخر غير هذا الباب. وهنا: ﴿اسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ كان موسى عليه السلام أمامه واقفاً، والله سبحانه وتعالى أيضاً أعطى موسى قوةً في بدنه، فكان واقفاً أمامه، فهو حي وحاضر وفي أمر يقدر عليه، واستغاثة قال: "ساعدني"، "أغثني"، "أعني"، هذا جائز وليس من الشرك، وليس باباً من أبواب الشرك. فإذا استدللَّ مستدللُّ بهذه الآية على جواز أن يقول القائل: "مدد يا فلان!" يطلب ميتاً، أو يطلب غائباً، أو يطلب حاضراً فيما لا يقدر عليه؛ "مدد يا فلان" أو "أغثني يا فلان" أو "ثبطني مثلاً يا فلان" هذه الكلمة، هذه الدعوة "أسالك يا فلان أن تثبتني على الصراط المستقيم" هل تجوز بأي حال من الأحوال؟ لا تُطْلَبُ لا من حي، ولا من ميت، ولا من حاضر؛ لأن هذا أمر لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

قال: «وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب» هذا لا بأس به عند ملاقاتة الأعداء يقول القائل لأخيه أو صاحبه: "الحقني"، "أعني"، "ساعدني" كل هذا لا بأس به.

«وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق» مثل: شخص جاء للبحر أو في مكان يسبح وبدأ يغرق وحوله ناس، وقال: "الحقوني"، "أغيثوني"، "أدركوني". هل هذا نوع من الشرك؟ هذا ليس شركاً؛ لأنه ينادي حاضرين أحياء في أمر يقدر عليه المخلوق؛ فهذا كله ليس من الشرك في شيء، بل هذا من الأمور المباحة الجائزة.

قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد»، ضع خطأً عند هذه الكلمة قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد»، أي: هذا الذي أنكرناه. وانتبه لهذه الكلمة فإنها عظيمة جداً، قال: «نحن أنكرنا استغاثة العباد»؛ استغاثة العباد: أن يقف المخلوق أمام قبر مخلوقٍ منكسراً متذللاً خاضعاً راجئاً طامعاً راغباً خاشعاً داعياً طالباً، هذه عبادةٌ وذُلٌّ لغير الله، وتعلُّقٌ بغير الله.

قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله»، هذا الذي نُكِرَ ، قال: "نحن أنكرنا استغاثة العباد التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم" عند قبور الأولياء: أي يذهبون إلى القبر ويستنجدون به، منهم من يطلب ولدًا، ومنهم من يطلب عافيةً، ومنهم من يطلب شفاءً من مرض، ومنهم من يطلب هدايةً، ومنهم من يطلب ولدًا، إلى غير ذلك من الطلبات والرغبات التي ينزلونها بمخلوقين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً فضلاً عن أن يملكوا شيئاً من ذلك.

فسبحان من طبع الله على قلبه وقال: إِنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالُ نُظِيرُ ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، هذا لا يقوله إلا من طُبع على قلبه، ويسوِّي بين مباح وبين شرك صُراح.

قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم» في غيبتهم : يعني أن يكون الولي حي غائب فيهدف به في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، من هداية، ومن إنجابٍ للولد، ومن عافية، وصحة، ورزق، وثبات، وغير ذلك؛ هذا كله طلبه من غير الله تبارك وتعالى شرك بالله.

قال: «إذا ثُبِتَ ذلك فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس، حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة»؛ جائز في الدنيا؛ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يأتون النبي عليه الصلاة والسلام ويطلبون منه الدعاء؛ الدعاء بالغيث "ادع الله أن يسقينا"، الدعاء بالهداية "ادع الله أن يهدي أم أبي هريرة"، الدعاء بالمغفرة والرحمة، إلى غير ذلك مما ثبت مما كان الصحابة يطلبون من النبي صلى الله عليه والسلام أن يفعله أن يدعو الله لهم، وكان يدعو عليه الصلاة والسلام. وهو عليه الصلاة والسلام أعظم الناس جاهًا عند الله وأعلاهم مكانة عنده. فهذا جائز، جائز في الدنيا، وجائز في الآخرة، ولهذا عليه الصلاة والسلام لما جاءوه بعد أن اعتذر الأنبياء قال: ((أنا لها))، فهذا جائز ، وهو عليه الصلاة والسلام الشافع

المشَقَّع ، يشفع للناس يوم القيامة ويطلبون منه أن يشفع لهم عند الله، وهذا صحت به الأحاديث ودلت عليه الدلائل، وهو أمر جائز.

قال: «وهذا جائز في الدنيا والآخرة، أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك، ويسمع كلامك، وتقول له: "ادع الله لي"، هذا جائز باتفاق أهل العلم، ولا خلاف فيه

» كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه في حياته» أي: يسألونه أن يدعو الله لهم بالغيث، بالهداية، بالمغفرة، بالرحمة.

«وأما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره»، ولا يُعْرَفُ عن أحد من الصحابة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك مما كانوا يسألونه إياه في حياتهم عند قبره، مثلاً: أن يأتي أحد ويقول: "ادع الله أن يغفر لي"، "ادع الله أن يهديني"، "ادع الله أن يغثنا"، لما قُحِطَ الناس في زمن عمر قال كلمته المشهورة ، دعا العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فأسقنا، قم يا العباس فادع الله لنا». لماذا عدل رضي الله عنه عن التوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى التوسل بدعاء عم النبي العباس رضي الله عنه؟ لم يعدل إلا لكون الأمر غير جائز، وهم الحريصون على كل فضيلة، والسبّاقون إلى كل خير . وهكذا مضى صنيع السلف الصالح رحمهم الله ورضي عنهم .

قال: «بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف دعاءه نفسه عليه الصلاة والسلام؟» أنكر السلف من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان على من قصد دعاء الله عند قبره، يعني من تحرى الدعاء عند القبر، وقال: إن الدعاء عند القبر مستجاب وأنه أفضل، أو نحو ذلك، فتحرى الدعاء عند القبر أنكروا مثل ذلك، فكيف بمن دعاه نفسه عليه الصلاة والسلام؟ ومن ذلكم إنكار علي بن الحسين -وهو أعلم أهل البيت في زمانه- على من أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الله، فنهاه وقال: «ألا أحدثك حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»، أبوه الحسين، وجده علي رضي الله عنهما، ألا أحدثك بحديث سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي، فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم)) ، فأنكر عليه هذا، فكيف بمن يأتي إلى قبره عليه الصلاة والسلام أو لقبر غيره عائداً ولأئداً ومستجيراً ومستغيثاً؟ قائلاً: "مالي من ألوذ به سواك، وليس لي إلا الالتجاء بحماك ، وأنا عائذ ببابك، ولأئذ بجنانبك، أنا عبدك الفقير الكسير بين يديك، الذليل عندك"، أو نحو ذلك من العبارات التي يقولها المشركون المستغيثون بغير الله سبحانه وتعالى. فهل يقال إنَّ صنيع هؤلاء وعملهم هو من جنس دعاء الصحابة، أو طلب الصحابة من النبي عليه الصلاة والسلام أن يدعو لهم!! أو يقال إنَّه من جنس طلب الناس من الأنبياء يوم القيامة أن يدعو الله لهم!! حاشا وكلا، فَرَّقَ بين الهدى والباطل، والحق والضلال.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وعلى أصحابه أجمعين.

قال شيخ الإسلام الإمام الأَوَّاب محمد بن عبد الوَهَّاب رحمه الله تعالى وقدَّس روحه قال في كتابه كشف الشبهات:

ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا؛ قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شرًّا لم يعرضها على إبراهيم. فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه؛ فإنه كما قال الله فيه: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]، فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكانٍ بعيدٍ عنهم لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل، وهذا كرجلٍ غنيٍّ له مالٌ كثيرٌ يرى رجلاً محتاجاً فيعرض عليه أن يقرضه، أو أن يهب له شيئاً يقضي به حاجته؛ فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ، ويصبر حتى أن يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحدٍ؛ فأين هذا من استغاثة العباداة والشرك؛ لو كانوا يفقهون.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله هذه الشبهة، وبها ختم ما أورده من شبهات يثيرها من يتعلق بغير الله تبارك وتعالى ويصرف العبادة لغيره جلَّ وعز.

قال رحمه الله تعالى: «ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا، قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شرًّا لم يعرضها على إبراهيم»؛ هذا استدلالٌ من هؤلاء أو تشبيهٌ من هؤلاء بتقرير الشرك ودعاء غير الله والالتجاء بغيره سبحانه وتعالى بقصةٍ تتعلق بإمام الحنفية إبراهيم الخليل عليه السلام؛ الذي جعله الله تبارك وتعالى للناس إمامًا، وذكر الله جلَّ وعز في القرآن من قصصه في نصرة التوحيد وإبطال الشرك شيئًا كثيرًا، وكل ذلك لم يُقبل عليه القوم ولم يلتفتوا إليه ولم يحفلوا به، وأخذوا يتبعون المتشابه؛ وهذه طريقة أهل الزيغ والضلال يتبعون المتشابه ويتكون المحكم البين، وإلا ففي قصص إبراهيم مما ذكره الله عزَّ وجل في القرآن وجاء في سنة النبي صلى الله عليه وسلم من النصرة للتوحيد وإبطال الشرك والرد على من يتعلق بغير الله تبارك وتعالى ما فيه كفاية وغنيّة، وما فيه

أيضًا الوضوح والشفاء في هذا الباب العظيم، وكل ذلكم عند القوم يُترك ولا يُلتفت إليه! ثم يتبعون مثل هذه الأمور التي يلَبِّسون من خلالها على الناس!

قال: «ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟» استدلالٌ بهذه القصة من هذا الموضع؛ اعترض جبريل لإبراهيم الخليل في الهواء، وقوله له: "ألك حاجة؟"، قالوا مستدلين على ذلك بجواز الاستغاثة بغير الله: "لو كانت الاستغاثة بجبريل شرًا لم يعرضها على إبراهيم"، فرجعوا هنا بهذا التقرير الباطل إلى عبادة الملائكة واللجوء إليهم واتخاذهم إلهة مع الله، هذا مُفاد هذا التقرير: أنَّ الملائكة يجوز الالتجاء إليهم والاستغاثة بهم والاستنجاد بهم، وهذا اتخاذُ لهم آلهة مع الله تبارك وتعالى، قالوا: لو كانت الاستغاثة بجبريل شرًا لم يعرضها على إبراهيم عليه السلام.

ثم شرع رحمه الله في الجواب على هذه الشبهة قال: «فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى»، ونحن عرفنا في الجواب على الشبهة الأولى أنَّ الاستغاثة أو الطلب هناك طلبٌ من حيٍّ حاضر قادر؛ حيٍّ أمامهم يخاطبونه، وحاضر عندهم، وأيضًا قادرٌ على هذا الأمر الذي طلبوه منه.

قال: «فهي من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمرٍ يقدر عليه» فاجتمعت الأمور الثلاثة كونه حيًّا وحاضرًا وأيضًا قادرًا لما أعطاه الله سبحانه وتعالى من القوة والشدة، ولهذا قال المصنف رحمه الله: «جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمرٍ يقدر عليه؛ فإنه كما قال الله فيه: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥٠]» أعطاه الله سبحانه وتعالى قوةً وشدةً.

ولهذا يقول الشيخ مستدلًّا بالآية: «فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل»؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أعطاه القدرة على فعل مثل هذا الأمر.

«ولو أمره أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكان بعيد -وهو أيسر من الأول بعيدًا عنهم- لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل»؛ فجبريل شديد القوى، وعرض على إبراهيم الخليل أشياء هي في مقدوره؛ ولهذا نظر المصنف رحمه الله تعالى لهذا بمثال قال: «وهذا كرجلٍ غنيٍّ له مالٌ كثيرٌ يرى رجلًا محتاجًا» يعني: يرى رجلًا فقيرًا محتاجًا إلى المال «فيعرض عليه أن يقرضه» فيقول له: تريد أن أعطيك مالاً، تريد أن أساعدك بالمال، يعرض عليه أن يقرضه أو أن يهب له شيئًا يقضي به حاجته، «فيأتي ذلك الرجل أن يأخذ، ويصبر حتى يأتيه الله برزق لا منَّة فيه لأحد»؛ فهل مثل هذا يُقال أنه فيه دليل على الاستغاثة؟! رجل غني يعرض على رجل فقير مالاً؛ فيعذر عن قبوله يريد أن يأتيه رزقٌ من الله سبحانه وتعالى لا منَّة لأحدٍ فيه.

يقول الشيخ رحمه الله: «فأين هذا من استغاثة العباد والشرك لو كانوا يفقهون!!» ؛ أين هذا من استغاثة العباد والشرك التي يفعلها أهل الشرك عندما يستنجدون بغير الله من المقبورين وغيرهم، يسألونهم كشف الكربات وإزالة الهموم وتيسير الأمور، ويسألونهم الولد والرزق وغير ذلك مما لا يُسأل إلا من الله تبارك وتعالى؟! هذا جواب الشيخ رحمه الله على فرض ثبوت هذه القصة؛ وإلا فهي غير ثابتة . وأُعيد ما بدأت به أن القوم تركوا من قصة إبراهيم أو قصص إبراهيم عليه السلام في الكتاب والسنة ما فيه تقرير التوحيد وتثبيتته وتدعيمه ونصرته، كل ذلكم تركوه ولم يحفلوا به وأخذوا يتتبعون الأخبار الواهيات وما لا يثبت ويتعلقون به ؛ لنصرة ما هم عليه من ضلال وباطل.

قال رحمه الله تعالى:

ولنختم الكلام إن شاء الله تعالى بمسألة عظيمة مهمة جداً تُفهم مما تقدم، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها؛ فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً. فإن عَرَفَ التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما. وهذا يغلط فيه كثير من الناس يقولون: هذا حقٌّ ونحن نفهم هذا ونشهد أنه الحق ، ولكن لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، وغير ذلك من الأعذار، ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار؛ كما قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وغير ذلك من الآيات كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]. فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص؛ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة تُبَيِّنُ لك إذا تأملتَها في السنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاهٍ أو مداراة، وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً فإذا سألتَه عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه.

ثم ختم رحمه الله تعالى بهذه الخاتمة الجامعة لتثبيت ما مضى وتقريره؛ قال: «ولنختم الكلام إن شاء الله بمسألة عظيمة مهمة جداً تُفهم مما تقدم، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها» ؛ سيتحدث الشيخ رحمه الله عن أصل مفيدٍ وأساسٍ نافع يتعلق بالتوحيد الذي هو أساس السعادة وسبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، فسيتحدث عن أصلٍ نافعٍ في التوحيد عظيم الشأن، وفي الوقت نفسه يكثر فيه الغلط عند الناس .

قال: «فنقول: لا خلاف أنَّ التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل» ؛ والتوحيد: أصلٌ يدل على الإفراد، توحيد الله عزَّ وجل: هو إفراده بحقوقه سبحانه على عباده وخصائصه جل وعلا التي لا تليق إلا به، ولا تكون إلا له سبحانه وتعالى لا شريك له في شيء من ذلك ؛ فالتوحيد هو إفراد الله بحقوقه سبحانه وخصائصه، ونبذ الشرك والضلال والبراءة منه.

قال: «لا خلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل» ؛ فالقلب يوحد ، واللسان يوحد ، والجوارح توحد، توحد بالأعمال، التوحيد لابد منه بهذه الثلاث.

قال: «فإن اختل شيءٌ من هذا لم يكن الرجل مسلماً» كما سيأتي توضيح ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى. فهذه فائدة عظيمة في التوحيد؛ أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب اعتقاداً وإقراراً واعتراضاً بوحداية الله عزَّ وجل وإيماناً بذلك دون شكٍ أو ريب، واللسان: نطقاً بالتوحيد تلفظاً به وإعلاناً للشهادة به، وبالعمل: بأن يجعل أعماله كلها لله خالصة ولا يجعل لأحدٍ فيها شيئاً.

ثم بيّن الشيخ رحمه الله أمثلة لحصول اختلال في هذه الموازين أو الأصول التي يقوم عليها التوحيد، ضرب شيئاً من الأمثلة على ذلك ، قال: «فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر» ؛ معرفة التوحيد توحيد؛ لكن ترك العمل به كفرٌ ناقض لهذه المعرفة مبطلٌ لها.

«فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما» وهذا يسميه أهل العلم كفر الإياء والاستكبار؛ يكفر عن معرفة، عرف ولم يقبل؛ ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] ، وفي إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] ، فهذا كفرٌ عن معرفة، وهو يسمى كفر جحود وإياء أو استكبار.

قال: «فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما ، وهذا يغلط فيه كثير من الناس» ثم يُبيّن وجه الغلط في هذا الباب.

قال: «يقولون: هذا حقٌّ ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه الحق ولكن» ثم يذكر لهم أعداءً يوردونها يمتنعون بسببها من الإقبال على التوحيد والعمل به، يقولون نحن نعرف أن التوحيد حق بعبارة ذكرها عنهم رحمه الله في بعض مصنفاته ورسائله قال: «يقولون التوحيد زين والكفر شين»، لكن عندما يأتون إلى جانب العمل يمتنعون من العمل لأعداء يوردونها ، لأجلها لا يعملون بالتوحيد الذي قالوا عنه أنه زين وأنَّ ضده وهو الشرك بالله عزَّ وجل شين.

قال في حكاية قولهم: يقولون «ولكن لا نقدر أن نفعله»؛ لماذا لا تقدر على فعله، ما الذي يمنع؟

قال: «لا نقدر أن نفعله ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم» هذا من الأعذار! لا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم هذا من الأعذار التي يوردها بعضهم مع معرفته بالتوحيد، وأحياناً يحصل أن بعض الناس يأتي إلى مدارس التوحيد التي تقرره ويمكث فيها بعض السنوات ويفهم التوحيد ويقف على دلائله وحججه وبراهينه، وإذا رجع إلى بلده رجع إليهم كما كان! موافقاً لهم على كل ما هم عليه من ضلال وخرافة، ويسايرهم في أعمالهم ويحاكيهم في شريكاتهم، وقد حفظ من الدلائل والحجج ودرّسها وفهمها وعرفها وتبين له صحتها؛ لكن مجارة الأهل والعشيرة والمجتمع الذي عاش فيه صار حاجزاً عنده يمنعه من العمل بالتوحيد. يقول: «لا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم» بمعنى أنه إذا لم يكن على ما هم عليهم من الشرك والضلال يعادونه وينابذونه ويسقّونه إلى غير ذلك، فهو لا يريد ذلك، فيمضي إليهم موافقاً لهم.

قال: «وغير ذلك من الأعذار»؛ أعذار هؤلاء في هذا الباب كثيرة؛ مثل أيضاً: اتباع الآباء والأجداد "هذه طريقتنا منذ نشأنا عليها في البلاد، هذه عقيدة الآباء والأجداد".

قال: «ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر، يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار» يعني عرف الحق لكن تركه إما مثلاً مجارةً لعشيرة وقراة، وإما حفظاً لجاهٍ ورئاسة وزعامة، وإما أيضاً استبقاءً لمالٍ وثناء ونحو ذلك؛ فغالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار؛ يعني يُبدون أعذاراً لأجلها لا يُقبلون على هذا الذي عرفوه.

«كما قال الله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]»، يعني استعاضوا عنها بثمن قليل، يعني من أجل شيء من المال وتحصيل شيء من المال آثروا ذلك على آيات الله عز وجل وحججه سبحانه وتعالى وبيناته؛ كما قال الله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وغير ذلك من الآيات كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

إذاً قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذه الآية تفيد أنهم عرفوا الحق وآيات الله سبحانه وتعالى وحججه؛ لكنهم آثروا عليها ديناً زائلة ومالاً فان. وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ فيه أن علماء اليهود كانوا على معرفة بأن النبي صلى الله عليه وسلم حق وأنه مرسل من ربه، وأن ما يدعو إليه حق، لكنهم تركوا ما دعاهم إليه حفظاً للرئاسة وإبقاءً للزعامة والمكانة والجاه. هذا مثال للإخلال بأمور التوحيد التي هي القول والاعتقاد والعمل بالقلب واللسان والعمل.

مثال آخر؛ قال: «إن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه، أو لا يعتقد به بقلبه» يعني وُجِدَ من العمل الظاهر لكن لا يفهم التوحيد ولا يعرفه، أو لا يعتقد التوحيد بقلبه؛ فهو منافق، وهو شرٌّ من الكافر الخالص؛ لأن المنافق يظهر إيماناً ويطن خلاف ذلك.

قال: «وهو شرٌّ من الكافر الخالص؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤]»، فجعل جلَّ وعلا رتبته في النار أسفل رتبة وأحط رتبة؛ هذه فيه دلالة لما ذكره المصنف أنهم شر من الكافر الخالص.

قال: «وهذه المسألة مسألة كبيرة» قوله «هذه المسألة» أي مسألة أنَّ التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل .

يقول: «هذه مسألة كبيرة طويلة تبين لك إذا تأملت في السنة الناس» يعني إذا اختبرت التوحيد وحقيقته في السنة الناس تبين لك هذه المسألة وعظم شأنها، وأيضًا تبين لك الإخلال الكبير الذي يقع فيه كثير من الناس في التوحيد بأعذارٍ يبدو أنها يعتذرون بها عن قبول التوحيد والإقبال عليه.

قال: «إذا تأملت في السنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به؛ لماذا يعرف الحق ويترك العمل به؟! «لخوف نقص دنيا» يعني مثل أن يكون له مكانة ومنزلة فيخاف أن تنقص هذه المكانة وهذه المنزلة عند الناس إذا قبل التوحيد وأعلن ذلك.

«أو جاهٍ» ؛ الجاه: هو المكانة والمنزلة ، ونقص الدنيا: أي المال والثراء.

«أو مداراة» ومقصود الشيخ رحمه الله بالمدارة: أي المداينة، مداينة أهل الباطل.

قال: «وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا، فإذا سأله عن ما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه» فباطنه لا يُطَّلَع عليه لكن إذا سأله عما يعتقد تجد أنه لا يعرف التوحيد ، لو قيل له: ما التوحيد؟ ما الذي ينبغي أن يعتقد الإنسان في التوحيد؟ بعضهم ربما يقول لك: التوحيد أن تعتقد أنه لا خالق غير الله، أو لا غني عما سواه إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، هذه حقيقة التوحيد عنده وهذا حده! فتجد بعضهم إذا تأملت في حاله وجدته لا يعرف التوحيد.

قال: «ترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا» من أين عُرِفَ أنه باطنًا لا يعمل بالتوحيد؟ عندما يُسأل ما الذي يجب أن يعتقد الإنسان في التوحيد ويستقر في باطن المسلم؟ يقول مثل هذه الإجابات التي تدل وتُثبِت عن عدم فهم منه بالتوحيد.

قال رحمه الله تعالى :

ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله، أولاهما: ما تقدم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] . فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله صلى الله عليه كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب، تبين أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفًا من نقص مالٍ أو جاهٍ

أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها. والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]. فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواءً فعله خوفاً أو مداراةً أو مشحّةً بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره، والآية تدل على هذا من جهتين: الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ فلم يستثن الله إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يُكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يُكره أحدٌ عليها. والثانية: قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين. والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين.

ثم قال رحمه الله تعالى: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله عز وجل» يعني بعد أن ذكر رحمه الله أن هذه المسألة وهي مسألة أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، وأنها مسألة كبيرة، وأنك إذا تأملت في حال الناس للنظر في تحقيقهم لهذه المسألة - أي تحقيقهم للتوحيد بالقلب واللسان والعمل، إذا تأملت هل هم حققوا هذه الأمور الثلاثة؟ - تجد أن منهم من وُجدَ منه بعض دون بعض، فلا تكون مجتمعة، والتوحيد لا يكون من الشخص إلا إذا اجتمعت هذه الأمور؛ يعني: كونهم نطقوا بالتوحيد بألسنتهم واعتقدوه في باطنهم وعملوا به في جوارحهم، إذا وجدت هذه الثلاثة صح توحيد الإنسان، وإذا اختل شيء منها لم يستقم توحيده. يقول: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله» أي: يتضح لك بفهمها الأمر وتستبين لك هذه المسألة العظيمة.

قال: «أولاهما» أي: أولى الآيتين «ما تقدم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾»؛ تأمل في الكفر الذي حصل هنا ما نوعه؟ وبما يتعلق من الأمور الثلاثة التي أشار إليها الشيخ رحمه الله؛ قال: التوحيد بالقلب واللسان والعمل.

قال: «فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول صلى الله عليه وسلم كفروا بسبب كلمة قالوها»، الآن هؤلاء كانوا مع النبي عليه الصلاة والسلام؛ قال رحمه الله من الصحابة في غزو، والله جل وعلا ذكر أن كفرهم بعد إيمان؛ قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ذكر أن كفرهم بعد إيمان؛ فهم كانوا على

الإيمان وعلى التوحيد ولكن بهذه الكلمة كفروا، كفروا بكلمة قالوها، فهذه توضح لك أنَّ التوحيد كما أنه بالاعتقاد فهو أيضًا بالقول والعمل.

قال: «فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول صلى الله عليه كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب، تبين» أي: لك من هذا «أنَّ الذي يتكلم بالكفر» أي: يقول بلسانه كلمة الكفر «أو يعمل به» كأن يستغيث بغير الله أو نحو ذلك من الشرك «خوفًا من نقص مال، أو جاه -أي: خوفًا من نقص جاه- أو مداراة لأحد أعظم -أي: كفرًا- ممن تكلم بكلمة يمزح بها» ؛ إذا كان الذين قالوا "ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أجبين عند اللقاء وأكذب ألسنًا وأرغب بطونًا" إلى آخر ما قالوه؛ ثم اعتذروا عن هذه المقالة أنهم إنما أرادوا قطع عناء الطريق، وأنهم إنما أرادوا المزح واللعب ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ؛ يعني: لسنا جادين عندما قلنا هذه الكلمة، وهم يعتذرون، لماذا؟ لأنهم أدركوا أن هذه الكلمة أخرجتهم من دائرة الإسلام، ونزل فيهم هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ؛ فجاءوا معتذرين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكان لا يلتفت إليهم ولا يزيد على قراءة هذه الآية: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ . فهذه الآية تبين كما قال الشيخ أنَّ الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفًا من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم -أي: كفرًا- ممن تكلم بكلمة كهذه على وجه المزح واللعب . فهذه الآية تبين لك هذا المقام العظيم.

والآية الثانية قال: «قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾» تنبه لهذين الأمرين الواردين بعد الاستثناء، قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ هذا أمر، الثاني: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ؛ هؤلاء استثناهم الله.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ يعني من قال كفرًا أو فعل كفرًا فإنه لا يُعذر إلا إذا كانت هذه حاله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ . إذا من قال كفرًا أو فعل كفرًا خوفًا من ذهاب رئاسة ما شأنه؟ كذلك من قال كفرًا أو فعل كفرًا خوفًا من ذهاب جاه أو ذهاب مال أو مذمة الناس فأخذ يدهن ويجاري؛ هذا ما شأنه عندما يقول الكفر أو يقر الكفر؟ مثل أن يكون في مجلس معهم ويقررون هذه الشراكيات ويلتفتون إليه فيقول: صحيح ، وهو في قرارة نفسه يدرك أنه باطلٌ وشركٌ بالله؛ فيقول: صحيح مدارةً أو مداينة لهم ومجاراة لهم؛ فلتنبه للأميرين المذكورين بعد الاستثناء؛ قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ .

قال الشيخ في تقرير الاستدلال بهذه الآية الكريمة: «فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان»؛ فإذا العذر في هذه الآية، يعني من حصل منه الكفر لا يُعذر إلا بشرطين: الشرط الأول: أن يكون

مُكْرَهًا. والشرط الثاني: أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان؛ أي ساكنًا لم يتغير باقي على الإيمان ثابتًا عليه ؛ فالله جل وعلا لم يستثن من هؤلاء أي الذين قالوا الكفر أو فعلوا الكفر إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

والإكراه: كون الشخص وصل إلى حد يخشى على نفسه القتل أو على ولده؛ ففي مثل هذه الحال يجوز للإنسان أن ينطق الكفر أو يفعل الكفر، إذا خاف على نفسه وصل إلى درجة يخشى على نفسه أن يُقتل أو على بعض ولده أن يُقتل فقال كلمة الكفر أو فعل الكفر؛ لكن قلبه في باطنه ثابت على الإيمان . ولهذا الإكراه على القول والعمل، أما الاعتقاد الذي يكون في الباطن هذا لا يكون فيه إكراه، الإكراه ؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾؛ يعني: من أكره على الكفر وخشي على نفسه أو على ولده القتل إن لم يقل الكفر أو لم يفعله؛ فيجوز له أن يقول الكفر وأن يفعل الكفر ولا يخرج بذلك من الإيمان، إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان.

قال الشيخ رحمه الله: «وأما غير هذا» أي: غير المكروه المطمئن قلبه بالإيمان «فقد كفر بعد إيمانه» .

«سواءً فعله خوفًا» يعني: خوفًا من ملامة الناس، أو مذمة الناس، أو احتقار الناس.

«أو مداراة» يعني مجاملة للناس ومداهنة لهم .

«أو مشحةً بوطن أو أهل أو عشيرة أو مال» يعني أثر هذه الأشياء على توحيده لله سبحانه وتعالى وإخلاصه الدين له .

«أو فعله على وجه المزاح» يعني: يقول الكفر أو يفعل الكفر ويقول: إنما فعلته مزحًا ولعبًا .

«أو لغير ذلك من الأغراض» ، قال الشيخ: «إلا المكروه»؛ كما دلت على ذلك الآية، وكما هو واضح في

الاستثناء الذي في الآية: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ﴾؛ لك أن تقول: من كفر بالله بعد إيمانه قولاً أو فعلاً مازحاً أو خائفاً أو مُدَاهِنًا أو حفظاً لجأه أو مكانة أو مشحة بوطنٍ أو أهلٍ أو غير ذلك من الأعذار ؛ كل هؤلاء يكفرون إلا من أكره مثل ما قال الشيخ إلا المكروه، ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ .

قال: «والآية تدل على هذا من جهتين» ؛ قوله "على هذا" الإشارة إلى أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل.

«فالأية» أي قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ «تدل على هذا» أي: على أن التوحيد

لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل «من جهتين»:

«الأولى: قوله ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ فلم يستثن الله إلا المكروه، ومعلوم أن الإنسان لا يُكره إلا على العمل أو

الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها» ؛ سؤال ونجيب عليه من الآية: هل يكفي في أن يكون الشخص موحدًا أن يعتقد التوحيد في باطنه وفي سره وفي قلبه دون القول والعمل؟ هل يكفي في التوحيد أن يعتقد

التوحيد في باطنه وسره لكن لا يعمل بالتوحيد ولا يقول التوحيد، هل هذا كافٍ؟ ليس كافٍ؛ الدليل الآية ؛ قال: «لم يستثن الله إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها» ، وتقرير الاستدلال : أنه لو كان يكفي في التوحيد مجرد الشيء الذي يكون في القلب، المعرفة القلبية أو الإقرار الذي يكون في القلب أو الاعتراف الذي يكون في القلب، لو كان هذا يكفي فما معنى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾؟! لأن الذي في القلب لا أحد يُكره عليه؛ فالإكراه إنما يكون على القول والعمل.

فإذاً هذا وجه في دلالة الآية على أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ؛ فلا يكفي في التوحيد مجرد ما يكون في القلب فقط .

الجهة الثانية في دلالة الآية على ذلك: قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فصريح جل وعز أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر ، ليس سبب الكفر والعذاب المترتب على الكفر لم يكن سببه الاعتقاد، من أين عرفنا أنه لم يكن سببه الاعتقاد؟ لأن العقوبة عُلِّقت على شيء لا علاقة للقلب فيه، وهو القول والعمل ؛ لأن هذا الذي يكون عليه الإكراه، أما الذي في القلب لا إكراه عليه. «فصريح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر»، وهذه أشياء في القلب، والآية ليس الكلام فيها عما في القلب، وإنما الكلام فيها لوجود الكفر وحصول المكفر الذي عليه العذاب، كلها تتعلق بالقول واللسان ، أما الاعتقاد وبغض الدين ومحبة الكفر هذه أشياء في القلب، والتكفير الذي في الآية ليس منصباً على الشيء الذي في القلب؛ وإنما هو منصبٌ على القول والعمل.

قال: «وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين» هذا مأخوذ من قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ والباء سببية؛ يعني بسبب إيثارهم للحياة الدنيا على الآخرة ، أي: على الجنة وثواب الله في الدار الآخرة . «فصريح أن هذا الكفر والعذاب الذي حُكِمَ على أهله بالكفر لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر؛ وإنما سببه أنه له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا»؛ أي: فآثر هذا الحظ الدنيوي على الحظ الأخروي الذي أعده الله لعباده الموحدين وأوليائه المؤمنين.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: فالإنسان الذي يُلجئه من يلجئه إلى أن يصدر من الكفر له حالات: ❖ أحدها: أن يمتنع ويصبر عليها؛ فهذه أفضل الحالات، وهذه الحالة مثل حالة الذي ذُكِرَ في الحديث: ((دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب)) ، وفيه أن أحدهما قيل له: قَرَّبَ؛ قال: لم أكن لأقرب لأحد غير الله؛ فقتل فدخل الجنة؛ فصبر على ذلك. «أن يمتنع ويصبر عليها، هذه أفضل الحالات».

❖ الثانية: أن ينطق بلسانه مع اعتقاد جنانه الإيمان ؛ فهذا جائز له تخفيفاً ورحمة ، قد قال بعض أهل العلم ومنهم الشيخ الشنقيطي رحمه الله في كتابه أضواء البيان وأطال في تقرير ذلك: أنَّ هذا تخفيف لأمة محمد عليه الصلاة

والسلام، واستدل لذلك ببعض الأدلة تجدونها في كتابه؛ منها: الحديث ((رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)) وذكر بعض الدلائل، فهذا التخفيف لأمة محمد عليه الصلاة والسلام في قولٍ لبعض أهل العلم، أن ينطق بلسانه مع اعتقاد جنانه بالإيمان؛ جنانه: أي قلبه، مع اعتقاد جنانه بالإيمان، فهذا جائز له. إذاً الحالة الأولى أفضل؛ يعني: أن يصبر فلا ينطق الكفر ولا يفعل الكفر إلى أن تفارق روحه جسده صبراً على التوحيد هذا أفضل. فلو قال الكفر بسبب الإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان هذا جائز ولا يكون بذلك قد دخل في الكفر.

❖ الحالة الثالثة: أن يُكْرَهَ فيجيب ولا يطمئن قلبه بالإيمان؛ فهذا غير معذور وكافر . أن يُكْرَهَ فيجيب يعني: يجيب بنطق الكفر لكن في الوقت نفسه لا يكون قلبه مطمئن بالإيمان؛ يعني: يكون عنده شيء من أو يدخله شيء من الارتباب في دينه وفي توحيده وفي عقيدته وفي إيمانه بالله سبحانه وتعالى ؛ فهذا غير معذور وكافر.

❖ الحالة الرابعة: أن يُطْلَبَ منه ولا يُلْجَأَ -يعني دون أن يصل لحد الإكراه ولكن يوافق بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان- فهذا كافر؛ لأنه لم يُكْرَهَ على الكفر؛ يُقال له: اسجد للصنم، يُقال له: سب الدين مثلاً، يُقال له من الأمور الكفرية فيبادر دون أن يصل إلى حد الإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان هذا يكفر ؛ لأن الله استثنى من عدم الكفر من كان مُكْرَهًا وقلبه مطمئن بالإيمان.

❖ الحالة الخامسة: أن يُذَكَرَ له ولا يصل إلى حد الإكراه فيوافق بقلبه ولسانه؛ فهذا أيضاً كافر. ثم ختم الإمام رحمه الله تعالى الكتاب بقوله: «والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين».

يمكن مزيدياً للاستفادة في هذا الباب أن يُطالِعَ ويُراجِعَ بعض الكتب المفيدة في هذا الموضوع، والمنطلقة من هذا التأسيس والتقعيد والتقرير الذي قرره الشيخ رحمه الله تعالى، في كتاب «تيسير العزيز الحميد» لحفيد الشيخ: عبد الله بن سليمان بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله في شرحه لباب «من الشرك أن يستغيث بغير الله أو أن يدعو غيره» في آخر شرحه لهذا الباب أشار إلى كتاب كشف الشبهات، ونوّه بالجهد الذي بذله الشيخ رحمه الله في هذا الكتاب المبارك، ثم أضاف رحمه الله ذكر بعض الشبهات وأجاب عنها بنفس طريقة الشيخ رحمه الله في كشف الشبهات. فذكر هناك إضافة بعض الشبهات -وهي ثلاث شبهات يوردها هؤلاء- وأجاب عنها إجابة مفصلة وافية نافعة، يمكن أن تُراجِعَ في كتاب «تيسير العزيز الحميد».

أيضاً يمكن أن يُراجِعَ في الباب كتب أئمة الدعوة التي ردوا فيها على هؤلاء من خصوم الدعوة المناهجين عن الشرك والتعلق بغير الله عز وجل، ومن هذه الكتب على سبيل الإشارة فقط : كتاب «تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس» للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، وكتاب: «القول الفصل النفيس في الرد على المفتري بن جرجيس» للشيخ عبد الرحمن بن حسن صاحب فتح المجيد وصاحب قرة عيون الموحدين، وأيضاً كتاب: «كشف الشبهتين» للشيخ ابن سحمان، وكتاب: «النبتة الشريفة في الرد على القبوريين» للشيخ حمد بن ناصر آل معمر، وكتاب: «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للسهمي.

وغيرها من الكتب النافعة المفيدة في هذا الباب. وكثير من هذه الكتب التي أشرت إليها وغيرها من كتب أئمة الدعوة رحمهم الله مشتملة على مادة نافعة جدًا في كشف الشبهات، ومطالعة هذه الكتب والمرور عليها يفيد طالب العلم، خاصة عندما يكون في مجتمع يُتلى فيه بمثل هذه الشبهات التي تُثار ، فمن خلال هذه الكتب يتمكن بإذن الله عز وجل من معرفة الطرائق القويمة والسبل السديدة لرد مثل هذه الشبهات. وأذكر في وقت قديم فعلت أنا وبعض طلبة العلم واستفدنا من ذلك، استقرئنا هذه الكتب التي ذكرت لكم كلها كتابًا كتابًا وصنعنا لها فهرسة، يعني نذكر الشبهة ونذكر أجوبتها، نذكر الشبهة كرأس قلم ؛ ادعائهم كذا قولهم كذا استدلالهم بحديث كذا ، ثم نحيل على الردود في هذه الكتب بعد قراءتها وتأملها في هذه الكتب؛ فالشاهد أن مراجعة هذه الكتب والاستفادة منها ومطالعتها نافع لطالب العلم.

نحمد الله الكريم حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه أن يسر لنا هذا الخير ، وأكرمنا بدراسة هذا الكتاب والوقوف على مضامينه الطيبة وتقريراته المفيدة. نسأل الله عز وجل أن يغفر للإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ولتلاميذه أنصار هذه الدعوة المباركة؛ التوحيد وإخلاص العبادة لله، ونصرة سنة النبي الكريم، ونبذ الشرك والبدع والخرافة والضلال. نحمد الله عز وجل على نعمه الكثيرة ومننه العديدة، نحمده على نعمة الإسلام ونعمة الإيمان ونعمة السنة، نحمده تبارك وتعالى على كل نعمة أنعم بها علينا في قديم أو حديث، أو خاصة أو عامة، أو سر أو علانية. ونسأله جل وعلا أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يثبتنا على دينه، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا. ونسأله جل وعلا أن يعيذنا من الضلال، وأن يسلك بنا سبيل الهداية والرشاد، وأن يسددنا في أقوالنا وأعمالنا، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.